الوجدانيات

تأليف

محمد فريد وجدي

الوجدانيات

هي مقالات خيالية
الغرض من نشرها تصوير مثل
عليا للحياة الفاضلة وإمداد
النفوس بالقوى الأدبية
الضرورية لها . وقد اخترنا
هذا الأسلوب لمواعظنا لأنه
أفعل في النفوس من سواه

الوجدانيات

الأمم لا يستقيم أمرها إلا
بمثاليات أدبية تستنزل من
عقولها وتتحكم في أهوائها .
وقد أثبت العلم أن الأخلاق
كانت دائماً السبب الرئيسي
لنقل الحضارة عن المدنيات القائمة

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين)
سنة ١٣٤٦ - الموافقة لسنة ١٩٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كنا ننشر منذ سنين مقالات ادبية تحت اسم (الوجديات) نضمنها حكماً خلقية، وآداباً اجتماعية، واصولاً فلسفية. وكنا نصور فيها مثلاً عليا للحياة الفاضلة، ونرسم حدوداً مقررة للمدنية الكاملة، فكانت تصادف من القراء اقبالاً عظيما، وكانوا يستحثوننا على ان نزيدهم منها، ولكن اعمالنا العلمية الاخرى كانت كثيراً ما تحول بيننا وبين التفرغ لها. فكانت تمضي فترة بين الطائفة منها والاخرى، أو بين الواحدة وتاليتها. ثم طرأ علينا من الاعمال العلمية ما قطعنا عنها. ولما يئس القراء من وشك عودنا اليها كانوا يرجوننا فى طبع ما صدر منها، وجمعه بين دفتي كتاب واحد، واشتدوا علينا فى هذا الطلب، وما زالوا بنا حتي وفقنا الله لجمعها وطبعها في هذا الكتاب الذى نقدمه لحضراتهم اليوم

لسنا أول من اخترع هذا النوع من الادب، فقد سبقنا اليه فطاحل كتاب العربية الاقدمين بديع الزمان الهمذاني، وأبي القاسم الحريري، وجارالله الزمخشرى وجلال الدين السيوطي وغيرهم. ثم تلاتلوهم في العصر الحديث الشيخ ناصيف اليازجي اللغوي المشهور بسورية. فرأينا أن نحتذي شاكلتهم، ونترسم خطواتهم، بوضع مقامات أدبية ترمى لاغراض تعليمية، وزدنا عن متقدمينا بأن جعلنا الصبغة الفلسفية فيها متغلبة على سواها، حرصا منا على الغرض الرئيسي الذى حدانا لنشرها. ومع هذا فلم نغفل الناحية الادبية منها، فقد تخيرنا لبسط الآراء الفلسفية، والمنازعات الاعتقادية من التعبير ما كنا لا نتكلفه لودعينا لبسطها فى المعرض العادى لبسط أمثالها، وما ذلك الا لتسهل قراءتها، ويسوغ تكرارها

وقد عنينا بضبط بعض الالفاظ الغريبة وشرحها في أذيال الصحف التي تقع فيها، فلم نعتد بذلك رغبة القارئين، وكنا نود لو توسعنا فى هذا الشرح اللغوي لولا ان ذلك يخرج هذه المجموعة عن حدودها، ويجعلها بالكتب المدرسية اشبه. على أن هذه الأغلاط لا تغيب عن علم القارئين في الجملة

وبعد فاننا بنشر هذه المقامات نرمى كما قلنا في الصفحة الاولي من غلافها الى « تصوير مثل عليا للحياة الفاضلة ، والى امداد النفوس بالقوى الادبية الضرورية » « لها . وقد اخترنا هذا الاسلوب لمواعظنا لأنه أفعل في النفوس من سواه . » « فان الامم لايستقيم أمرها الا بشكائم أدبية تتنزل من عقولها ، وتتحكم في » « أهوائها . وقد أثبت العلم ان الاباحة كانت دائما السبب الرئيسي لكل انحلال » « طرأ علي المدنيات القائمة »

فالله نرجو ان يبلغ عملنا هذا من النفوس المدى الذى نرجوه ، انه ولي الهداية ، ومنه الكفاية .

محمد فريد وجدى

الوجدية الاولى

قال الوجدان :

دعتني الى الاسكندرية حاجة ، لبثت لها فيها أياماً ، ثم أزمعت الاَوبة (١) فتخيرت حُجرة خالية في القطار المسافر منها صبيحة يوم ، فجلست فيها ورجوت ان لا يزاحمني مزاحم ، لأخلو فيها وكتابا يهمني ان آتي عليه في يومي ذلك. مطالب بعيد المنال في القُطُر التي تتراوح بين العاصمتين . فبينما انا مترقب رنة الجرس المؤذن بالمسير (٢) ولم يبق من وقتها الا عشر ثوان، واذا بصوت اقدام في دهليز المركبة، فمنّيت نفسي ان يكون قصدهم الي حجرة غير التي انا بها، ولكن خاب ظني اذ طُرق عليّ الباب طرقتين خفيفتين، فقلت ادخلوا، فانفرج عن اربعة من اصحاب القُبعات، فأشاروا محيين وجلسوا. فآنست من لهجتهم انهم من الفرنسيين، وما كادوا يستقرون حتي قرع الجرس وصفر الوابور ، ثم انساب ينهب الارض نهبا ، ويباري الهواء وثبا (٣) فأخذت ارقب حركات الجماعة ، لأتخذ لنفسي حالا يناسب المقام، فرأيت انهم عولوا على مطالعة الصحف ، وساد في الحجرة السكون، إلا فترات كان بعضهم يلفت بعضا فيها لخبر، او لعبرة من العبر، فأكببت على كتابي اطالعه، منتهزاً هذه الفرصة السانحة، وقد استوعبت طلاوة الموضوع شعوري كله ، فلم ينبهني الي ما حولي الا وقوف القطار علي مدينة دمنهور ، وتصايحُ الحمالين، وفي ايديهم عِياب المسافرين ينقلونها الى المركبات (٤) ونداءُ الباعة بالفاكهة والاطعمة، وما هي الا دقيقة حتي وَغَل علينا رجل (٥) وما كاد يضع حقيبته علي الرف حتي تلاه ثان، وكان الاثنان من الفرنجة (٦) الا ان الاخير كان معروفا لدي الاربعة الاولين ، فأجملوا تحيته ،

---

(١) أزمع الامرَ وأزمع علي الامر أجمع عليه وثبت (٢) الحجرة الغرفة. والقطر بضمتين جمع قطار. والمؤْذن المعلم وزنا ومعني (٣) انساب الرجل مشي مسرعا (٤) العيبة ما يجعل فيه الثياب جمعها عِياب (٥) وغل يغِل دخل (٦) الفرنجة الفرنج

وأحسنوا تكرمته، وقام بنا القطار والحجرة على كظتها (١) فقلت في نفسي لا باس من ذلك اذا لزموا الصمت على طريقتهم الاولى ؛ غير ان الجماعة كانوا اقدأنوا على ما في صحفهم وعولوا على تجاذب اطراف الكلام ، فقال احدهم للصديق الراكب من دمنهور :

الي اى بلد تقصد ايها الصديق ؟

فأجابه : الى القاهرة في هذه الدفعة

فقال له الاول : اشكر لك ما لفتني اليه من البحث المنشور في مجلة (المدنية)، فما اصدق تصويره للحالة الاجتماعية ، وما ادق اسلوبه فى بسط المعلولات والعلل، هذا الي الاستقلال في الرأي ، والبلاغة فى التعبير ، والقوة في الادلاء بالحجة (٢)

فقال واحد من الجماعة : اى بحث تعني ؟

فأجابه : هو بحث ممتع تحت عنوان (أزمة الاخلاق فى المدنية الحاضرة) ذهب فيه الي ان التمدد الفلسفى بتوسعه فى التقصي عن العلل الاولية، والبسيكولوجيا بتعمقها في تحليل العوامل النفسية (٣)، واصطباغ الاثنين بالصبغة المادية ، قد اضاعا على الانسان الاصل الذى تقوم عليه الاخلاق ، فأصبحت مدنية القرن العشرين، وهي احوج ما تكون الى منظم نفساني لاندفاعاتها الجنونية، أفقر مدنية من الوجهة الخلقية. ثم عرض الباحث ضروبا من العادات المستحدثة، وذهب الي انها مرتكزة على اصل الاباحة ، وأخذ ينقب عن مستقر هذه الاباحة فوجدها قائمة على انقاض الاصول الدينية والفلسفية التي هدمتها البسيكولوجيا الحديثة ولم تفلح في إعاضتها بسواها مما هو ضرورى للوجود الانساني من الوجهة الادبية

فقال له ذلك السائل : لقد ضاق صدري من هؤلاء المتنطعة من رجال الكلام (٤) انهم برعوا في صناعتي الجدل والتحليل ، وبلغوا من التأنق فيها حداً أخرجهم عن

---

(١) الكظة اصلها التخمة وهنا بمعني الامتلاء (٢) ادلي بالحجة أتي بها واحتج بها (٣) التقصي بلوغ الغاية فى البحث . والبسيكولوجيا علم النفس (٤) تنطع في الكلام تعمق فيه. والمتنطعة المتعمقون

دائرة الواقع الي عالم الخيال . ان الحياة الانسانية، وما تقتضيه من احوال وانقلابات تابعة للنظام الآلي للطبيعة العامة . فهي تتطور علي مقتضي عوامل لا يحصي لها عدد، وهي في كل طور من اطوارها لا تكون الا مطابقة لاحوال البيئة التي تنشأ فيها، ولكل ما يحيط بها من الشؤون مطابقة النتيجة للمقدمة، بل مطابقة الظاهرة الطبيعية للبيئه التي تتولد فيها ، فما معني تطفل الفلسفة علي عقد هذه السلسلة المتصلة الحلقات، من العلل والمعلولات ؟ وما مبلغ تأثير الكلام فى اطوار هذا النشوء الطبيعى الآلي؟ ان الفلسفة تترجم هذه الاطوار بلغتها ، وتسميها بأسماء وضعتها لها، فترتبها ترتيباً منطقياً علي موجب اصول قررتها هي لا الطبيعة نفسها، ثم تأخذ في التحكم فيها مضيعة وقتها فى البحث فيما يجب وما لا يجب، ولا تدرى انها بعملها ذلك تمثل دور من يتحكم بالكلام علي هبوب الرياح ومجيء سرعتها علي مقتضي الاحوال. هذا رأيي يا مسيو (إدوار) . والتفت الي مهدى مجلة المدنية الى احد الاربعة

فأجابه المسيو إدوار : ان رأيي فيما قلته انك وقعت فيما تعيب غيرك عليه يا مسيو (لوجران)

فقال المسيو لوجران : وكيف ذلك ؟

فقال المسيو إدوار : انك تعيب علي الفلسفة ترجمتها اطوار النشوءات الطبيعية بلغتها ، وتسميتها ادوارها بأسماء وضعتها ، وترتيبها لها علي مقتضي اصول قررتها هى لا الطبيعة نفسها ، ثم أخذها في التحكم فيها الخ، ولم تفعل انت او المذهب الذي تترجم عنه هذه الآراء غير ذلك. فذكرت نظاماً آلياً عاماً ونشوءاً وتطوراً ومطابقة الى غير ذلك ، وهي ألفاظ وضعت لترجمة الحوادث بلغة خاصة كلغة الفلسفة التي تحط من كرامتها

فقال المسيو لوجران : اذن بأي لهجة تريدان يفصل المتكلم بين الحق والباطل، وبين الخيال والواقع ؟

فأجاب المسيو ادوار : التفرقة تكون بذكر الحقائق المسلمة ، لا بسرد القضايا المتنازع فيها ، حتي لا تكون كمن يطفيء النار بالنار

فقال المسيو لوجران : أو لم أفعل ؟

فقال المسيو ادوار : انك اعتمدت في دحضك الفلسفة علي النظام الآلي للطبيعة، وهو ليس من المسلمات المجمع عليها ، بل هي كلمة وضعتها الفلسفة المادية لا تزال محلا للنزاع بين الباحثين ، بل أصبحت بما أصيبت به من التجريح من الكلمات السقيمة.

جاء في دائرة المعارف الكبري الفرنسية صفحة ٨٤٦ من المجلد السابع والعشرين، وهي أحدث وأرقى دائرة معارف في العالم :

« ان الوجود الذى أوجده الله ليس بآلة ساذجة كما تحاول ان تقنع به الناس تلك المقارنات الطائشة »

فاذا كان هذا مبلغ الحكم على الاصل الذي تدلي به، فكيف تريد أن تعتمد عليه فى اصدار حكم قاطع على الفلسفة ؟

فقال المسيو لوجران : اذا كان كل أمر متنازع فيه لا يصح الاعتماد عليه في الادلاء بحجة ، فلا يكون للانسان طريق يتوصل به الى ادراك الحقيقة

فقال المسيو ادوار : الحقيقة ياسيدي لا تزال بعيدة عن الانسان، وهي من الجلالة بحيث لا يدركها عقلنا القاصر بوسائله الحالية. أما طريقها فهو الاعتراف بهذا العجز، وعدم الجمود على مذهب من المذاهب ، أليس كذلك يامسيو (أوسكار)؟ وأشار الي واحد آخر من الاربعة

فقال المسيو أوسكار . انكم كنتم في مجال الناموس الأدبي والاباحة، فما الذي نقلكم الى هذه الميادين الوعر التي احترقت فيها رؤوس الملايين من رجال العلم تفكراً وتاملا ؟

قال الوجدان : فتضاحك الجميع ، الا واحداً وهو الذى دخل بعد المسيو ادوار في دمنهور ، وكان شابا في نحو الخامسة والثلاثين حسنَ البِزّة (١) جليلَ المنظر، تشير قبعته الطويلة الي انه إما من الاعيان او من رجال المال. فتقدم للجماعة بوجه باش وأدب عال ، وقال :

أتسمحون لي ان افضي الي المسيو لوجران بكلمة فى هذا الباب ؟

---

(١) البزة بكسر فتشديد الثياب والهيئة

فصاح به الجماعة وهم يتضاحكون ، دونك واياه فقداستعصت علينا ماديته، ولو كنا نقول بالتناسخ لقلنا انه قد تقمصت في جسده روح (جيبيل) او (فوغت) من أراكين المادية في القرن التاسع عشر

فالتفت ذلك الرجل للجماعة وقال لهم : أبدأ بتقديم نفسي اليكم، وناولهم بطاقة، فقرأها المسيو ادوار واذا فيها : الكونت أمبرتوديل سا نتا زيللي من لومبارديا بإيطاليا فحني له الحاضرون رؤسهم على عادتهم . ثم التفت الى المسيو (لوجران) وقال له بعبارات جمعت آيات الأناقة ، واستكمت شروط اللّباقة (١)

هبْك أصبت يامسيو (لوجران) في قولك ان الطبيعة مقودة بنظام آلي صارم، الا انك غفلت عن امر جلل ، وهو ان الانسان بما نشأ فيه من القوي العقلية، وبما فتحته له تلك القوى من الباحات المعنوية ، وبما دفعته اليه عاطفة التكمل من المرامى القصية، وجد نفسه مضطراً لان (يثور) على هذا النظام الجامد، وان (يتمرد) على مقتضياته. ولو تأملت فى اطوار عروجه من حالته الساذجة، الي ما وصل اليه فى مدي الوف من القرون ، لرأيتها سلسلة ثورات متتالية عليه ، حاول بها ان يوجد لنفسه عالماً معنويا مستقلا يسود فيه نظام عقلي مرن ، قابل لان يتماشي معه في ترقيه الي الغايات البعيدة ، التي يصورها له عقله ، وتمثلها عواطفه ، المتولدة من ذلك العقل نفسه

ولوكان الانسان استسلم الى هذا النظام الآلى من يوم وجوده ، وقنع بسد حاجاته المادية المحدودة ، لما ارتقي من الوجهة الادبية عن القردة، ولا يخفى ان سد هذه الحاجات ، كان ميسوراً له على أدني الحالات، فليس وجوده الشخصي والنوعي على الحالة الملائمة للطبيعة بمتوقف على ترقيه من الوجهة المعنوية الي الحد الذى هو عليه اليوم ، فان في العالم طوائف انسانية لاتزال من يوم وجودها على حالة من التوحش لاتفترق بها عن القردة الا في اشياء اقتضاها تفوقها عليها في تركيبها الجثماني ، ولم يمنعها وقوفها في تلك الدرجة المنحطة عن البقاء الي هذا اليوم

ولكن الطوائف التي تأثرت بعاطفة (الثورة) على الطبيعة من هذا النوع، لم تقف

(١) الاناقة الحسن . واللباقة بفتح اللام الحذق

عند حد من ترقيها ، وقد بلغت بفضل (تمردها) على هذا النظام الظاهرى ما بلغته من الوجهتين الصورية والمعنوية

فالانسان الراقى معارج التكمل (كائن ثائر) على الطبيعة، وهو كلما اشتد في ثورته عليها ، ونال قسطا أكبر من حكومته الذاتية ، قرب من استقلاله التام الخالص من الشوائب ،فاذا بلغه حاول ان يخضع هذا النظام الآلى لارادته، وقد أفلح الى اليوم، ولم يبلغ تلك الدرجة المرجوة له من الاستقلال، فى ان يخضع بعض نواميسه لاختياره

وانا اشرح لكم ادورا من هذه الثورة الانسانية على الطبيعة ، وأبين وجوه استفادة الانسان منها لترقية ذاته ، فاصغوا الي ان شئتم

الطبيعة دفعت الانسان الي التغذى على نظامها الآلي، فكان يجزئه ان يمد الي الافتراس، ويرتع في أشلاء الحيوانات التي تقع تحت يده ، ويلغ فى دمائها كما فعل فى اول امره (١) ولكنه ثار على ذلك فأوجد النار ، فلطف من هذه الوحشية بستر ظاهرها عن عينه، ثم مازال يترقى فى هذه الثورة، حتى تأدي الى الانفة من الافتراس نفسه ، وأخذ يتجه نحو الاكتفاء بالنباتات، وقد جري فى هذا الميدان شوطاً بعيداً متأثراً بروح الثورة ؛ ففتح عليه من جهتها بأسرار صحية لا تقف قيمتها عند حد

والطبيعة الآلية دفعت الانسان لحفظ نوعه ، وكان يجزئه من ذلك ما يجزىء القردة او الزواحف ، او ما يجزيء طوائف الدنيا، من العدوان على كل أنثي تصادفه، والفتك بكل من يزاحمه عليها ، ولكنه ثار علي هذا الدافع الحيواني فأخذ يلطفه، ووضع لذلك قيوداً وشكائم ، حتي ساوي المرأة بنفسه ، وأوجد لميوله من هذه الوجهة آدابا كلفها ذاته، حباً في ان يكون لها وجود أمعنويا مستقلا عن الوجود الساذج المحيط به

والطبيعة الآلية تدفعه لمزاحمة امثاله ، وتحبب اليه الاتيان علي ما في ايديهم ليغني بافقارهم ، ويقوي باضعافهم ، وينعم بالوجود بافنائهم، ولكنه ثار علي هذا الباعث

---

(١) يجزئه يكفيه والاشلاء جمع شلو بفتح الشين وسكون اللام أى عضو. ويلغ من ولغ الكلب في الاناء يلغ بكسر اللام اى شرب منه

الآلي الحيواني فاحدث آداباعامة اخذ نفسه بها، فلطف اولا من خشونة هذا التناحر، ثم ختم ثورته هذه بالثورة علي اصل العدوان نفسه، وهو يعمل اليوم لوضع نظام عام لاعطاء كل ذي حق حقه من افراده بغير اللجأ الي القوة الغاشمة

والطبيعة الآلية لاتعلق وجوده الشخصي والنوعي على ادراكه حقيقة الوجود، ولا علي استكناهه للقوي الخفية المحجوبة عنه، ولكنه ثار علي هذه الجهالة فأوجد لنفسه الديانات والفلسفات، واخذ نفسه في سبيلها بآداب عالية، حرم بها علي ذاته كثيراً مما تدعو اليه طبيعته المادية بقوة عنيفة

يرمي الانسان بثوراته هذه علي النظام الآلي الى تكوين وجود معنوي يكون فيه بمعزل عن هذه الرُبط الفولاذية، او علي الاقل يخفف من وطأتها علي وجوده، بحيث لاتصده عن كماله الأعلي الذي يمثله لنفسه ويتهالك علي تحقيقه بكليته. فهل يليق بانسان، بعد ان يعلم تاريخ ثوراته هذه علي النظام الآلي، ودركته من الوجود اذا خضع له، ان يتبجح بسيادته، وان يدعو اخوانه للدخول في طاعته؟

ان الانسان لم ينل ما ناله من الغَلب علي هذا النظام الحديدي، الا بفضل القيود والرُبط التي حمّلها للم متفرقه، وتوحيد وجهته، فماذا يكون شأنه لو حل تلك القيود، وفصَم عُرَي تلك الرُبط، ومنّي نفسه بأن يَنعَم بحالة فوضوية تحت سلطان ذلك النظام المقيد؟ لاشك في انه يعود الي حالته البهيمية الاولي، ويقع من أسر الطبيعة في حمأة تفضله فيها القردة الهامجة في ودياتها المزعجة (١)

فالفلسفة اليوم حيال ما يبيحه الانسان لنفسه في عهده الاخير من الملاذ والشهوات والفوضي الخلقية، تري ان معني ذلك انه يلقي سلاحه، ويُقلع عن الثورة ضد الطبيعة الآلية، ويَضعف عن متابعة جهاده في بناء ذلك الصرح المعنوي الكريم الذي هلكت في اقامته الي هذا الحد ملايين من افراده لا يحصي لها عدد، فهي من هذه الوجهة تَنعى عليه اصل «الاباحة» الذي يرمي الى نشره بعضُ أهل العَماية من آحاده (٢). فلا

---

(١) الهامجة المتروك بعضها يموج في بعض (٢) نعاه له ينعاه أخبره بموته. ونعى عليه ذنبه عابه عليه. والعماية الغواية واللجاج

تكرَهوا ان تقرأوا مايكتب في تسوى، هذه الاباحة مهما بولغ فيه، ولكن اكرهوا بل تشاءموا من كل مايكتب فى الدعوة اليها على اى وجه كان

اقول على اى وجه كان، لان من الاباحيين من يستتر بمظهر من علم الاخلاق، او يتقدم بوجه مستعار من وجوه الاصلاح الاجتماعي ابدعوالي مذهبه، فاحذروا هؤلاء الضُلاّل ، وقابلوا كتاباتهم بما تستحقه من الاهمال (١)

قال الوجدان : فاه الكونت بهذه الكلمات ببيان يأخذ بالألباب، وخلابة يقل لها الاعجاب(٢)، والسامعون ناظرون اليه باهتين، وبسحر بلاغته مأخوذين، وما كاد يتم ماتصدى له حتي وقف القطار على طنطا، فنهض مستأذنا في الانصراف، قائلا انه سيرود بعض الارياف ، فشيعناه الي باب المركبة ، وعدنا لتتابع السير الى القاهرة ، وما كدت أجلس حتي أدركتني مثل ندامة الكسَعِيّ على ترك هذا العقلَ الكبير يفلت مني دون ان اري من اى المناهل يَمتح، وبأى الآفاق يسبح(٣) فنزلت من المحطة أهرول، فلمحته وسط الزحام يحاول الخروج من المحطة، فاندسست في الجمع ، وطفقت أشق لى طريقاً اليه حتي بلغته ، فأمهلته حتي انتهى الى الشارع، فحاذيته ثم التفت اليه، فرفع قبعته متبسما، فأقبلت عليه مسلما، ثم أخذت أظهر اعجابي بما رد به علي المسيو لوجران، وأهنئه بما أوتيه من البيان، وكان ذلك مني باللغة الفرنسية، وهي اللغة التي أدي بها كلمته الفلسفية

قال الوجدان : فنظر الى نظرة تأنيبية ، وقال ماذا جنت عليكم العربية ؟

فقلت : عفواً ظننت انك لاتدريها

فقال : حيا الله لغة العرب ، وأيد بها دولة الادب ، ما أعذَب مواردها ،

---

(١) الضلال بضم فتشديد جمع ضال (٢) الخلابة التأثير باللسان (٣) الكسعى رجل من العرب اتخذ له قوساً فشرع يجربها فرمي خمسة من حمر الوحش فرآها تصيب الحجارة وتقدح فيها النار. فظن أنها لم تصب مراميها، وكان الحال انها اصابت اهدافها واخترقتها وأصابت الصخور بعدها. فكسر قوسه تلك. فلما علم الحقيقة ندم غاية الندم فضرب به المثل . ويمتح من متح الماء نزعه من البئر

أكرم فوائدها

قلت : لقد رأيت فيك فضلا نادرا ، فاحببت ان ألازمك ولو سحابة هذا النهار، فهل تسمح بذلك ؟

قال : على الرُحب والسعة

ثم مشي ومشيت معه ، حتي انتهينا الى فُندُق، فتبوأ نا منه غرفة تطل على ميدان المحطة

فالتفت الي وقال : لقد سئمت الكلام وزخارفه، فليس وراءه طائل، ولو بلغت منه مكانة سحبان وائل ، وانما حُببت الي العلوم الخفية، فهي مشرق الانوار العلوية، ومهبط الاسرار السماوية ، وقد علقت منها بفرع ليس وراءه غاية

قلت : ألا تتحفني منه بآية ؟

قال : أنا بين يديك ، فأغمض باصرتيك

ففعلت

فقال : افتحها

قال الوجدان : ففتحتها فاذا بي في رواق من اجمل ما وقعت عليه العين، تتصل به أروقة أخري غاصة كلها بالاوربيين ، وهم جالسون كأن على رؤسهم الطير، منصتين الي خطيب على منبر بهو من أوسع وآنق ما رأيت، يحف به عدة مئتين من أمثاله ، جالسين على مقاعد كأنهم في حلقة درس ، فعرتني خشيَة، كادت تتلوها غشيَة ، ولكني تجلدت ظناً انها ألعوبة سماوية، من صناعة الكونت الايطالي ، صديقي هذ اليوم ، فأخذت أجيل طرفي في ذلك المجمع الفخم ، واتعجب من جمال هذا البناء الضخم ، فعلمت من نقوشه انه مجلس النواب الفرنسي ، وعرفت ان ذلك الخطيب المصقع هو المسيو بريان يفضي الي نواب الامة بثمرة اعماله السياسية في مؤتمر لندن، والسامعون يقاطعونه بالتصفيق الحاد والهتاف المتكرر. كل هذا وانا ظان اني اشهد مشهدا خياليا ، لا وجودا حقيقيا، فحاولت ان ارى صديقي الكونت فأعياني أمره، فانتظرت وانتظرت حتي مضت ساعة، وأتم الخطيب خطبته، وأخذ الجمع يرفَضّ، فنزلت معهم، فاذا انا بباريس، أزحم فيها المارة ويزحموني، وأكلم الناس ويكلموني،

فساء ظني في هذه الحال ، ومضت ساعة اخري تحققت فيها اني بعاصمة فرنسا لا محالة،وان هذه المرائي ليست بألعوبة سماوية،ولكنها حقيقة مادية،فضاق صدري. وكاد ينالني ذهول من شدة وقع ماانا فيه ، ومما تستتبعه غيبتي عن اهلي،وانقطاع خبرى عنهم،فلم ار افضل من تعريفهم عن مكاني بالتلغراف،وإخبارهم بأني قادم اليهم بأول باخرة . ولكن هل يصدقون ذلك وقد كنت ارسلت اليهم في اليوم السابق كتابا من الاسكندرية فيه تفصيلات شتي عن مهمتي التي انتقلت من اجلها الي ذلك الثغر ؛ لم أر وجهاً للتردد ، فهذا اخف عليهم من انقطاع خبرى عنهم، فركبت مركبة اوصلتني الي ادارة التلغرافات،وبينما انا ازاحم من فيها لأصل الي العامل،واذا بيد وضعت على كتفى ، فالتفت فاذا به صديقي الكونت ، فصحت به رحماك فقد اهلكتني

فقال : ماالذى هالك

قلت : اما ترى اين انا ؟

قال : فماذا كنت قائلا لو كنت قذفت بك الى احد الكواكب ؟

قلت: الكواكب؟

فضحك متعجبا من خور عزيمتي ، ثم قال اتبعني ، فتبعته حتي دخلنا الي حديقة عامة ، وهنالك فقدت زميلي فجأة ، وبينما انا اتلفت يمنة ويسرة،اذا به يناديني بين اغصان دوحة ، فرفعت ببصرى فاذا بصديقي البلبل

فصحت به : هو انت ؟

فقال : متي تكون رجلا ؟

قلت : اما الرجولة على مايفهم الناس ، فانا عند مايظنون ، ولكن هذا ....

فقال : هذا ماذا ؟

فقلت : هذا .... هذا ....

فقاطعني قائلا : أغمض عينيك

ففعلت . فاذا بي في فندق طنطا ، فخرجت منه عائدا الي القاهرة،متعجبا من هذه الآية الباهرة

الوجدية الثانية

قال الوجدان :

خرجت من دارى صبيحة يوم قاصداً زيارة صديق لي آب من سفر، فسرت في شارع الدواوين ، حتي اذا حاذيت حارة السقائين ، ملت ذات اليمين، فبينما انا اخترق احد الازقة الموصلة الي داره، واذا بغلام لايجاوز السابعة ، حافي القدمين، حاسر الرأس، وعليه اهدام انحلها البِلي (١) وهو يحثو التراب بكلتا يديه، ويذروه حواليه ، حتي غص الجو بالغبار، وار بدّت منه حوائط الديار (٢) فصحت به وقد غشي بصري القَتام ، كُفّ ياغلام كفّ ياغلام (٣). فوالله ما رفع بزجري رأساً، بل مضي في شأنه كأن فى اذنيه وقرا . فلما حاذيته نظرت اليه مغضَباً، وقلت له أما تستحي ؟

فنظر اليّ رابط الجاش ، وقال : ممن ؟

قلت : من المارة ومن ساكني هذه الدور

قال : كيف استحي ممن لا يستحيون مني ؟

قلت : وممّ يستحيون منك ؟

قال : من اهمالى على هذه الحال متروكا وشأني ، محروما من مقومات الحياة العقلية والجسدية

قال الوجدان : فدَهِشت من سرعة جوابه ، واصابته وهو بهذه السن، وفي هذه الحال . فقلت له اين أبواك ؟

قال : هاهما ، واشار ذات اليمين وذات الشمال

---

(١) حاسر الرأس اى مكشوف الرأس. وأهدام جمع هِدْم وهو الثوب البالي. وأنحلها اي جعلها ناحلة. والبلي الخلوقة والقدم (٢) يحثو يغترف. ويذروه ينثره. واربدّ صار أربد اللون اي أغبر (٣) غشي حجب. والقتام التراب

فقلت : لم أر احدا
فقال : انما اشير الي الشارع والحارة
فقلت : أهما أبواك ؟ وضحكت
فقال : لم أر أحني منهما عليّ منذ كنت
قلت : انما اعني اباك الذي تسميت باسمه، وامك التي حملتك في بطنها، وغذتك بلبنها
قال : زعموا ان ابي هو الأوسطي دهشان الحوذي ، وان أمي هي حسنة امرأة عطية الفاعل
قلت : فلم تقول زعموا ألست تعتقد انهما أبواك ؟

قال لا اعتقد ذلك لانهما اشد عليّ من كل احد. فأما الذي يقال عنه انه ابي فانه يضربني ضربا مبرّحا لأقل ما تلفقه له امرأته عني، وكانه في معاملتي يحمل عليّ سخيمة موروثة (٢)، فهو لا يحادثني ولا يلاطفني، واذا اتفق ان تلاقى بصره وبصري اسرع الى تقطيب حاجبيه، والتكشير عن نابيه، وكثيرا ما تصيّد سبباً لطردي من بين يديه (٣) هذا فضلا عن انه لا يُعني بأمر مأكلي ولا مبيتي ولا تربيتي، ولولا ان امرأته ترمي اليّ حُثالة ما تأكل لمت جوعا (٤)

اما التي يقال انها أمي فاني اذهب اليها في بيت زوجها كلما آلمني السغب (٥) فتضمني الى صدرها ، وتناولني اطيب ما عندها ، وقد تبكي من رثاثة أطماري (٦) فتأتي للامة امرأة ابي فتقع بينهما معركة، ويجتمع حواليها الجيران، وقد يأتي الاب فيشترك في المعمعة، وتنتهي بذهاب الام الي بيتها وتركي لذينك الوحشين الضاريين، فلا يدخران وسعاً في إيلامي بحجة اني سبب هذه الفتنة. وانا لا اري اية جريرة لي فيها. وكثيرا ما اتفق ان زوج امي يراني لديها فينحي عليها بالضرب الموجع فأهرب قبل ان انال من عطفها ما انا في حاجة اليه، ولو في كل شهر مرة (٧)

---

(١) احني بمعني أحنّ (٢) الضرب المبرح الشديد. والسخيمة هي الحقد (٣) قطب حاجبيه قرّب ما بينهما. والتكشير عن النابين كشفهما (٤) الحثالة فضلة المائدة او رديء الطعام (٥) السغب الجوع (٦) الاطمار جمع طِمر الثوب البالي (٧) فينحي عليها اي فيقبل عليها ويقصدها

فانا مضطر إزاء هذه الحال ان آوي الى ابوي العطوفين الشارع والحارة، ولكني كلما رأيت انهما آهلان بدور وقصور، فيها اطفال من سني يمرحون مترفين، ويلعبون ناعمين (١)، ويرسلون الي دور التعليم لتتثقف عقولهم، وتتوسع مداركهم (٢) وأراني شريدا طريداً يدفعني حائط ويتلقاني آخر، لاساوى في نظرهم كلابهم التي تتلاعب مرحة فى اطواقها اللامعة بين ايديهم، احس بدبيب الحقد في نفسي عليهم وعلى آبائهم، فأنا احفظ فى صدري لهم شرما يحفظه قلب مكلوم، لخصم غشوم (٣) فأقسمت بأن لا آلو جهداً في ازعاجهم، ولا أدخر وسعاً في اقلاقهم (٤)

فقلت له : لم كل هذا، أتراهم جنوا عليك ما انت فيه ؟

فقال الغلام : انا لا ادري ذلك، ولكن هذا التفاوت بيني وبين اولادهم، يؤلمني إيلاماً لا أستطيع وصفه، ويحملني على الحقد عليهم، والكراهة لهم، وسيرون مني شر ما يري القرن من مناوئه، لا افتر عنهم ما حييت

قلت : وماذا تنوي ان تفعله في ضروب انتقامك منهم ؟

قال : سيكون ذلك على قدر وسعي فى كل دور من ادوار حياتي، فقد كنت وانا ضعيف آتي فأحدث امام ابوابهم، وألطخ بالطين جدران دورهم، وارجم بالاحجار نوافذهم (٥). واليوم ازيد على ذلك اثارة الغبار عليهم، والصراخ بأقصي صوتي حواليهم. ومتي كبرت زدت على ذلك ضرب اولادهم، وسرقة كلابهم وقططهم، والتسلل الى افنيتهم، واختطاف ماتصل اليه يدى من اثاثهم وآنيتهم، فاذا ازددت قوة وصلابة ترنمت بأفحش الالفاظ تحت نوافذهم، وتجرمت على خدامهم متذرعا الي ضربهم، وافترصت الفرص لتسلق حيطانهم لسرقة اموالهم، الى ماليه مما تلهمنيه الحال متي بلغت مبلغ الرجال

قلت : بئس ماتحدث به نفسك ايها الغلام

---

(١) مترفين اى منعمين، وناعمين اى متنعمين (٢) لتتثقف اى لتتعدل (٣) مكلوم اي مجروح. وغشوم اي ظالم (٤) لا آلو اى لا اقصر (٥) تجرمت عليهم الجرم ولم يجرموا. ومتذرعا اى متوسلا. وافترص الفرصة انتهزها

فقال ضع نفسك مكاني فكن طفلا حاسر الرأس تحت الشمس، حافي القدمين فوق الرمضاء(١)، ليس لك مما يقي جسدك الا اسمال بالية، لا تمنع من لفح هجير، ولا تحمى من نفح زمهرير، وانت مع ذلك سغبا لاتنال الكسرة الا بشق النفس(٢) وتري بعينيك الحلوى والفاكهة تعرض في الطرقات فيرتع فيها اولاد الاغنياء دونك، قلت كن كذلك ثم خبرني عما يجيش في صدرك من الاحقاد والسخائم على مجتمع لم تجن عليه غير أنك تعد من آحاده؟

قال الوجدان: فوالله لقد ادهشني هذا الغلام بذرابة لسانه، وقوة بيانه(٣) حتي انساني ما خرجت من بيتي من اجله، ولم اشأ ان ادعه حتي اصل معه الي حد ارضى به، فقلت له:

من الذى نفث في روعك هذه الحمم من السخائم، وما الذي يسوغ لك التحفز لارتكاب هذه الجرائم؟ (٤)

قال: نفثتها في رُوعي طبيعة الحال الذي انا فيه، وهي نفسها التي تسوغ لي ارتكاب كل ما يمكن تخيله من الجنايات والمخازى

قلت: انك تكلمني بلسان رجل عاقل، لا بلسان غلام جاهل، فمن أين لك هذه الألمعية، فى هذه السن الطفلية، والحالة الشقية؟

قال: انا لا افرق بين علم وجهل، ولقد اجبتك على ماسألت، فان رأيت في اجابتي ما تسميه عقلا، وفي حالتي مالا يعطيه، وكان ذلك في نظرك يحتاج لتعليل، فتول انت حل هذا الرمز، اما انا فلم اقوَ بعدُ على التفكر في هذه المسائل

قال الوجدان: فصمت حائرا في امره برهة، ثم قلت له: ياغلام، يلوح لي ان الله قد منحك عقلا فطريا رفعك عن المستوي المعهود في امثالك، واري انك لوجمعت الي هذا العقل المطبوع، زيادة العلم المسموع، لنشأت احدي العجائب، ولأتيت بالغرائب

---

(١) الرمضاء الارض الحامية من شدة الحر. (٢) الاسمال جمع سَمَل وهو الثوب الخلق. والهجير شدة حر النهار، ولفحه احراق الوجه. والزمهرير شدة البرد. ونفحه اي هبوبه البارد (٣) ذرابة اللسان حدته (٤) روعُ قلبك. والحمم كل ما احترق من النار

قال : إى والله ياعم ، واني لأخشي ان لا ينفعني هذا العقل المطبوع ، ان لم يؤازره العقل المسموع ، كما قال الشاعر الحكيم :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مطبوع اذا لم يك مسموع
كما لا تنفع العين ونور الشمس ممنوع

قال الوجدان : فكدت ألفت في الطريق نظر المارة من الهزة التي اعترتني عند سماع هذا الطفل ينشد هذه الابيات بألفاظ مقوّمة ، وعربية بينة ، فقلت له : ماهذا الشعر ، اين حفظته ، ومن الذي درّبك على النطق به كأحسن ما ينطق به شاعر مُعرِق ؟ (١)

قال : سمعت بعضهم يقرأة فى كتاب فحفظته

قلت : أحفظته من سماعه مرة واحدة ؟

قال : اوَيحتاج الانسان في حفظ شيء الي سماعه مرتين ؟

قلت أصغ الىّ ، وانشدته سبعة ابيات مما احفظه من شعر أبي الطيب المتنبي وهي :

اجاب دمعي وما الداعي سوي طلل دعا فلباه قبل الركب والابل (٢)
ظللت بين أصيحابي أكفكفه وظل يسفح بين العذر والعذل (٣)
اشكو النوي ولهم من عبرتي عجب كذاك كنت وما اشكو سوي الكلل (٤)
وما صبابة مشتاق على امل من اللقاء كمشتاق بلا امل
متي تزر قوم من تهوي زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والاسل (٥)
والهجر اقتل لي مما اراقبه انا الغريق فما خوفي من البلل

وسألته ان يعيدها علىّ ، فوالله ما تاتأ ولا تمتم ، بل اندفع ينشدها بلسان طليق ،

---

(١) معرق اى اصيل (٢) الطلل أثر الدار (٣) اكفكفه اي امسحه . ويسفح اى ينهمر (٤) النوي البعد . والعَبرة الدمع . والكلل جمع كِلة وهي ستر رقيق اي انه الآن يبكى من بعدهم وقد كان يبكى وليس بينه وبينهم الا ستر رقيق (٥) البيض السيوف . والأسل الرماح

وترنم عذب ، حتي اتي عليها (١) فازددت عجبا من قوة حافظته، وقلت له يا غلام: إن لك خصائص نادرة ، لاتصح إضاعتها، فسأتولى انا شأنك فأدخلك الى ملجأ تتربي فيه ، وسأزورك حينا بعد حين، فأرى ماذا يكون من امرك، فلا تعود بعدها حاقداً على المجتمع الذى اهملك، وسأذيع حكايتك هذه حتي يتنبه الناس الى امثالك فلا يضيعوهم سدى، ولا يربوا بين ظهرانيهم منهم اشدى العدي، فهلم معى من فورك الى بيتي لأتحفك ببعض الملابس ، ثم اذهب بك الي الملجأ ، فقل لي اين يشتغل ابوك حتي اقفه على ما فعلتُ معك ؟

قال : شكراً لك فخذني اولا الي بيتك حتي اذا كسوتني واطعمتني، اريتك مكان ابي

قلت : اتبعني ، ثم سرت وسار خلفى مترسما خطواتي، حتي انتهيت الي داري فدخلتها ، وهمّ الغلام بالدخول معى فزجره البواب، فأشرت اليه بأن يدعه، فدخل، فأجلسته على كرسي بمكتبي، قائلا له لا تبرح هذا المكان حتي آتيك ببعض الملابس، وصعدت فجمعت له ما تسني ثم عدت اليه، لأسره اولا برؤية ما اعددته له، ثم اوعزت الي بعض الخدم بغسل جسمه وإلباسه، فألفيته ممسكا بيده كتاب (دورة المادة) للمادي الالماني المشهور (مولخوت) وكان على مكتب بجانبه

فلما اقبلت اليه، نظر الي متبسما وقال : ماذا يفعل هذا هنا، واشار الي الكتاب،

قلت : مالك ولهذا ؟ ولِمَ تشير الي هذا الكتاب دون غيره مما هو على المكتب،

وصحت ياصالح خذ هذا الغلام فأعنه علي الاغتسال وألبسه هذه الملابس، واطلب له غذاء ، ودعه عندك حتي اطلبه

فقال الخادم : سمعاً وطاعة ، واقبل الي الغلام فأمسك بيده وقال له هلم معى فجذب الغلام منه يده ، وقال والله لا افعل حتي يخبرني سيدك عن الاثر الذي تركه فى نفسه ذلك الكتاب، وهل هو يري رأي مولخوت ومن حذا حذوه من ماديي القرن التاسع عشر ، في أبدية المادة وأزليتها، ام رأى المحدثين في ان الجوهر الفرد مكون من إلكترونات يدور بعضها حول بعض كما تدور الكواكب حول

---

(١) «تأتأ» تردد في التاء فى كلامه . وتمتم تردد في التاء والميم

الشمس وانها ليست بشيء غير كهرباء اسرعت حركتها في الاثير حتي ظهرت ملموسة ، ام رأى من يقول انها روح متجسدة

قال الوجدان : فتبسم الخادم من سماعه كلاماً لا يفهمه، وحرت انا من ذكر هذا الغلام لمسألة من كبريات المسائل، وذهابه في تفصيلها هذا المذهب الدال علي إلمامه بها

فأمرت الخادم بالانصراف، واقبلت عليه تلوح عليّ دلائل الدهش والحيرة، وقلت له من اين علمت ان هذا كتاب موخوت ؟

قال : عجباً أليس اسمه مكتوبا عليه ؟

قلت : هل تقرأ الفرنسية ؟

قال : والانجليزية ، وقد قرأت هذا الكتاب بلغة مؤلفه الالمانية

قال الوجدان : فكدت والله لا اصدق ما اري لولا انه حقيقة محسوسة، ولقد بلغ بي الدهش من هذا الامر حدا لا استطيع وصفه، وكيف لا ادهش من غلام لا يجاوز السابعة ، في خلقان ممزقة ، يعرض عليّ مسألة المادة في معرضها السابغ (١) ويعرف ما يحويه كتاب (موخوت) وهو من الكتب التي لا نغالي ان قلنا انه لم يقرأه في مصر خمسة انفس ، ويكلمني بلسان طلق ، وعربية لم تشبها شائبة

فقلت له : ايها الغلام لقد اعجزني امرك ، ولا أبعد إن قلت انك تعتبر آية من آيات الله في خلقه، ولقد ذكرت لي في الطريق انك ابن دهشان الحوذي، وانك نبتّ في احط المغارس، ولقيت من عثور الجد ما قدّر لكل تاعس (٢) واراك الآن وانت في هذه السن فوق ما نتظره من شيخ حني الدهر صعدته ، في العلم والفلسفة (٣)، فكيف اوفق بين ما رأيته وسمعته منك في الطريق ، وبين ما أراه وأسمعه منك هنا ؟

---

(١) الخلقان جمع خلق بفتح الخاء واللام اى قديم بال والمراد في ثياب خلقان. ومعرضها بكسر الميم اى في ثوبها واصله الثوب الذى تجلي فيه المرأة ليلة العرس (٢) عثور الجد كناية عن عدم التوفيق . والتاعس هو التعيس (٣) الصعدة الرمح القصير وحني الدهر صعدته كناية عن احناء قامته من الهرم

فقال الغلام : انا في الطريق رسلان بن دهشان وهنا هرمس بن لقمان ، ولى اسماء اخرى فى اماكن اخرى ، ألست حراً فى ان اتسمي من الاسماء بما اشاء ؟

قلت : لندع الاسماء جانبا الآن ، ولكني احب ان اعرف كيف نشأت، واين تعلمت، ولمَ لبست الخلقان ، وتعرضت للوجدان ؟

قال : أهذا كل مايدهشك مني ، وتحب ان تأثره عني ؟ (١)

قلت : انك من العجب بحيث لو بلغ امرك العلماء، لقصدوا اليك من ابعد الانحاء، ولنقلوا صورتك واحاديثك الى الامم جمعاء

قال : مالي انا ولهذا ، لا تهرُب مما سألتك عنه آنفا وهو : ما منزلة نظرية موليخوت عندك ؟

قلت : اما ماذكره في تطواف المادة من البسائط الي المركبات ،وتقلبها في المظاهر المختلفات ، على مقتضي النواميس الثابتة ، فما لا يختلف فيه عقلان، ولا يأباه انسان. وأما ماذكره عن أصل المادة ، وعن انها جواهر فردة،لا تقبل الانقسام . فهو من المرجحات لان العقل لا يري عنه محيدا ، وان اوسعه المتكلمون تفنيدا

قال : كيف لا يري العقل عنه محيدا ؟

قلت : مادام الانسان يحس بأن المادة جامدة، يقلبها بين يديه، ويطأها برجليه، فهو مضطر بحكم العقل والحس معاً ان يحكم بأنها لا بد من ان تنتهي فى آخر ادوار التحليل الي ذرات صلبة ، متناهية فى الصغر ، لا تقبل الانقسام ، وهذه الذرات باجتماعها تتألف منها الاجسام

قال : اراك تذكر العقل ، فهل تقبل حكمه ؟

قلت : وهل لى معتمد سواه ؟

قال : فكيف تعقل جسما مهما تناهى فى الصغر ، لا يقبل الانقسام ؟

قلت : انا بين امرين . فاما ان اقول انه يقبل الانقسام الى مالا نهاية له، وهذا محال ، واما ان اقول انه لا يقبل الانقسام لتناهيه في الصغر، وهذا اهون الشرين

---

(١) أثر الحديث من باب ضرب ونصر نقله

قال هذا تحكم لا يسوّغه العقل نفسه، ادّاك اليه شدة اغترارك بقواك الادراكية، واستخفافك بالحقيقة الخفية

قلت : وهل كنت استطيع غير هذا ؟

قال . نعم . فما دمت لم تعقل ان جسما صلبا مهما تناهي في الصغر يتعاصي على الانقسام، كان يجب عليك ان تعترف بأن عدم قبوله له غير معقول ، وتقف عند هذا الحد منتظرا ان يفتح الله عليك بفهم مالم تفهم ، لاان تصدر حكما مخالفا للعقل الذى تعتمد عليه، ثم تجعل من ذلك الحكم علما تدعوه طبيعيا محققا، فتبني عليه صروحا من الفلسفات الفارغة والطامات الكُبَر

قلت . اصبت والله ، ولكن اذا كان هذا الرأى لا يعقل، فهل يعقل ان تكون المادة قوة محضة وانما هي تظهر جامدة بسبب سرعة حركتها ؟

قال . وهذا مما لا يعقل ايضا، ولكنه اقرب الى التحقق من الرأي الاول لعدة اسباب كلها من القواعد الاولية ، في الابحاث الطبيعية

(اولها) ان القوة ابسط ما يتصوره العقل، وهي بعد العدم برتبة واحدة ، واذا كان للكائنات بداية ، فلا بد من ان تكون تلك البداية ابسط شيء . والجوهر الفرد ليس بأبسط شيء ، وكيف يكون كذلك وله طول وعرض وسمك وصلابة، وهي اعراض قائمة بجوهر ، وله صفات اخري من جذب ودفع الخ، وقوي لا تنتهي الى غاية، نحلها اياه اصحاب هذه النظرية ، وان كائنا هذا شأنه من التركب لا يعقل ان يكون اول كائن ، بل مجتمع من اوليات سبقته في الوجود كما لا يخفى، لأن محض تركبه يوجب ذلك

(ثانيها) ان القول بأن المادة اصلها الاول جواهر فردة متناهية فى الصغر، حكم ساذج يماشي حس المشاعر الغليظة ، التي ثبت ضلالها في كل مدركاتها، ولا يماشي ما ادركه الشعور العالى من ان هذه الظواهر المرئية قشور لوجود ألطف منها ، وقد اضطر العلم نفسه الي فرض وجود هيولي لطيفة ليست مكونة من ذرات ولا وزن لها ولا مسام، سماها الاثير . وقرر ان المادة متولدة منه لا انها اصل قائم بنفسه

(ثالثها) ان القول بان اصل المادة الجوهر الفرد ينفي القول بأن اصلها الاثير

وكيف يعول على ذلك الآن والاثير اصبح من الضرورات التي لامحيص عنها في العلم الطبيعي ؟

قلت : ان ماقلته يعتبر من البديهيات

قال : وهو قول العلم الرسمي نفسه، وانما يحرص الماديون على القول بالجوهر الفرد، على ما فيه من منافاة العقل والعلم ذاته ، لان تخطي دائرته يفتح عليهم بابا الى ما ينمي مذهبهم ، وهم احرص عليه من كل عزيز عندهم

قال الوجدان : سمعت كل هذه التحقيقات العلمية العويصة، وتلقفتها من ذلك الطفل الناعم ، وهو في هدومه البالية ، وحقارته المتناهية (١)

فقلت له : ايها الصغير الكبير، انك آية من آيات الله في خلقه، وحجة من حججه على عباده ، ولقد حظيت منك بما قد لايحظي به الآحاد، في طوال الآماد، فهل لك ان تكرمني بالافضاء اليّ بجلية امرك ،ودخيلة سرك ؟

فضحك الغلام ضحكة طفلية ، ثم نظر اليّ نظرة جدية وقال اصغ اليّ

قال الوجدان : فما رنّت كلمته في اذني حتى رأيته انقلب شيخا ذا وجه بدريّ، وسمت وضيّ

فصحت به : مرحبا بأستاذى الحكيم بن مرشد، لقد ..... وسطت عليّ مهابته فلم استطع ان ازيد على ذلك كلمة

فقال : اصغ اليّ ياوجدان ، وخذها خفيفة على اللسان ، ثقيلة في الميزان

إن لهذه النابتة الضائعة التي تتعثر بها ارجلكم ودوابكم فى احناء الطرق، وزوايا السبل ، لحقا إن عيّت عن مطالبتكم به اليوم بلسانها، ارهقتكم عليه غداً بأفعالها ، واني لأعجب كيف تشكون من انحطاط اخلاق العامة ، وتتذمرون من تزايد عدد الشطار واللصوص والقتلة، وتتألمون من تفاقم شر المتشردة والعطلة (٢) وتتجاهلون انكم السبب الاول في نشر هذه المخازي باهمالكم عواملها ، واغفالكم مناشئها

(١) الهدوم جمع هدم وهو الثوب البالي (٢) الشطار جمع شاطر وهو الذى يشطر الجيوب لسرقة مافيها .

ولو حسبتم ما ينال المجتمع من بوار ، وما يصيبكم فى اموالكم من خسار ، وما يستتبع انحطاط طبقتكم الدنيا من قلة في الجهود ،وضعف في الوجود ، وتقصير في المنافسات الاجتماعية ، وعجز عن الثبات فى الحرب المعاشية،لأدركتم ان ما تبذلونه من الدريهمات لايواء هذه الكائنات الضائعة،وتعليمها التعلم اللائق بها،وتدريبها الصنائع الضرورية للمجتمع ولها ، لا يساوي عشر معشار ما تفقدونه من ضعف وجودكم العام ، باهمال هؤلاء كالانعام

فان كانت بلجيكا وهي لاتبلغ نصف بلادكم ، تساوي في ميزان الوجود عشرة امثالكم ، فليس لان ارضها اخصب من ارضكم ، ولا لان اجساد اهلها اقوى من اجسادكم ، ولكن لان آحادها ارقى من آحادكم،فليس فيها مثل هذه الطبقة المهملة، ولا تسوغ بنيتها وجود مثلها

فانظروا الي هذه الأغيلمة الهائمة في الطرقات،لا كما اعتدتم ان تنظروا اليهم طائفة قضي عليهم بالعُدْم والجهل،وانهم يجب ان يكونوا على ما هم عليه مدى الدهر، بل انظروا اليهم نظر العارفين بأنهم آساس مجتمعكم،وقواعد بنيانكم،وانتم مخيرون بعد ذلك ان تقيموا وجودكم على قرار ، او على شفير هار (١)

قال الوجدان : ثم نهض قائلا . سلام

فلما مددت يدى اليه ، لاسلم عليه ، انتفض فصار بلبلا، ثم صفر صفرته العادية، وانطلق في الجو انطلاق السهم الي الرميّة (٢)

الوجدية الثالثة

قال الوجدان :

يممت صوب الاهرام ، غَدوة يوم من الايام ، ممتطيا صهوة مُطَهم سَبوح،

---

(١) شفير الوادى ناحيته . وهارٍ اي متهايل (٢) الرمية ما يرمى بالسهم من الصيد ذكرا كان او انثي

حديد الطرف طموح (١)، فكنت اداول في سيره بين الخبب والارخاء، وربما وقفت لتأمل بعض الاشياء (٢)، فلما انتهيت الي تلك المباني المخلدة، وسرحت الطرف في سفوحها المشيدة ، وتعجبت ماشئت من المقاصد التي دعت الى انشائها، والجهود التي بذلت في بنائها ، حبب الىّ ان اتوغل في الصحراء راجلا، فعمدت الى فرسي فسلمت مقادته لاحد الاعراب ، وأمرته ان ينتظرني حتي اعود اليه، وسرت انا تداعبني النسمات في بهماء لا ينتهي البصر الي حدودها (٣) ، ولا نأبه فيها النفس لوجودها، فأوغلت فيها ثم أوغلت غير حاسب لشيء حسابا، مدفوعا بعامل الا نس بالمنظر الجديد حتي مضت ساعة ، فلما هممت بالرجعى لاح لي شبح من بعيد فحدثت نفسي بالانتهاء اليه، لعلي اجد غريبة اسجلها على هذا الوجود، وما اكثر غرائبه لمن ينظر بعقله ، ويعترف بمبلغ جهله

انتهيت الى ذلك الشبح فوجدت عجبا ، وجدت رجلا في زى الافندية يناهز الخمسين من عمره، وبجانبه طيارة وهو مكب على إعدادها للطيران، فحييته فرد أحسن رد ، فأطمعتني هشاشته في محادثته ، فقلت لاى جيش هذه الآلة الهوائية ؟

فنظر اليّ متبسما وقال : هى لي أباري بها الطيور في الجواء ، وأرود بها مملكة الهواء (٤)

قلت : لعلك اول من اتخذ طيارة من الافراد ، في هذه البلاد ؟

قال : لعل

قلت : فكيف حصلت عليها ؟

قال : صنعتها بيديّ

قلت : هذا عجيب

قال : اي عجب فيه ، أليست الطيارات من صنع الانسان ؟

---

(١) الصهوة الظهر. والمطهم الحسن الخلق. والسبوح الفرس يركض كأنه يسبح. وطموح اي يرمى الى الغايات البعيدة (٢) الخبب والارخاء من انواع السير (٣) البهماء الفلاة (٤) الجواء جمع جو

قلت : نعم ولكنها لتعدد آلاتها، ودقة اجزائها، لا يمكن عملها الا في المعامل الخاصة بها ، حيث توجد الادوات ، وتتوافر المعدات

قال : من الناس من لا يحتاج الي آلات ، لصنع اكبر المصنوعات

قلت : هذا اعجب من الامر الاول ، واني اراك مازحا

قال : اعتبره ان شئت مزاحا ، اما انا فما قلت لك الا حقا صراحا

قلت : دعنا من هذا فهل أزمعت الطيران الآن ؟

قال : نعم ، ولكن لطية ليست بعيدة ، لا تستغرق غير دقائق معدودة (١)

قلت : أتتفضل عليّ بأخذى معك ؟

قال : لقد آليت على نفسي ان لا اصحب الا اولى العزم ، الذين لا تضطرب اعصابهم عند نزول الشدائد، ولا تجيش نفوسهم اذا دهمتهم المكاره (٢)، فهم من رباطة الجاش، وقوة القلب بحيث تميد الجبال ميدا، وتمور الارض بأهلها مورا (٣) وهم أضبط مايكونون لشعورهم ، واكمل ما يتمتعون بعقولهم. فان كنت بمكان من هذه الصفات فبها ونعمت ، والا فلست لى بصاحب

قلت : أو تقصد ان تغير بها على الحصون والمعاقل، وتستهدفها لنيران القنابل؟

قال : معاذ الله ان ازعج آمنا ، او ان اثير شرا كامنا

قلت : أفنويت ان تقتحم بها الجواء على غير هدى ، فأنت تتوقع ان يصيبها الردى، او ان تذهب حياتك سدي ؟

قال : ان طيارتي في مسابح الهواء، آمن من السيارة على الغبراء ، واهدى الى اغراضها من القطا الى الماء (٤)

قلت : فعلامَ تقاضاني اذن هده الصفات العليا من البطولة ؟

---

(١) الطية المقصد. والجهة التي يقصد اليها (٢) تجيش تغلي. والجأش اضطراب القلب ، ورباطة الجأش هي سكون القلب عند الفزع (٣) ومادت الجبال مالت. ومارت الارض اضطربت (٤) الغبراء الارض . والقطا نوع من الطير شديد الاهتداء للماء

قال : لعلك تنتهي الي مالم تتوقعه فتهلع ، او تقع فيما لم تألفه فتجزع

قلت : هب اننا انتهينا الى منقطَع الهواء ، او رأينا مردة الشياطين تصعق برجوم السماء ، فلست ممن ترتعد له فريصة لهذه المشاهد، ولا ينبض فيه عرق من أفدح الشدائد (١)

قال : لعل هنالك ماهو أشد على النفس مما تذكر، فقد تجزع النفس من أمر صغير ما ألفته ولا تخيلته ، مالا تجزع من أمر جلل تعودته وتوقعته

قلت : لا شيء اشد وقعاً على النفس من الموت الزؤام ، فقد وطنت عليه النفس والسلام (٢)

قال : لاتلمني بعدها ، فمن أنذر فقد أعذر، هلم على بركة الله (٣)

فامتطيتها متتبعاً خطوانه، فاذا فيها كل الآلات الضرورية لمعرفة درجات الصعود ومسافات السير، ورأيت فيها البارومتر على ٧٦ وهي درجة الضغط العادى للهواء، وما هي الا ثانية حتي اندفعت بنا في الجو فنظرت الي المدينة ، فاذا بها كالاطلال الدوارس ، ثم اخذت آثارها تنمحي بسرعة البرق حتي لم يبق لها أثر، وصرنا فى جو متجانس الجهات لا نسمع فيه الا حفيف الطيارة، فلما مضت دقيقة، قلت لصاحبي تري نحن على اى بعد من الارض الآن ؟

فضحك مقهقهاً ، ولم يزد

فمددت ببصرى الي البارومتر فاذا بزئبقه قد سقط حتي وقف على الصفر، وهي علامة على زوال الضغط الهوائي، ومعني ذلك اننا فى جو ليس فيه هواء، فرجعت الى نفسي فوجدتني أتنفس كما لو كنت على الارض. فصحت بصاحبي: رحماك على أي ارتفاع نحن ؟

فضحك كالاول ، ولم يزد ؟

فقلت : نشدتك الله الا اخبرتني

---

(١) الفريصة لحمة بعد الكتف ترتعد عند الفزع. ونبض العرق تحرك. وافدح أي أشد (٢) الموت الزؤام اي السريع (٣) اعذر اي أبدي عذرا

فقال : ألم أسرد عليك الصفات التي يجب ان تجتمع فيمن يصحبني فزعمت انك بالمكان الارفع ، فما بالك تجزع ؟

قلت مابي من جزع ، ولكني أسألك هل ارتفعنا عن طبقة الهواء ؟

قال : ماذا تقول ؟ نحن الآن فوق طبقة الهواء بأكثر من خمس مئة الف ميل

قال الوجدان : فكدت أخر مغشياً عليّ من سماع هذا الكلام، ولم أستطع أن اعود الي حالة من الجلد الكاذب الا بعد عدة دقائق

فقلت له : وكيف يعقل ان تجتاز الطيارة طبقة الهواء، وهو علة امعانها في العلاء؟

قال : سأحدثك عن ذلك متي وصلنا الي حيث نشاء

قلت : وكيف نعيش بغير أوكسيجين، وهو الغاز الذي نتنفسه فى هذا الحين ؟

قال : سأريكه الساعة

وما أتم كلمته حتي أحسست بالاختناق ، فاضطربت ايما اضطراب، ثم عاد الىّ النفس كما كان

فقلت : رُحماك ماهذا ؟

قال : لا بأس عليك ، لقد تركتك والجوّ الذي انت فيه فحدث لك ما احسست به ، ثم أمددتك بهواء من عندي فعادت اليك الحياة

قلت : أوتمدني بهواء ؟ من أين تأتي به، وكيف تمسكه، وكيف تنشره حولي؟ كل هذا لا يدركه عقلي

قال . أولست فيه ؟

قلت . نعم، ولكني لا أعقل ماتقول

قال . واي شيء عقلت انت او أعلم عالم فى الارض من اسرار الكون؟ ان الذي لديكم من العلم قشور من علائق الاشياء بعضها ببعض، فأنتم تراقبونها وتسجلونها وتحسبونها علما، فان قصرتم قوي الوجود واسراره علي ما تعلمون، وعلي ما تدركون وتعقلون، فقد حقرتم هذه اللانهاية تحقيرا لا يغفر لعاقل، ولا يسمح به حتي لجاهل. واذا كان من البله ان يصدق الانسان بكل ما يقال، فعلي المتثبت ان لا يعجل بتكذيب ولا تصديق، الا بعد تمحيص وتحقيق، وأنت اليوم من هذه الرحلة فيما لا يطوف بوهم،

وسترى مالا يحوم حوله فهم ، فالجا من الحكم عليه الي اي الاصول اردت

قلت وانا ارتعد دهشاً . اظن أنه تكفيني هذه الدلالة الحسية، فى الاعتقاد بأن وراء العقل العادى شؤناً علوية ، وأسراراً خفية

قال . لا ، حتي تري من المشاهد ، مالم يتفق لراصد ، ولا يتسني لمفكر جاهد

قلت . الى اي مدي تقصد ، وقد بعدنا عن الارض الي حيث لا يبلغه منظار الفلكيين ، بل ولا خيال المتخيلين ؟

قال . الي اول كوكب يصادفنا من المجموعة الشمسية، ثم التفت، وقال أبشر فنحن علي سمت الغِطريف ، ذي الجو اللطيف، والروح الخفيف، فتأهب للنزول عليه (١)

وما هما الا ثانيتين حتي استقرت الطيارة علي ارض صلبة، وما كدنا حتي احاطت بنا زُمَر من المخلوقات تشبهنا في الجملة ، وتفوقنا فى التفصيل (٢). فهي كائنات انسانية الا انها ارق بشرة ، واجمل محيّا (٣)، واعدل قواما ، تتألق وجوههم نوراً، وتشع اعينهم ذكاء ، وعليهم ألبسة مفصلة علي اجسادهم، لا مضيقة تحصر الدم في اوعيته ، ولا موسعة تعوق الجسم عن حركته، وهى من اقمشة تزرى بأثمن انواع الحرير عندنا، والجميع علي سمت واحد من الشبه ، الا فروقا يسيرة

قال الوجدان . فنظرت الي وجه صاحبي ، وانا اكاد اقع مغمي عليّ من الدهش والذعر، فمسح علي صدري وقال . افهم مايقولون ، وانشره بين الناس لعلهم يعقلون. اما انا فذاهب وحدي لزيارة صديق لي فى المريخ، وآخر في المشترى ، ولن ابطيء عليك فكن من الثابتين ، ولشرطي عليك من الذاكرين. ثم قادني خارج الطيارة ، فى وسط النظّارة ، من اهل تلك السيارة

قال الوجدان. فلم استطع ان انبس بكلمة من شدة الهلع (٤)، واندفع صاحبي في الجو لا اقول كالسهم ولا الوهم ، بل بسرعة لا يدركها خيال ، ولا تخطر ببال . واخذت تلك النظارة تكتظ حولي مع مراعاة ادب لم اعهده في سكان هذه الارض، وما راعني الا اني رأيتني افهم مايقولونه وان كانت لهجتهم غير عربية، ولا مما نعهده

---

(١) السمت الطريق (٢) الزُمَر جمع زمرة وهي الجماعة (٣) المحيا الوجه (٤) نبس بوزن ضرب تكلم ، واكثر مايستعمل مع النفي

من اللغات الاعجمية ، واقترب مني واحد وقال لن تُراع لن تُراع،وسمعت بعض النظارة يقول لبعض ، ترى من اي الكواكب هذا،فأجابه واحد . هذامن سكان الزهرة،فقال آخر . بل هو من اهل نبتون ، وقال ثالث . يخيل اليّ انه من نابتة عطارد ، فقال رابع لايفصل لنا في هذا الامر الا رئيس المرصد الفلكي فهلم بنا اليه

قال الوجدان . فتقدم اليّ واحد ممن حولي،وقال. أتسمح بالمضي معنا خطوات؟ فاومأت اليهم بالايجاب ، فمشي ومشيت معه،فسرت بين قصور قد أخذت زخرفها وازّينت ، وبلغت من الجمال الى ما بلغت ، فلو أعطيت مثل خيالي الف خيال،لما استطعت ان اصورها بحال،فمنها ما يشبه اليواقيت،ومنها ما يضارع الدرر،ومنها ما يحاكى الماس،ومنها مايخرج عن القياس،ولم يعهده الناس،وقد أحاطت بها حدائق بارت فيها ملكتا التنسيق والاختراع،قوي الطبيعة فى الانتاج والابداع،تمتد على شوارع هى اشبه بردهات القصور،منها بطرقات للمرور(١). فما سرنا غير قليل، حتي انتهينا الي بناء جميل،فيه ساحة تبلغ الميل ، هو مسكن استاذهم الجليل،فاستأذن من معى عليه ، فأتاهم الاذن بالدخول،فدخلوا وكانوا يبلغون عدة مئين،فجلسوا في بهو بلغ من الفخامة حداً لا أجد عبارة تقربه الى الحد المألوف،ومن السعة بحيث لا يضيق عن عدة الوف ، فسمعت ازيز آلات،كأنها تلفونات،وماهي الا برهة حتي غص هذا المكان على سعته ، فرأيتني وانا بلباسي العادي،ولست من المتسامحين فيه، بين هؤلاء القوم كأني خادمهم،بل كأني ممثل مضحك ارتدى بأردية اهل القرون الخوالي،من الأزياء البوالي،وما مضت دقيقتان حتي اقبل استاذهم الكبير، في أبهة تحني الرؤس،وهشاشة تستهوى النفوس،فحيا الحاضرين،فأجابوه شاكرين،وما جلس حتي اقبل رجال لا يمتازون في ألبستهم وأبهتهم عن صاحب الدار،فقدموا للحاضرين شرابا في اوان لااستطيع الا ان اقول انها منحوتة من قطع الماس ، فتناولت منها كوبة لاازال احس بطعم ما فيها الي هذه الساعة،وما مرت غير دقيقة اخرى حتي وضع في وسط الجميع خوان، وأُمرت ان اجلس فوق كرسي عليه ، وقام الاستاذ ووقف بجانبي وقال :

---

(١) الردهة الحجرة الكبري من الدار

هذا من سكان الارض ، لا من المريخ ولا من الزهرة ولا عطارد كاظن بعضكم ، وهو من الاقاليم المعتدلة من القسم المتمدين من سكان ذلك السيار الصغير، وقد وقفنا في السنوات الاخيرة بعد استخدامنا للاثير واختراعنا المنظار المكبر الي مئة مليون ضعف ، وايجادنا للآلة البديعة التي نتلقي فيها تياراتهم الكهربائية والمغناطيسية التي يستخدمونها في تلغرافاتهم وتلفوناتهم، على تفاصيل ثمينة لحالتهم المدنية ، وشؤنهم الاجتماعية، مما استطيع ان اذكره لكم بوجه الاجمال الساعة

بلغ سكان الارض من العلم والمدنية ، الي مثل ما كنا عليه قبل نحو مئة الف عام فالعلم لا يزال قاصراً عندهم على العلائق الموجودة بين الكائنات، فلم يتوصلوا بعد الى ادراك كنه المادة ، ولم يهتدوا الي طريقة تحويلها الي اثير، ولا الي وجه استخدامه، بل تخيلوا وجوده تخيلا . ولا يزال انتفاعهم بالكهربائية والمغناطيسية، قاصراً على استخدامها فى ايجاد الحركة ونقل الاشارات فى دائرة كرتهم الارضية، اما علومهم الفلكية فهي لا تزال قاصرة على رصد الكواكب، ومعرفة اماكنها وابعادها، فالاجرام السماوية لا تزال في نظرهم نقطاً لامعة فى هذه اللانهاية، لقصور منظاراتهم المكبرة، فهم لا يعلمون عن امر هذه الاجرام الا تخيلهم انها مأهولة، بل فيهم من لا يزال ينكر ذلك (تبسم من الموجودين) انكم تتبسمون وماذا تفعلون لو قلت لكم ان منهم من يجزم الي اليوم بأن كرتهم الارضية هي العالم كله، وأن الكون وما فيه تبع لها ، ولم يخلق الا من اجلها (ضحك عال)

بلغ سكان الارض درجة من الشعور، ولكنها لا تزال قريبة من درجة شعور الانواع العليا من المملكة الحيوانية ، ومن اظهر مظاهر ذلك ان الحق لا يزال عندهم للقوة الجسدية

نعم ان بعض طوائفهم سنوا شرائع فيها خيال من روح العدل، ولكنهم قصروها علي المنازعات الفردية ، اما الخلافات التي تقوم بين الامم فلا يزال يفصل فيها الحديد والنار (جلبة اشمئزاز من السامعين) . وقد افتنّ مفكروهم وعلماؤهم في ابتكار الآلات المدمرة، وتباروا فيها، وعمد قادتهم الي حشد الرجال لتدريبهم علي استخدامها الي حد أنهم ينفقون عليها من أموالهم في السنة، ما يربو علي عشرة اضعاف ما ينفقون علي

التهذيب والتربية (آهات من بعض المقاعد)

فتراهم اذا شجر خلاف بين أمتين لا يعمدون الي الخطة الفاصلة، أمام الشريعة العادلة، ولكن الي الآلات الجهنمية، والادوات الشيطانية، فيحتشد من كلتا الطائفتين ملايين الشباب ، ثم يتراصّون تراصّ الذئاب، اذا أزمعت الوثاب

فاذا نُقر لهم في الناقور ، او نُفخ لهم في الصور ، اشتغلوا بالتناحر (١) فلا يزالون يترامون بالنيران، ويفتنّون فى ضروب الجولان، وفي اثناء ذلك تسقط منهم الالوف قتلي، وعشرات الالوف جرحي، بين خارجة امعاؤهم، ومحطمة اشلاؤهم (٢) حتي يولي احد الفريقين هربا، فيتبعهم الفريق الآخر داباء هنالك ينطق السيف بالحكم ويكون للغالب الغنم، وعلي المغلوب الغرم (ضجة استفظاع من السامعين)

اما التهذيب الخلقي فلا يزال علي الارض قاصراً علي الظواهر، لم يمتد الي السرائر، ولم يتناول الضمائر، فقد يقابل احدهم صاحبه هاشّاً باشّاً وقلبه ينطِف عليه حقداء ويتلظي منه حسداً (٣)، ولقد أتقنوا هذا الضرب من التصنع حتي ان المتحاقدين قد يتزاملان سنين ، ويكون بينهما ما يكون بين المتآخين، فاذا لاحت لاحدهما فرصة للايقاع بصاحبه افترصها غير متحرّج، فان استدعي ايذاؤه نصب الحبائل، وتدبير الوسائل، عمد الي ذلك غير متأثم (٤)، وهو فى أثناء ذلك اذا قابله ضمه الي صدره متظاهراً بالشغف ، وقبل وجنته متصنعاً أخدع ضروب الكلف

اما من جهة خضوعهم للمطالب الجسمية، وعبوديتهم للمقتضيات البهيمية، فلا يزالون على حالة توجب الاسف ، فهم يشربون السوائل المتخمرة، ويتعاطون المواد المخدرة، ويأكلون فوق حاجتهم، ويتكلفون ماوراء طاقتهم ، يتظاهرون بذلك ولا يخجلون ، بل يعدونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، ويتباهي به المتباهون

ومما يوجب الدهش ، انهم لفرط استخذائهم، لسلطان اهوائهم (٥) يفقدون

---

(١) الناقور البوق ونقر في الناقور اى نفخ فيه ليصوت . والصور بمعني البوق ايضا (٢) الاشلاء جمع شلو وهو العضو (٣) ينطف اي يقطر (٤) التحرج هو توقى الوقوع فى الحرج . والتأثم تحرى عدم الوقوع في الاثم (٥) استخذائهم اي ذلهم

التصوّن فيما يستنكر من العجاوات ، ويأتونه كأنه من الهنات الهينات (١)، حتى فرض نساؤهم على انفسهن الحجاب ، وقل ان يسلمن معه من العاب (٢). فترى الواحدة منهن ان اضطرت لمزايلة دارها خطوات، تناولها الكافة بالنظرات الخائنات، وخصها البعض بالكلمات الجارحات ، وتبعها أشدهم كلبا فرادي وجماعات (٣) ، فلا تزال تنحاز عنهم ذات اليمين وذات الشمال، وهم يتعقبونها بغير ملال، ويرمونها بسهام من ساقط الاقوال، حتى تتعثر في أذيالها حياء، وتكاد تسقط إعياء، والناس ينظرون الى الفرسان والفريسة فكهين، ويبتسمون لهم مشجعين، لا تثور فيهم حميّة، ولا تتحرك منهم نفس أبية، كأن تلك ليست اختهم فى الانسانية، وكأن نساءهم بمنجاة من هذه الطَغمة الوحشية

ولو كان هذا المنكر قاصراً على جهالهم، ووقفاً على رذالهم، لهانت البلية، وخفت الرزية، ولكنها تكاد تكون عامة فيهم ، فمن لم يأتها جهاراً على أعين الجماهير، يأتيها سراً في المواخير

وأعجب من هذا وأشد منه هولا على النفوس، مما يدل على اضاعتهم للناموس، ان فتيانا من عاهريهم ، يصحبون نساء من عاهراتهم ، وهن على أشد حالات التهتك والتبرج، فيمرون وسط آهل طرقاتهم بالمارة فيشيعهم الناس بنظراتهم باسمين، مغتبطين بهم وغابطين (٤)، كأنهم لا يرون الا اموراً عادية، بل منهم من يعدها من ضرورات المدنية. (تأفف من السامعين)

ومما يرثي لاهل الارض منه ، انهم لا يزالون يجعلون همهم وقفاً على استخدام القوى الطبيعية، غير حاسبين حسابا لقواهم النفسية، فهم لا يزالون في عماية عما لارواحهم من القُدَر ، ولقواهم المعنوية من الخصائص الكُبَر (٥)، فتراهم مفكرين مكبين

---

(١) الهنات جمع هَنَة وهي الشيء الحقير (٢) العاب وهو العيب (٣) الكَلَب داء يصيب الكلاب والمراد هنا شدة الحرص (٤) المغتبطين المسرورين. والغابطين الذين يتمنون لانفسهم مثل مايرونه لغيرهم (٥) القُدَر على وزن عمر جمع قُدرة اى قوة . والكبر بوزن عمر ايضاً جمع كبيرة

ليل نهار على دراسة الكهرباء ، وفيما يمكن تسخيرها فيه من الاشياء،ولا يفكرون ساعة في الاستفادة من قواهم الذاتية،التي هي مجتمع القوى الكونية.(تعجب عظيم من الحاضرين)

انكم تعجبون من هذا الاهمال،وما كنتم فاعلين لو قلت لكم ان منهم، بل من كبار علمائهم،من يدعي ان الانسان والحجر سواء،وان الاول لا يمتاز عن الثاني الا بالتغذي والتوالد والنماء،وان الحياة ليست الا صفة للمادة العمياء،وان أعلى رأس في المفكرين، كأحقر حصاة في الارضين، تنتهي في نهاية تحليلها الي الطين. (ضحك عال متواصل من السامعين)

هذا موجز من حال سكان الارض، قد بسطته لكم في مناسبة هبوط احد افرادهم علي الغطريف،وسأتوسع في نشر ماوقفنا عليه من احوالهم في مؤلف خاص، بعد أن أستجمع كل ما هدتنا اليه وسائلنا الفلكية،واني أتوقع أن يكون أخونا الارضي هذا قد برّح به الهلع،وساءت ظنونه بهذا المجتمع،فردوه الي حيث وجدتموه،فقد عاد صاحبه فيما ارجوه

قال الوجدان : فأمرني واحد منهم بالمضي معه،فقمت وقد جللني العرق خجلاً، وجمد دمي وجلاً،فلم أعد نظراً علي مامررت به من البدائع في الطريق، دهشاً مما سمعت،وعجباً مما فهمت،وبينما أنا غرق في لجة هذا الذهول،واذا بيد لطيفة وقائل يقول : هلم لنعد الي الارض

قلت : سلام عليك أأنت صاحب الطيارة ؟

قال : أنا هو فهل تذم جواره ؟

قلت : حاش لله ، ولكن أسرع بي الى الارض فقد بلغ مني الذهول مبلغه ، واخشي أن أفقد عقلي معه

قال : لا بأس عليك ، فهلم باسم الله

فأسرعت الى اخذ مكاني منها وما هو الا كلمح البصر أو هو أقرب حتي اندفعنا في هذه اللانهاية،وما كدت أحاول الرجعى من الذهول الذي عراني حتي صاح بي صاحبي : تهيأ للنزول ياوجدان فقد لاح الهرمان وما كدت ارتاب في هذا القول

حتي رأيتني بجانب أبي الهول

فالتفت اليّ وقال : الى اي حد بلغت منك هذه السياحة ؟

قلت : الى حيث لاأدري أهي فى نوم أم يقظة

قال : لو أمكن ذلك لك في النوم ، لكنت واحدا من القوم

قلت : اى قوم ؟

قال : رجال استوت عندهم حالات الحياة ، وسقطت جميع الفواصل بينها. فهم أيقظ مايكونون اذا نامت عيونهم ، ووقفت حواسهم، قد خلصت ارواحهم من سجن المادة فأصبحت اجسادهم مطايا لهم، يحملونها كما يحمل احدنا الدابة، لأنهم استعبدوا ارواحهم لاجسادهم فأصبحوا بهائم، وان كانوا يلبسون الثياب المفوفة ، ويتفيهقون بالعلم والفلسفة (١)

قلت : من هؤلاء الاكياس ، وكيف أميزهم في الناس (٢) ؟

قال : ايهِ ، رب أشعث أغبر لايؤبه له ، لو اقسم علي الله لأبر قسمه (٣)

قلت : اني مما فتنتني في حيرة، وقد التبك عقلي (٤) ، فلم أعد أميز بين الممكن والمستحيل ، فهل لك ان تخلّصني مما ورّطتني فيه ؟

قال الوجدان : فأخذ صاحبي يضحك وهو يقول : الممكن والمستحيل، اشدّ ما حجبتكم الحجب ، ونالت منكم سفسطات الكتب

ثم التفت اليّ وقال : أترى لو ربيت بواد، لاترى فيه الحمل والولاد (٥)، ثم قيل لك انك علي جلالة قدرك ، ورجاحة عقلك ، نشأت من تلاقى نطفتين، تتقزز ان تتأملها العين (٦) ، ثم قذف بك الي هذا العالم من حيث تقذف الفضلات، وتسيل المفرزات، ففى اى القسمين كنت واضعاً هذا الخبر، فى قسم الممكنات ام المستحيلات؟

---

(١) الثياب المفوفة المخططة. ويتفيهقون اي يتشدقون (٢) الاكياس جمع كيّس بوزن حيز. وماز ه بمعني ميزه (٣) الاشعث المغبر الرأس المتلبد الشعر أو المنتشره لقلة تعهده اياه . والاغبر مالونه الغبرة وهى التراب (٤) التبك ارتبك (٥) الولاد الولادة (٦) تتقزز تأنف

ولو نشئت في قاصية من الارض جدباء، لاتري فيها غير الصخور والسماء، وأتيت بزهرة من ياسمين، وهي في شكلها الانيق. وقدها الرشيق، وإغريضها الندي وشذاها المطرى(١)، ثم قيل لك هذه اصلها من بزرة لا تكاد تراها العين، دفنت في هذه الارض الجرداء، وأمدت بقليل من الماء، ثم تركت وشأنها، فنبتت بذاتها، فصارت اولا شجرة خضراء، ثم تولدت عليها هذه الانجم الغراء، فبماذا كنت مقابلا مخبرك، أبالتصديق أم بالتكذيب؟ وهل جراء، فاني استطيع ان اعد لك كل ما تقع عليه الآن عينك، وسائلك عنه على هذا النحو، ومحاكمك الي منطقك الجليل، لاري مكانك من الممكن والمستحيل

قال الوجدان: فوالله لقد شعرت بمثل ما يشعر به الكفيف اذا فوجيء بالابصار، أو بالمغشيّ عليه اذا بوغت بالايقاظ

فقلت له: يرحمك الله من أنت؟

فوالله ما كدت ان أتم سؤالي حتي تضاءل فانقلب بلبلا بعينين ياقوتيتين، وريش يأخذه زخرفه بالعين

فقلت: ويْ، أأنت البلبل المغرد (٢)

فقال: كم اقول لك أنا الحكيم بن مرشد؟

قلت: ألا تتفضل عليّ بفك هذا المعمّي، وتخبرني كيف تستبدل بجسم جسما؟

قال: اللبيب تكفيه الاشارة

فالتفتُّ فلم أر البلبل ولا الطيارة

الوجدية الرابعة

حدث الوجدان قال:

بينما انا اخترق شارع التوفيقية، في ضحوة ربيعية، والسكون ضارب رواقه،

(١) الانيق المعجب. والرشيق الظريف المعتدل القد. والإغريض بوزن الابريق كل ابيض طري. والشذي الرائحة (٢) وى كلمة تعجب تقول وي لزيد اى اعجب به

والنسيم حالٌ نطاقه (١)،واذا بواحد من بني ساسان ، قدتلفع بالخلقان،واعتضد بكشكول مبطان،واعتقل هراوة من المران،وهو يمشي الهوينا،فعل من يشكو أينا (٢) فلفتني اليه من بعيدرفعه يده الى السماء، كما يفعل عندالدعاء،ثم ازالها بعد الانتهاء،وتكرارُ هذا العمل، بنظام ليس فيه خلل،فاقتربت منه لاعرف طلابه، وأبل لهاته بصبابة (٣)، فسمعته يقول:

اللهم يامن لااري سواه،وان تعددت الظواهر، ولاا ناجي الااياه،وان تكثرت المظاهر،ولا أبغى الاجدواه،وان تنوعت المصادر،أسألك بحق توحدك في الوجود، وتعدد تجلياتك في الشهود،وبحرمة ظهورك للبصائر، واحتجابك عن المشاعر،أن تقضي حاجتي اليك ، وان لاتجعل فيها معولى الا عليك

قال الوجدان : فعجبت من صدور مثل هذا الدعاء ، من مثل هذا الرجل،في مثل هذا الطريق ، فقربت منه قائلا ياشيخ ، ماحاجتك ؟

قال : مئة دينار يابني

قلت : أتتخيل ان احداً يعطيك هذا القدر ؟

قال : وهل طلبته من احد ؟

قلت : وما تفعل بهذه المئة ؟

قال : هذا لايعني احداً غيري

ثم اندفع يطلب حاجته بعبارات غير التي سمعتها اولا،فتعقبته من كثب (٤) حتى كرر الدعاء عشر مرات،وهو فى كل مرة يفتنّ في التعبير، افتنانا يدل على انه من

(١) الضحوة وقت ارتفاع النهار.والرواق بيت كالفسطاط.والنطاق مايشد به الوسط (٢) بني ساسان من ملوك الفرس وقد صارعلما للشحاذين لانه بعد نكبة هذه الاسرة على يد العرب صار كل شحاذ فارسي يدعي انه من بني ساسان ليستعطف الناس اليه.والمبطان الكبير البطن.واعتضده جعله تحت عضده.والهراوة العكازة. والمران نوع من الشجر (٣) طلابه اي طلبه.واللهاة لسان صغير في اقصى الفم. والصبابة البقية من الماء او اللبن (٤) من كثب اي من قرب

القابضين على ناصية البيان،والسارين في سرائر العرفان (١)، فقلت في نفسي بئس المال من ٌعتاد ، اذا لم يبذل في رفع مثل هذا من تحت كلا كل الحاجة ،واجمعت على أن أنفحه بما يطلب ، واتفق اني احمل هذا القدر من المال، كنت ارصدته لامر(٢) فصحت به ايها الشيخ ، فالتفت الى ، فقلت له انا اعطيك هذا المال

فقال : أقبله على شرط ان لاتتقاضاني عليه رِبا

قلت : معاذ الله ، وهل تظنه قرضاً ؟

قال :لا، ولكني أقصد بالربا ، إرهاقي بالاسئلة عن ضئضئي ومنشاى ،وعن أين تعلمت،وعلى من تخرّجت،وعن وجه خصاصتي على فصاحتي،وعن سر تخيري للعبارات العالية ، في وسط هذه الجهالة الفاشية (٣)

قلت : إي والله ،كل هذا اريد ان اعرفه ، لاباعتباره ربا لما اعطيه ، ولكن كفضل أرتجيه

قال : ليس عندي الا ماسمعت

ثم اندفع يفتن في ضروب اخري من العبارات في دعائه مما صغر فى نظري هذا المال واضطرني لبذله على كل حال. فصحت به ياشيخ خذ ما طلبت غير ممنون عليك، فويل لقوم يضيع هذا الفضل بينهم

فأخذها وهو يقول : حيا الله هذه الاريحية (٤)، لقد والله أبنت عن كرم، وكشفت عن شمم، فامض بارك الله فيك، وكافأك بما يرضيك

قال الوجدان : فمضيت وانا أفرح بما فعلت مني لو سيقت الي الدنيا بما فيها. فما كدت أبعد عنه مثنى ذراع حتي سمعته يناديني، فعدت ادراجي (٥)، وسألته عما يريد فوضع يده علي كتفى وقال :

---

(١) يفتن اى يتفنن. والناصية مقدم شعر الرأس (٢) العتاد ما تهيئه للطوارىء من العدة . والكلاكل هى جمع الكلكل اى الصدر. وأنفحه أى اعطيه (٣) وإرهاقى إتعابي. وضئضئي اى اصلي . وتخرجت اى تعلمت. والخصاصة الفقر (٤) غير ممنون عليك من المنّ وهو التحدث بالعطية. والاريحية الارتياح للكرم (٥) عدت أدراجي رجعت علي عقبي

والله يابني لاحاجة بي الي مال،وانما سألتكه،وبالغت في مقداره،لا ري الي اى مدي يصل عملك من قولك،فوجدتك بحيث احب ان اراك،ولامحك لتمييز الخالص من الزائف فى الرجال،أدل من البذل،فخذ مالك مباركا لك فيه،واقبل مني هدية تذكرني بها ماحييت ، فهل تحفظ حرمتها ، وتعرف قيمتها ؟

فقلت له وقد عظم فى عيني من ظلافة نفسه عن الدنانير :

انا عند ظنك بي ان شاء الله (١)

فقال : هى كلمات لقننيها بعض الواصلين،وانا اتحرج عليه،اذا تلوتها انقلبت الي الصورة التي اقصدها،وقد اختزنت هذا السر فلم افض به الى احد (٢)،عملا بوصية استاذي بأن لا اكشفه الا لمن يستحقه،وقد بلوت جوهرك بكل محك منذ عشر سنين ، على غير علم منك ، فوجدتك لوديعتي اهلا ، فخذها واتق الله فيها

ثم قال : هات يدك،وقرأ فاتحه القرآن،وعاهدني على الكتمان،وأشهد الله علي، ثم لقنني تلك الكلمات ، وأسرع بالسلام ومضي

اما انا فعدت الى بيتي من فوري،ودخلت مكتبي ، واوصدت بابه،وتلوت الكلمات قاصداً ان انقلب الي عصفور،فكنته فى مثل لمح البصر،وماشعرت بحالتي الجديدة من الضؤولة والخفة حتي ذعرت،فأسرعت الى تلاوة الكلمات،فعدت الى ماانا عليه ، فلما هدأ روعي كررت العمل حتي أنست به (٣)،فخرجت من نافذة مكتبي على صورة عصفور،اطير فى الجو مرحا،واضرب في نواحيه فرحا،فلم أترك في القاهرة شجرة الا حططت عليها ، ولا حديقة الا غشيتها ، واندسست بين طيورها ، حتي كان وقت الاصيل (٤)،فعمدت الى حديقة قهوة فاقتعدت غارب غصن من دوحاتها (٥)،فاتفق ان تحتها رجلين يتناجيان،فسمعت احدهما يقول لصاحبه:

انك مادمت على ما انت عليه، فلا يكون حظك من الناس الا اوكس حظ ، يستخفون بك ويزدرونك،وان انصفك منصفوهم فلا يجاوزون بك درجة المستضعفين

---

(١) ظلافة النفس اباؤها (٢) افضي بسره اليه اعلمه به (٣) الروع بضم الراء القلب (٤) وقت الاصيل قبيل غروب الشمس (٥) الغارب اعلى الكاهل

من اهل الضعة والاستكانة (١)

فقال له صديقه : لم اسمع قبل اليوم بان الادب النفسي يوجب لصاحبه الصغار والمهانة

فقال محاوره : انا لااحيلك الا الي العيان،فلقد كنا بدار صاحبك الساعة،وكان بالمجلس جمهور من العلماء والرؤساء،فهل سمعت فيه صوتا اعلي من صوت (فلان)، ورأسا ارفع من رأسه،ينال من هذا بقوارصه،ويحط من ذاك بلوادغه،يتوسع في تقعره ، ويتسكع في تفيهقه(٢)، والحاضرون مصغون اليه،هذا يبسم له مداريا ، وذاك يعجب بكلماته مرائيا،حتي اذا افرغ مافي جعبته(٣)،نهض،فخف الكافة لتشييعه وتوديعه ، وهو من تعرف في سقوط قيمته ، وقلة بضاعته ، وانحطاط منزلته

فقال صاحبه : وما قولك فيما افاض فيه الجالسون بعد قيامه من تحقير شأنه ، وتسوىء ادبه ، والاجماع على الازراء به

فقال محاوره : وماذا يضيره ذلك ،اذا كان مهيباً فى محضره،معظما في معشره، يضع لسانه منهم حيث اراد،فلا يستطيع واحد منهم ان ينتصف لنفسه.انك ياابن اخي على ماألممت به من الامور النظرية،تجهل الحياة العملية،فتعيش بين الناس على المثال الذي تصوره لك كتب الاخلاق،وشتان بينه وبين ما يجب ان تكون عليه من الصفات،اذا ادرت ان تستفيد من حياتك ، وان تستزيد من لذاتك

فسأله صاحبه : وما هي هذه الصفات التي تذكرها ؟

فأجابه محاوره : اولها (الجرأة) فلا تهب احدا كائنا من كان ، فاذا اتفق ان قابلت ذا وجاهة فاحذر ان تعامله بأدب الكتب من الانحناء اليه، والصمت بين يديه، والاقبال اذا تحدث عليه،فان ذلك يزيد في تكبره،فيرهقك بتغشمره (٤)، بل قابله كأنك تقابل صديقا لك من عهد التلمذة ،فرحب به بصوت عال،وتصنع

---

(١) اوكس اى اخس . والضعة الانحطاط (٢) تقعر في كلامه اخرجه من حلقه.وتسكع فى امره لم يهتد لوجهه.وتفيهق في كلامه توسع فيه وتنطع (٣) الجعبة كنانة النشاب (٤) فيرهقك بتغشمره اي فيغشيك اياه ويلحقه بك.والتغشمر التنمر

الانس به عند الاستقبال، ثم كرر له التحيات، واسرف له في التبسمات والضحكات، فان ظهر عليه انه استثقل منك ذلك، فلا يثنينك تجهمه، بل اثبت على ما انت عليه، فلا يلبث ان تلين شكيمته لك (١)

قال صاحبه : فان تجرأ على زجرى فكيف يكون موقفي حياله وحيال الجماعة؟

فضحك محاوره وقال : ما اقل علمك ببني نوعك يا احسان، انهم لا يتجرأون الا علي كل مؤدب ذي حياء، فيراقبون كل حركاته، حتي ليكادون يعتبرون انفاسه و نبضات قلبه تجرأ منه عليهم، فيمهلونه في زاوية المجلس، لا يتفضلون عليه بنظرة، ولا يتكرمون عليه بلفظة، فاذا اراد الانصراف تغافلوا عنه فلا يرد عليه سلامه الا بعضهم ومن اطراف شفاههم

قال صاحبه : هذه اول الصفات فما الثانية ؟

فقال محاوره : ثانيتها (الثرثرة) ، فأطلق للسانك العنان، وضعه حيث اردت ؟ فاذا اراد ان يقاطعك احد فامض كأنك لا تسمعه، ولا تبال اصبت فيما تقول ام اخطأت

فسأله صاحبه : فان لاحظ ملاحظ علي بعض قلت ؟

فأجابه : اذا فعل فارفع صوتك بالرد عليه ، واظهر الغضب والموجدة (٢)، ولا تمكنه من الكلام علي اي حال من الاحوال. فان تجرأ وتكلم في اثناء كلامك، فانثر عليه من قوارصك ما يعيده الي صوابه (٣)، ويكره اليه ما فعل معك حتي يرضي من الغنيمة بالاياب

فسأله صاحبه : وما ثالثة الاثافي (٤)؟

فأجابه : الثالثة (التنويه بالسطوة والبطش) كأن تكثر من اختراع وقائع بينك وبين خصوم لك في السياسة او المعاملات، تختمها دائما بذكر سبك او ضربك اياهم.

---

(١) تجهمه اى استقباله اياه بوجه كريه. والشكيمة هي الحديدة التي توضع في فم الحصان لردعه بها (٢) الموجدة بفتح الميم وسكون الواو وكسر الجيم الغضب (٣) القوارص المراد بها العبارات القوارص جمع قارصة (٤) الاثافي جمع اثفية بضم اوله واسكان ثانيه وكسر ثالثه واحدة الاحجار التي يوضع عليها القدر فوق النار وهي في العادة ثلاثة ، وثالثة الاثافي كناية عن الشر كله

فتقول مثلا جادلني فلان فى موضوع كذا، فرددتُ عليه بحدة ، فاعترض بكذا ، فشتمته، فنكص علي عقبيه ، او فكذب ان اضربه لولا ان منعني فلان، او فضربته ثم حيل بيني وبينه ، فأدبر لا يلوى على شيء ، الي غير ذلك من آثار البطولة ، واعمال الفروسية ، فيهابك السامعون ويتجنبون تحدّيك جهد طاقتهم ، فتعيش بينهم مغتصبا اقبالهم واكبارهم

هذه هي الثلاث الخصال التي لامحيص لك عن الاخذ بها ان اردت ان تعيش بين الناس مرفوع الرأس، مَهيب الجانب، موفور الكرامة، والا أنزلوك المنزلة التي توحيها اليهم اهواؤهم ، لااعتباراً لعلم ، ولا اعتدادا بحسب ، ولا غيرة على ادب

فقال له صاحبه : ذكرت شيئا وغابت عنك اشياء . فقد يغشي الانسان مجلسا يكون غاصا بالعلماء والادباء ، فلا تذكر فيه الا نادرة علمية، او شاردة ادبية ، ولا يصغى فيه الا لحكمة بالغة ، او كلمة نابغة ، فماذا تغني الصفات التي تذكرها في مثل هذا المجلس ؟

فقال له محاوره : تغني غَناءها على احسن مايكون ، ان راعيت معها اموراً يقتضيها المقام . فان كانوا يخوضون في الفلسفة فاركن الى المادية الباحتة، فانها لا تكلفك غير الانكار ، والتشكك والاصرار، فهي بضاعة المفلسين، وَعتاد المعدمين، وان كانوا يتذاكرون العلم ، فاحفظ مما يسردونه من اسماء العلماء اسمين او ثلاثة اسماء وأفِض فى تقريظ اصحابها، واذكر ما سمعته من اسماء كتبهم وبالغ في تقدير قيمتها، فان عارضك معارض فخذه بالقوارص، ولكن في صيغة علمية، لتستر بذلك املاقك مما انت بصدده

وان كانوا يتذاكرون الادب، فأنت تحفظ اسماء عشرات من الشعراء فخذ في المفاضلة بينهم قائلا : ماابلغ هذا في المديح، وما ارق ذاك في النسيب ، وما افحش فلانا في الهجاء، الي غير ذلك. فان لم تجن من وراء هذا الا صرفهم عما هم فيه، هربا من خلطك وخبطك ، لكفاك ربحا

فقال له صاحبه : هذا تسويل شيطان، لا نصح انسان، فان كانت المنزلة عند الناس لاتنال الا بهذه الصفات الذميمة، فأجدر بالمرء ان يعتزلهم من ان يتقمص روح شيطان

لينال اقبالهم . على ان ماتقوله ايها الاخ لايصدق الا على الطبقات المنحطة منهم، وان بلغ آحادها من الثراء ما بلغوا، فان المال ابس بمقياس صحيح لتقدير درجات الطبقات الاجتماعية، ولا حكم اهله مما يعتد به في انزال الناس منازلهم، وكل مجلس لايقام فيه للعلم وزن، ولا يرفع فيه بالادب رأس، لايصح ان يعتبر الا بيئة ساقطة، وان لبس اهلها الحرير، ولعبوا بالدنانير

على اني اقول : هب ان الناس كلهم على الشاكلة التي تصورها، فذلك لا يبرر ان نوبق الانسان نفسه لينال حظا من عنايتهم (١)، فأولي بالعاقل ان يعيش مغموط الحق، مبخوس القدر، وهو حاصل على نعمة الفضيلة، من ان يأخذ غير حقه منهم وهو مرتطم في حمأة الرذيلة (٢)

قال الوجدان : فهز مناظره كتفيه وهو يقول : انت وما اردت. وحضر ثالث، فجلس قريبا منهم ثم رابع ثم خامس، فقطعوا هذا الكلام، وغصت حديقة القهوة بالناس، فبينما انا اتأهب للطيران، واذا بعصفور على مقربة مني اخذ يحدق في، فالتفت اليه، فرفرف بجناحيه، وصفر بملء شدقيه، وقال لي بلغة الطيور، اوعيت مادار بين الرجلين ؟

قلت : نعم

قال : بأيهما تريد ان تأتم ؟

قلت : لاوجه للمفاضلة بين خطة شيطان رجيم، وطريقة ملك كريم

قال : دع هذا، وقل لي كيف آثرت صورة الحيوان البهيم، على ماصورت عليه من احسن التقويم؟

قلت . معاذ الله

قال : فما بالك تنفق من عمرك عشر ساعات في هذه الصورة الحيوانية، أكان صاحبك لقنك هذا السر لتنحط به الى اسفل سافلين، ام لتنتفع به في الاحايين ،

---

(١) يوبق اى يهلك . ومغموط اي مجحود (٢) مرتطم اى واقع . والحماة الطين الاسود

قلت . عفواً ، هذا من الفرح بالجديد

قال . كلا ، لقد استحققت التعزير ، لاستخفافك بهذا السر الكبير (١) ، ثم صاح بي قائلا . عد الي صورتك الآدمية

قال الوجدان . فوالله ما أتمها حتي رأيتني قد تحولت الي صورتي الحقيقية ، وكدت اقع على رؤس المنتدين تحت الشجرة ، لولا ان شددت نشوبي بالاغصان (٢) ، واخذت اكرر الكلمات رجاء ان اعود الي ما كنت عليه ، لاخلص من هذه الورطة فلم تجد نفعا ، وخشيت ان اقع علي عين احد الحاضرين فافتضح ، وينال مني كل وقح ، فطفقت استعطفه فلا يعطف ، واستميحه العفو فلا يسعف ، وانا في حال من الوجل تكاد تسلبني قوتي فأقع فيما اخشاه . وما راعني الا ان نظر الي نظرة المدهش ، وطار كأنه يريد حتفي ، فلا تسل عما اصابني من الاعنات ، عندما يئست من الافلات (٣) ، فأجمعت امري علي ان الزم مكاني حتي ينتصف الليل ، فهو اخفى للويل ، وان اتسلل من تلك الحديقة حتي اصل الى الطريق ، ولكن ماذا يكون من امري ان لحني الخفير ، وقبض عليّ كما يقبض علي لص شرير ، وبماذا احتج عند التحقيق ، لخروج من هذا المضيق ، وماذا يكون وراء ذلك من سوء القالة ، وشناعة الاحدوثة (٤)

كل هذا جاش في صدري ، فكدت اقع مغشيا عليّ لولا ان تداركني الله بعود ذلك العصفور ، فنظرت اليه نظرة المسترحم ، فقال : تتوب ؟

قلت . ان صادفتني بعدها في صورة غير صورتي ، فقد حلت لك عقوبتي

قال لااريد ان تعدل ، ولكن ان تعتدل . ثم قال اتل الكلمات . فتلوتها فصرت الي ما كنت عليه ، فطرت الي جانبه وقلت له من انت رحمك الله ؟

فقال . انا الذي قابلته بالتوفيقية ، ولقنك هذه الكلمات العلوية

فقلت . لقد زدتني لبسا

---

(١) التعزير التأديب (٢) المنتدين المجتمعين . ونشوبي بالاغصان اي تعلقي بها
(٣) الاعنات المشقة (٤) القالة اسم من القول . وسوء القالة اي سوء قول الناس . والاحدوثة ما يتحدث به الناس

فقال : انا استاذك الحكيم بن مرشد ، ثم اندفع في الهواء، اندفاع القذيفة في الفضاء

اما انا فزايلت الشجرة من ساعتي ، ثم تلوت الكلمات فعدالي صورتي

الوجدية الخامسة

روى الوجدان قال :

خرجت للتنزه يوما أتحرى مَهابَّ الصَبا، وأتخير التِلاع والرُبا(١)، حتي جزت المدينة وجَلَبَتَها، وشارفت الفلاة وسكينتها، فلاحت لى أيكة عليها طيور تتناغي (٢) فحبب الي ان اشاطر هذه الكائنات مَرَحها ، ولو ساعة من الزمان ، اجلو بها عن صدرى صدأ الحدَثان، فتلوت الكلمات قاصداً ان استحيل الي وَرَشان(٣)، فكنته في مثل لمح البصر ، فطرت صوب الشجرة واندسست بين سواجعها ، واخذت إخذها في الشدو والتغريد ، هي مرحة بعيشها الرغيد، وانا طرب بشكلي الجديد، حتي لاح شبح رجل من بعيد، فقال واحد من رفاقى هذا ابو الاقبال المجنون، صاحب الفنون، وطريد هذا الجيل المفتون، فالتفت اليه الباقون، وقالوا انه اليوم اهدأ ما يكون. ثم انبرى هدهد من بين الجماعة وقال : من عجيب ما رأيته فيه ، انه لو قابله انسان سأله من انت ، فان اجابه على طريقة العقلاء، ثار عليه، وقصد بالسوء اليه، حتي يفر من بين يديه ، ولكن ان اجابه بقوله : انا مجنون، استقبله باكرام، وافاض معه فى ضروب من الكلام

قال الوجدان : فحدثتني نفسي بملاقاة هذا المجنون، منتهزا فرصة ما هو فيه من

(١) مهاب جمع مهب اي مكان هبوب النسيم. والصبا اسم نسيم مهبه مطلع الثريا. والتلاع جمع تلعة وهي الجهات المرتفعة. والربا جمع ربوة وهي ما ارتفع من الارض (٢) الجلبة بفتحتين الصوضاء . وشارفه قرب منه. والايكة الشجرة (٣) حدثان الدهر نوائبه. والورشان نوع من الطيور

السكون ، فطرت من الشجرة حتي صرت وراءرابية (١)،فتلوت الكلمات السرية، قاصداً العود الي صورتي الآدمية،ثم علوت تلك الربوة فرأيت ابا الاقبال قد جلس الى تلك الشجرة،فقصدته، فلما قربت منه بدرته بالسلام . فقال من انت ؟

فقلت : مجنون

فضحك ضحكا عاليا،وصفق تصفيقا متواليا ، وما زال يقهقه وينظر حواليه ، ويتأملني ويقلب يديه،حتي ساءظني،وكدت ارجع ضمنا بنفسي.الا انه اخذ يهدأ يسيرا يسيرا ، فلما تمالك نفسه عاد الى قوله من انت ؟

فقلت : مجنون ؟

فقال . مجنون ؟ وهذه انوار العقل محيطة بك احاطة الدارة بالشمس ،والهالة بالقمر (٢)،وجلاله فائض على كل صغيرة وكبيرة فيك،فماذا شاقك من المجانين،حتي تندس الي زمرتهم ؟

قلت . لقد صدقتك القول ، فأنا مجنون

قال . مجنون ؟ وحملق اليّ بعينيه ، ثم اخذ يغمزني بحاجبيه ،ويهزأ بي بلسانه ويديه (٣)، ثم هدأ وقال . لو كنت مجنونا لكنت مثلي حاسر الرأس،حافى القدمين لا يستر جسمك الا قميص وجلباب.هذا لبوس المجانين،وربما استثقلوها في بعض الاحايين،اما انت فآثار العقل العالي ظاهرة عليك،ونوره الباهر يسعى بين يديك ....

فتى يدك عصا تحملها ولا تحملك ، وتخدمها ولا تخدمك،وعلي راسك غطاء احمر، يحصر الحرارة في يافوخك ، لا يقي جبهتك من هجير ، ولا قفاك من اقل تأثير (٤). وفى عنقك غُل من القماش المنشّي ، محاط برباط من الحرير المغشّي ، يضغط علي اخدعيك ، ويعيق الدم ان يصل الي مخك وعينيك(٥).وعليك ملابس

(١) الرابية كالربوة ماارتفع من الارض (٢) الدارة اصلها كل مايحيط بالشيء والمراد هنا مايحيط بالشمس من اشعتها اللامعة.والهالة هي الدائرة المضيئة التي تحيط به (٣) الغمز بالعين والجفن والحاجب الاشارة بها (٤) اليافوخ قمة الرأس.والهجير شدة الحر (٥) الغل طوق من الحديد يجعل فى عنق الاسير او يده .والمنشي اي المقوي بالنشا . والمغشي من غشي الشيء غطاه . والمراد انه محلي بأغطية عليه . والاخدعان عرقان في جانبي العنق

قد ضاقت حتي لتكاد تمنع الهواء ان تتسرب الى مسام جلدك، والاخلاط ان تنفرز لمصلحة جسدك، وفى قدميك حذاآن قد حرّما عليهما التغذي، حتي اصبحا عرضة للصلابات، وانواع التقيحات، وكل هذا يا ابن اخي علامة العقل الرجيح، وامارة الفكر الصحيح، فكيف تريد ان توهمني معه بأنك من اخواننا المجانين، وما الذي يحملك ان تحشر مع الاذلين، وتحسب من المرضي المضحكين ؟

ثم نظر ذات الشمال، وقال هاهو ابو الرئبال، عمدة المجانين، وعماد الموسوَسين

قال الوجدان : فالتفت فرأيت رجلا اشعث اغبر، ليس عليه من اللباس الا مِستر (١)، مقبلا علينا وهو واضع يده على صدغه، ورافع عقيرته بغناء لم افهم منه حرفا، ولا اجد لتنافر ألحانه وصفا. فلما وصل الي جذع الشجرة جلس ولم يسلم، واستمر فى غنائه المشوّش هنيهة، ثم سكت. فالتفتَ اليه المجنون الاول وقال له : عندى مسائل يااباالرئبال

فقال الثاني : هاتها يااباالاقبال

فسأله : ماالعقل ؟

فقال ابو الرئبال : عندنا ام عندهم ؟

فقال ابو الاقبال : عندهم

فاجابه : هو مجموع رث من ضلالات المشاعر، وجمهرة مشوّشة من احكام الحواس (٢)

فقال ابو الاقبال : زدني شرحا، زادك الله فتحا

فقال ابو الرئبال : نعم، نظر الانسان في الوجود والموجودات، وهو لم يحمل من آلات هذا النظر الا حواس ليست كليلة محدودة القوى فقط، ولكنها لا تقبل تأثير الاشياء الا على حال يناسب تركيبها، ويوافق طبيعتها. فالعين ترى جسما، وليكن

---

(١) اشعث اي متفرق الشعر. واغبر اى عليه غبرة وهي التراب. والمستر الثوب الذى يستتر به (٢) الرث سقط المتاع. والمشاعر الحواس. وجمهرة اي مجموع، من جمهر الشيء جمعه

حجراً مثلا، فتدرك له حجما معينا، وشكلا معينا، ثم تتناوله اليد فتحس به صلباً خشناً، وتقرعه بعصا فتدرك له الاذن صوتا ذا تأثير خاص على عصبها

وقس على ذلك جميع المرئيات التي وقعت تحت نظر الانسان من جامدات ومائعات وغازات، والمدركات من اصوات وطعوم ومشمومات ومحسوسات، فأدرك منها بحواسه المختلفة صفات معينة، وحالات مختلفة فكان مجموع تلك الاحكام عقلا مكتسبا له، استخدمه في تحسين حالته المادية والادبية، وهو كما يسخره في استكشاف المجاهيل الصورية، يسخره كذلك لادراك الحقائق الاولية، والشعور باللطائف المعنوية

ويغفل الانسان ان هذا العقل المكتسب ليس بشيء غير مجموع احكام هذه الحواس الجسدية، وان هذه الحواس لاترى الموجودات على ما هي عليه في الواقع، ولكن على حال يناسب تركيب تلك الحواس. فالحجر الذى ضربناه مثلا هنا هو حجر له تلك الصفات المعروفة عنه بالنسبة للحواس التي ادركته. اما هو فى الواقع فحركة اثيرية لايفترق عن اي جسم من الاجسام المبثوثة فى الكون، سواء أكانت حية ام ميتة، سائلة ام جامدة ام غازية

ولو اعطينا حواس ادق من حواسنا هذه، واقدر على ضبط الجزئيات، لرأينا الوجود على غير هذه الصورة، ولأدركنا لعلاقات الاشياء بعضها ببعض نظاماً يناسب ذلك الشعور العالي بها، وهلم جرا الى ان تنتهي الحواس في الشعور بها الي حال تتلاشي معه الفروق التي بينها، فلا يكون الا الاثير وحركته او الكائن الاول الذي استمدت منه الاشياء وجودها

فقل لي اذا فهمت ما افضي به اليك الي اي حد تتغير عقولنا تبعاً لتغير شعور الحواس، وتتخالف احكامنا على الاشياء باختلاف ادراكنا للعلاقات الموجودة بينها؟

فاذا نهض الانسان بهذا العقل العادي يجوس خلال الكون، يصدر به عليه الاحكام القاطعة، ويري في قواه الآراء الفاصلة، ويحاول ان يعتصر المحسوسات ليستخرج منها حقيقتها الاولية، كان مستهدفا نفسه لاشد الضلالات عدوانا على كماله، واكثر الاخطاء ابعاداً له عن جلاله، فيعيش مغرورا ويموت مغرورا ولا كرامة

قال ابو الاقبال: افادك الله ايها العميد، ولا حرمنا رأيك السديد، فما العلم؟

فقال ابو الرئبال : عندهم ام عندنا ؟

قال : عندهم

فأجابه : العلم ابن العقل،فهو كأبيه اسير الحواس، وفائدته محصورة في ادراك العلاقات التي بين الموجودات في دائرة محدودة،يقضي بها تحددقوي هذه الحواس، وقد ادي ادراك تلك العلاقات الي استكشاف وسائل افادت الانسان في حياته الحيوانية. فقيمة العلم في الواقع كقيمة العقل نفسه،فهو نسبي مقيد ، ومن العجيب ان كثيرا من (العقلاء) اتخذوا هذا العلم قائداً ليوصلهم الى ادراك الحقائق الكلية، فجروا فى ذلك شوطا اداهم الى نكران كل شيء الا احكام حواسهم القاصرة،فانكروا ارواحهم ، وجردوا الكون من كل معني وكل قصد وكل غاية،وقرروا بانه مادة عمياء صماء،تؤثر فيها قوة هوجاء خرقاء،تعمل فيه على غير هدي،وتتجه به الي غير وجه،ولا ادري بعد ان تأدت هذه المواد المفكرة الي هذه النتيجة،لم لاتقتل نفسها هربا من هذه الوحشة المطلقة،والجهالة المطبقة،الآخذة بمتنفس الكون،والسائدة فيه سيادة السلطان القاهر فوق عباده

قال ابو الاقبال : فما الفلسفة عندهم ؟

قال ابو الرئبال : هي ابنة العقل،وهى كأبيها واخيها مجموع من احكام الحواس القاصرة،ومن العجيب انها قد اغترت بنفسها حتي زعمت انها زعيمة الحقيقة المطلقة، والمتصرفة في عوالم المعاني المجردة،وغفلت عن انها لامطية لها في هذه الجولة الا هذا العقل ، وهو على ماوصفته لك من قصور القوى ، وتحدّد القُدَر

قال ابو الاقبال : فما الظرف عندهم ؟

قال ابو الرئبال : ان تتقن التصنع ، وتحذق التكلف (١) ، فلاتفوه بالسلام ولا تتحفز للقيام ، ولا تندفع في الكلام،ولا تظهر عاطفة او تبدى عارفة،ولا تأكل ولا تنام ، مدفوعا بالدافع الطبيعى وفى الحد الذى يحده العقل ، بل بدوافع الرياء والخداع والنفاق،والناس يعلمون ذلك ولكنهم يتجاهلونه ويتغابون عنه،فاذا قالوا عن انسان انه لظريف لطيف خفيف ، عَنَوا به انه لمنافق مخادع مُراء،ولا يفهم

(١) حذق الرجل فى صناعته اي مهر فيها

السامعون من معني الظرف واللطف والخفة الا هذا ، فتراهم ان 'مدح غائب بهذه الصفات امامهم هز الجميع رؤسهم بالموافقة، ثم ينظر بعضهم الي بعض ولا يجرأ واحد منهم ان يرد هذه الصفات الي اصلها، ولو فعل لاتهموه بالتعمق والتنطع، وربما رموه بالجنون ، لاعتبارهم ان هذه الامور من الحقائق التي لا يصح كشفها لعدم امكان الحياة علي نظام آخر

قال ابو الاقبال : لا 'فض فوك، ولله ابوك، فما المدنية ؟

فقال ابو الرئبال : عندهم ام عندنا ؟

فقال : عندهم

فأجابه : الافلات من جميع الرُبُط الادبية ، واطلاق العنان للاهواء النفسية، والتمذهب بالاباحة الفوضوية ، فان وقف العلم عقبة فى هذا السبيل، قالوا العلم شيء والحياة شيء آخر، لذلك تراهم في كل امورهم من مأكل ومشرب وملبس وملهي علي نقيض العلم ، بل كأنهم بعثوا لدحضه، والعمل علي نقضه، وهيهات، متاع قليل، ثم تصيبهم المَثُلات، وتحل بناديهم القوارع، وتأخذ بمخنقهم النوائل، عقابا علي ما فرّطوا وأفرطوا ، والنظام الوجودي يابي ان تتسرب ذرة من الخلل الي بنائه فلا يعذر جاهلا علي جهله، ولا يطاول مفتونا فى فتنته، ولو كشف لك عما تحت هذه الحلل المزركشة، والاكسية المطرزة، وما فى باطن هذه الاجساد الممردة، والخدود الموردة (١)، من جراثيم الادواء العضالة، واصول العفونات القتالة، لوليت منها فرارا ولمليئت منها رعبا

قال ابو الاقبال : مَرْحَي مَرْحَى، لقد جئت بالقول الفصل، ونصرت الجنون علي العقل ، فلا زالت دولة المجانين بك مرفوعة الاعلام ، قوية الحجة بين الانام

قال الوجدان : سمعت كل هذه الاجوبة وانا شديد العجب ، عظيم الطرب ، فنسيت اني بحضرة مجنونين ، وظننتني حيال فيلسوفين جليلين

فقلت : ما لنا نري يا ابا الاقبال ...

---

(١) المثلات العقوبات جمع مَثُلة. والقوارع النوازل جمع قارعة. الممردة المملسة

فوالله لم اكد أتم هذه الكلمات حتي صاح بي صيحة تصم الآذان وقال: أبلغ من قدر العاقلين، ان يتطاولوا الى محادثة المجانين، ثم هجم هو وصاحبه علىّ، وأدركت اني لو ثبت فقد يلحقني منهما اذى، فلم ار افضل من تلاوة الكلمات، بقصد التحول الى عصفور، ففعلت، وبينما هما يقبضان علىّ اذا بي افلت منهما على صورة طائر، وحططت على غصن من الشجرة

فنظر الي ابو الاقبال، وقال وهو يهز رأسه، فعلمها ياوجدان، لتبوأن بإثمها الآن. ثم انطلقا وانا انظر اليهما، حتي غابا عن عيني، وكانت الشمس آذنت بالغروب، فأردت ان اعود الي صورتي الانسانية، وهممت بقراءة الكلمات فرأيتني قد نسيتها، فأخذت اجهد نفسي في استعادتها، واعتصر مخي لتذكرها، فكاني لم احفظها، بل كأنني لم اسمعها، فكدت اتلاشي كمدا وحزنا، وطفقت من حيرتي انتقل من غصن الي غصن، واطير من رابية الي رابية، ثم هجس في نفسي ان اللذين انسيانيها هما ذانك المجنونان، بل الوليان الكريمان، فاندفعت في الاتجاه الذي اتبعاه حتي وصلت الى المدينة. فلم اجد لهما اثرا، وكانت الشمس قد توارث بالحجاب، واخذ ظلام الليل ينساب، فنولاني من الذهول والحيرة، ماكاد يقضي علىّ، وبينما انا اتقلي على جمر هذا الضيق واذا بصفرة عطف من عصفور على قمة الشجرة، فطرت اليه، فقال مابالك يابن عم؟ فحكيت له ماجري، فأظهر لى غاية النفور، من كوني آدميا في صورة عصفور، وقال ما كفاكم يابني حواء، مابثثتم في الارض من الشقاء، فشرعتم تبثونه في الجواء، وتكدرون على الطيور الصفاء؟

قلت: ما لهذا قصدت، وانما انا واحد من الذين يتصيدون الاسرار، ويستخدمونها لاصلاح الاشرار

فقال: ان ابا الاقبال وصاحبه رجلان من الاولياء، يكثران التنقل في الارجاء، فاذا صادفتهما ساعة في القاهرة، كانا فيما يليها في بكين او لوندرة، فكيف السبيل اليهما، لاستعطاف قلبيهما؟

قلت: وما وجه العمل، في هذه الحال الجلل؟

قال: ان تصبر على ما انت عليه حتي تصادفهما، وتستميح الصفح منهما، فهما

اللذان سلباك ذكر الكلمات ، وحملاك بهذا الاعنات

قلت : أأبقى على ما انا عليه عصفورا ، فربما استمر ذلك شهورا ؟

قال : ولعله استمر سنين ، او دام أبد الآبدين

قال الوجدان : فأصابني من الوجوم والكمد، مالم تتفق لغيرى احد . فلما رآني العصفور على هذه الحال، قال لا بأس عليك ، اني اعرف وليا يهديك الى الطريق ويخرجك من هذا الضيق

قلت : من هو رعاك الله ، وأتم عليك نعماه

قال : هو الاستاذ المنجد ، الحكيم بن مرشد

قلت : رحماك هو استاذي الاول ، وعمدتي الذى عليه المعول . أين هو لاذهب اليه ، واستندي راحتيه ؟

فرفرف العصفور بجناحيه، وقهقه بملء شدقيه. ثم قال اتل الكلمات وعجل بالافلات

قال الوجدان : فعادت الي ذاكرتي ، وكأني لم أنسها فى ليلتي

فصحت به : هو انت ؟

فقال : انا هو ، فارجع من حيث اتيت ، وانتفع بما عانيت

الوجدية السادسة

أخبر الوجدان قال :

اصبحت ذات يوم برِماً بالعمل (١) ، فرأيت انه لايعيد الىّ نشاطي الا خروجي من دائرة ما ألفته وتعودته الي مايخالفه ، فخرجت من مكتبي في الساعة الثامنة ماشياً ، فما زلت انتقل من طريق غاصة بالغوغاء ، عامرة بالضوضاء ، الي شارع لايكاد يسمع فيه الانسان رِكزا(٢)، وانا اسبح من مختلف الصور الذهنية،

---

(١) برما اي سئما . يقال برِم به اي سئم منه (٢) الغوغاء اخلاط الناس . والضوضاء الجلبة . والركز الصوت الخفي

في لجة لا ساحل لها نسيت معها نفسي حتى انتهيت الى شبرا، وكان قد بلغ مني الاعياء، واوشكت الشمس ان تبلغ كبد السماء. فخيب الي ان استريح هنيهة ثم اعود ادراجي، فتخيرت قهوة وجلست الى ناحية منها ، وكان على مقربة مني جماعة من الشبان يجولون من الحديث في كل مجال، ويتبارون في ضروب من الجدال، فتارة يصطخبون، واخرى يتضاحكون (١)، وبيناهم على هذه الحال واذا بشيخ يناهز السبعين، لابساً لبوس البوابين، له لحية بيضاء، وعمامة حمراء، وسيما ينم عن نفس زكية، وسذاجة طفلية، فتناول كرسيا وجلس غير بعيد منهم، ولم يعتره ما يعترى امثاله حين ينزلون غير منازلهم، ويجالسون سوى اشكالهم ، فنظر اليه اولئك المتسدون شزراً، وهموا ان يوسعوا صاحب القهوة هجرا (٢)، ثم كأن قد بدا لهم فتحولوا من التبرم به الى الضحك منه. فقال له قائل منهم :

مرحباً بالعم

فأجابهم بوجه طليق، ولسان زلق : حياكم الله وهداكم ، ولا شق عصاكم (٣)

فقال له قائل آخر : من اين اقبلت ؟

فقال : من حيث يقبل الرجال

فسأله : والى اين تذهب ؟

فقال : الى حيث يذهبون

فقال له ثالث : وماذا تعمل ؟

فقال الشيخ : ما يعمله العاملون

فقال رابع : وماذا تأكل ؟

فقال الشيخ : ما يغذوني

فقال : وماذا تشرب ؟

قال الشيخ : ما يرويني

قال الوجدان : فتضاحك اولئك الفتية، وتصايحوا، وضربوا الارض بأرجلهم

---

(١) يصطخبون تختلط اصواتهم (٢) نظر شزراً اي من جانب العين كما يفعل المغضب. والهجر بضم الهاء القبيح من الاقوال (٣) شق العصا كناية عن التفرق

استخفافا بهذه الاجوبة . ثم التفت اليه واحد منهم بعد ان هدأت ثائرتهم وساله :

وعلى اى شيء تمشي ؟

فقال الشيخ على ما يوصلني الي الغاية

فسأله : الى اي غاية ؟

فقال الشيخ : الى غاية كل حي

فقال له خامس : ألا تجيبنا على ما نسال ؟

فقال الشيخ : ألم أفعل؟

فقال له : ولكنك تجيب بكلام مبهم

فقال الشيخ : وما حيلتى اذا لم تفهم ؟

قال الوجدان : فضحكوا اكثر مما كان منهم اولا، وهاجوا وماجوا، حتي لفتوا نظر السابلة . ثم سكنت فورتهم وعادوا الى مساءلته (١)

فقال له واحد منهم : ماهذه ؟ واراه عصاه

فقال الشيخ : ماتسمونه عصا

فسأله : وماذا تسميها انت ؟

فقال الشيخ : لاشيء

فسأله : كيف تقول لاشيء وهي توجع ؟

فقال الشيخ : هي توجع من يعتبرها شيئا

فقال الشاب : لاشيء اسهل من اختبار ماتزعم

قال الوجدان . فلم يكد ذلك العاطل يتم كلمته هذه حتي صاح به الشيخ صيحة ارتج منها المكان ، وكسرت من شرة اولئك الشبان ، فقبعوا قبوع الحملان ، اذا رأت السِرحان (٢) ، ثم التفت اليهم وقال:

شاهت هذه الوجوه، ورغمت هذه المعاطس، وباءت تلكم النفوس بما كسبت

---

(١) السابلة المارة (٢) الشرة بكسر الشين الحدة. وقبعوا المراد هنا تقبضوا خوفا ، من قولهم قبع القنفذ اى ادخل رأسه فى جلده . والحملان جمع حمل وهو الخروف . والسرحان بكسر السين الذئب

من جرائر، و ناءت بما حملت من معاير، وشربت من صاب عملها كؤوسا دهاقا، جزاء وِفاقا، لاادعو بذلك عليها غضبا لنفسي، ولكني ارجوها لتثوب الى الهدي، وتحيد عن طريق الردي (١)، ولو كانت القلوب تُبل من ادوائها، والنفوس تطهر من اهوائها، عفواً صفواً (٢)، لرجوت ذلك لكم، ولكن دون الخلاص مما انتم فيه شق المرائر، وإدماء المحاجر، وخوض الهواجر، وهتك السرائر (٣). فان لم تكف، فصنوف الرزايا، وشكول البلايا، من امراض تذيب الاجسام، ومَتربة تلحق النواصي بالاقدام، وضيعة ليس معها وجود، وادبار لايخضر معه عود، ولا يكون لتاراته حدود (٤). فان لم تكف فالاصطهار بالنار، والتردّي في هاوية ليس لها قرار. فان لم يكف فلات حين ندامة، هو الهلاك ولا كرامة (٥)

اراكم تضحكون وتمرحون، واعجب كيف لاتبكون، حتي تتقرح منكم الجفون، وينضب ماء العيون، حياة اهون على الحدثان من قلامة ظفر، ووجود اضعف في معترك العالم من فقع بقفر (٦)، تدور عليكم الادوار فتعركم عرك الأديم، وتحطمكم ثم تذروكم كالهشيم (٧). هلاربأتم بأنفسكم فتساءلتم مع السائلين، عن حكمة هذا البلاء المبين؟ (٨)

عجبت والله منكم، تشوك احدكم الشوكة فيطير لها لبه شَعاعا (٩)، وترتعد منها

---

(١) شاهت اى تشوهت. ورغمت المعاطس اى لصقت هذه الانوف بالتراب ذلا. وناءت بالحمل ثقل عليها. والمعاير المعايب. والصاب نبات مر الطعم. ودِهاقا اى ملأي. وفاقا اي على وفق الذنب. ولتثوب اي ترجع (٢) تبل اى تشفى من أبل من مرضه (٣) المحاجر جمع محجر وهو مايحيط بالعين. والهواجر جمع هاجرة وهو حر نصف النهار (٤) المتربة الفقر. والتارات المرات (٥) الاصطهار بالنار اى الذوبان بها. والتردي السقوط. فلات اى فليس (٦) الحدثان حوادث الدهر. والفقع نبات حقير بالصحراء تدوسه الارجل (٧) تعركم اى تفركم بين اصابعها. والهشيم النبات اليابس (٨) ربأ بنفسه اى ترفع بها (٩) يقال ذهب القوم شَعاعا اي متفرقين. ويقال طارت نفسه شعاعا اي تبددت من خوف ونحوه

فرائصه ارتياعا،وتطعنه المثلات في صميم قلبه،وتساوره الاحداث حتي تذهب بلبه (١)،فلا يرفع بذلك رأسا،ولا يقيم له وزنا،إما خنوعا لوساوس إلحاده،وإما خضوعا لأوهام اعتقاده(٢)،فهو، ملحداً ومؤمناً،يريد ان يعيش بجثمانه وجثمانه، وان لايتعدي فى البحث دائرة الحاده او ايمانه،على انه لو صدق الملحد في الالحاد، وخلص المؤمن في الاعتقاد،لوصلا الي غاية،وتلاقيا في النهاية،ولكن كليهما يكذب في دعواه ، وينقاد الى هواه ، في الوقوف عند حد لايتعداه

ايها الاغيلمة مايضحككم مني (٣) ألحيتي البيضاء،ولا آبائكم مثلها؟ام مظهرى من الحاجة،ولم أسألكم سدها؟أم زيي الشرقي،وهو زى اسلافكم؟ام ما يوهمه حالى من الجهل ، وليس هذا حظ الجاهلين من العالمين ؟

والله اني ماأغشي هذه الاماكن ،لأقتل — كما تقولون — وقتاً،ولا لأروح نفسا،ولكني أغشاها لارى ساعات الناس كيف تضيع،ونضارهم كيف يتسرب، وكراماتهم كيف تهان،واخلاقهم كيف تنحط ، وقلوبهم على اي حال تموت (٤)

يقول الاحياء الوقت من ذهب،وعندكم الوقت من تراب،وان للتراب لشأنا عند العارفين ، وحقا على العاملين

ساعاتكم هذه فرص من صميم الحياة،ونهز من ايام العمر،ومهل من عوادي الدهر،تنفقونها سرفا في هذه البيئات (٥)، لا لحاجة عارضة،ولا لفائدة متوقعة، ولكن لانكم تعتبرونها جديرة بالانفاق سدي،وخليقة بالضياع على غير هدى،ثم يسأل امثلكم لماذا لا نلحق شأو الامم السائدة،وكيف نحسب في الجماعات البائدة،وربما اضله الكدر ، فأنحي بالعتب على القدر (٦)

أما ومن خلق الانسان،ووضع له الميزان،لا يستوى عامل وعاطل،ولا عالم وجاهل

(١) المثلات جمع مثلة بفتح فضم وهى القارعة والعقوبة.وتساوره تهاجمه (٢) خنوعا أى خضوعا (٣) الاغيلمة تصغير غلمان (٤) النضار بضم ففتح الذهب (٥) النهز بضم ففتح جمع نهزة الفرصة وزنا ومعني.ومهل بضم ففتح جمع مهلة.وعوادي الدهر حوادثه . والبيئة المنزل والحالة (٦) فأنحي اي فأقبل

ولا يقظ وغافل، ولا ناقص وفاضل، ولا جادّ وهازل، كما لا يستوي حق وباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فاذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون».

قال الوجدان: ثم أنّ الشيخ أنّة خلت انها ألهبت المكان، او احرقت اولئك الشبان، وما أتمها حتي رأيتهم تسللوا واحدا إثر واحد، وهم سكوت خاشعون، حتي تساءلت هل هؤلاء هم الذين كانوا قبل برهة يتصاخبون، ويتسكعون في غيهم ولا يرعوون (١)

فلما خلا المكان، الا مني وذلك الانسان، اقبلت اليه، مسلما عليه، وهويت الي يده لاقبلها، فرد التحية، بعبارات طلية، ولكنه جذب مني يده، ونظر اليّ متبسما عن مثل الجمان المنضد (٢)، وقال:

أمن زراية الي عبادة؟ (٣)

قلت: عفواً، فهؤلاء طغام من حثالة النشء ليس لهم اصل يرجعون اليه (٤)، ولا غرض يعملون عليه، فهم عالة على آبائهم، وقد جعلوا دأبهم الاختلاف الي القهوات والتردد على المجتمعات، يتصيدون خزية يتجاذبونها، ويترقبون عوراء يتقحمونها (٥) اما انا، ولا ازكي نفسي، فأعرف الفضل واحب اهله. وقد سمعت منك مالم اسمعه من ناطق بالضاد، على غير استعداد، فأردت ان ارد هذا المورد العذب، وان ألتقط من هذا اللؤلؤ الرطب

قال الشيخ: ان ما رأيته مني لا يعدو حد الفصاحة، ان كان ما قلته في شيء من ذلك، ولكن رب فصيح لسانه، خرب جنانه، فلم لم تتثبت قبل ان تحكم؟

قلت: قد اعتمدت على فراستي، ولقد صدقتني في كل موطن

فضحك الشيخ حتي بدت نواجذه (٦)، ثم امسك بيدي وقال: لو كنت مصيبا

---

(١) يتصاخبون يتصايحون. ويتسكعون من تسكع في امره اي لم يهتد لوجهه. ولا يرعوون لايكفون (٢) زراية اي تحقير (٣) الطغام بفتح اوله اوغاد الناس يستوي فيه المفرد والجمع. والحثالة بضم اوله ما يفضل على المائدة من البقايا وهو هنا كناية عن الساقطين (٤) العوراء كل فعلة او قولة سيئة (٥) ويتقحمونها اي يخوضون فيها (٦) نواجذه اي اقصي اضراسه

في الفراسة عني ، لاصبت انا في الفراسة عنك

قلت : ماترى فيّ ؟

قال الشيخ : أتفرس فيك، قصور الهمة عن غاية بعيدة، وفتور العزيمة في المواقف الشديدة، يتراءى لك الكمال، ويتيمك الجمال (١)، فتندفع اليها بكليتك، ثم ترتد عنها بقصور همتك ، وفتور عزيمتك

قلت : لقد قرطس في الفراسة سهمك، وتماءى جزني امرى فهل عندك دوائي ؟ (٢)

فقال الشيخ : كيف يعجزك الدواء وانت تذكره ؟

قلت : ماهو يرحمك الله ؟

فقال : علمك بما انت عليه

قلت أمعرفة الداء ، توجب الشفاء ؟

فقال الشيخ : هي الدواء ، فاسأل الاطباء

قلت : ان الاطباء يصفون العقاقير ، وقد وضعوا في تدبيرها الدساتير (٣)

فقال الشيخ : أولئك أطباء الاجسام ، وهي لا تقوم الا بالشراب والطعام ، ولكني احدثك عن طب النفوس ، وهي تلك المعاني المجردة التي لا تقوم الا بالعلم ولا تصلح الا بالحكمة

قلت : فالكذاب يعرف انه كذاب، ويدرك ان كذبه ذلك، سلحته بالاذلين، ولكنه لا يملك لعوجه تعديلا ، ولا لعلته تحويلا

فقال الشيخ : أكلمك عن نوع الانسان، وتكلمني عن عالم الحيوان

قلت انا أكلمك عن الانسان ، ودليلي على ماقول العيان

فقال الشيخ : لعلك تظن ان كل من مشي على رجلين، ولوى لسانه بحرفين، وقهقه بشدقين هريتين (٤) ، يعتبر في عرفك انسانا ؟

قلت . هذا ما اصطلح عليه العلماء

---

(١) يتيمك اى يأسرك ويستعبدك (٢) قرطس السهم اصاب الهدف (٣) الدساتير جمع دستور وهو القاعدة . والدفتر الذي تجمع فيه قوانين الملك وضوابطه

(٤) هريتين اي واسعين

فقال الشيخ . اولئك علماء الظاهر الذين يعتمدون على المظاهر، اما علماء الباطن فلهم في تعريف الانسان حدود غير ما عطيها الجمان. فاذا كانت النفوس نفوس قردة او ذئاب، او مما يندرج في هذا الباب، فماذا يجديها ان تكون من ذوات الاربع او من ذوات الاثنتين، وماذا يفيدك ان تلقاك بسمتين خداعتين ام بنا بين حادتين ؟ فالعبرة بصفات الارواح لا بهيئات الاشباح. فاذا صح قول القائلين بالنشوء والارتقاء فان امثال هذه النفوس الحيوانية، الكاسية بالجسوم الانسانية، تكون قد ارتقت ظواهرها ولم ترتق بواطنها، فهي لا تزال تعد من ذوات الانياب والمخالب، وان أكلت الاطايب، وتربعت في المراتب

قلت . هذا والله الواجب، فما حد الانسان عند اهل الباطن ؟

فقال الشيخ . الانسان هو الكائن الذى خلص من أسر المادة ورعوناتها، ونجا من افراطاتها وسطواتها، واستوى على عرش الاستقلال العقلي، وانتبذ لنفسه ناحية عن الوجود الحيواني، الا ما يضطره اليه بدنه، فيصيب منه على قدر ما يقيم صلبه، ولكنه لا يتعداه الي ما يفسد عليه قلبه. فهو يعقل الامور ويتفهمها فيختار ما يناسب كماله منها، لا يجد فى نفسه نزاعا بين ما يهديه اليه النظر، وما تدعوه اليه الشهوة، لتغلب قواه الروحية علي قواه الجسدية تغلبا ليس له حد

والا فما قيمة انسانية يكون فيها صاحبها مستعبداً لأخس قوى مادته؟ تدعوه بطنه للاسراف في التغذى، وينهاه عقله عن التعدي، فيغلّب دعوة البطن علي حكم العقل، ويصيبه من ذلك العصيان ما يصيبه من مغْص وغثيان ودُوار ويرقان (١)، ومع كل هذا فلا يقلع ولا يرعوى، بل يعود اليه كلما وجد الفرصة حتي انه قد يهدد بالموت الزؤام، فلا يجد من نفسه قوة علي الاحجام. فهل تعد هذا من نوع الانسان وان مشي علي اثنتين، في جورْبين وحذائين؟

وفي اى رتبة تضع الذين تفني نفوسهم فى ازيائهم، فيمشي احدهم وعقله موزع

---

(١) المغص بسكون الغين وجع الجوف والعامة تفتح الغين خطأً. والغثيان تحرك النفس للقيء . والدوار هو المسمى اليوم بالدوخة

بين ردائه وحذائه،او الذى تتلاشي مرائيهم فى شهواتهم،فلا يطوف بخيالهم غير نزعة بهيمية،ونزغة شيطانية.وما خور يفقدهم كرامتهم الذاتية(١). اوالذين تضيع طيباتهم فى المخدرات وصنوفها،فيمضون حياتهم في ذهول دائم، وجنون ملازم. هل تضع هؤلاء فى رتبة الانسانية،وان ركبوا الاوتومبيلات،وتكلموا بعدة لغات؟

قلت : صدقت والله ثم ماذا ؟

فقال : ثم أقوم الي البيت ، فقد كفاني اليوم مارأيت

قلت : أنا ضيفك الي وقت المقيل (٢)

فقال : ان شئت فالى الاصيل (٣)

قلت : فأين دارك العامرة ؟

فقال : وراء هذه المزارع الزاهرة

قال الوجدان : فخرجنا نمشي الهوينا بين زروع ناضرة،وقصور فاخرة، وقد شغلت بعباراته الساحرة،وفتنت بحكمه الباهرة،حتي ذهلت عن الارض التي نحن عليها ، وما لفتني الا قطار من جمال ، عليها هوادج ورحال ، على الرحال مغاربة بالبرانس ، وفي الهوادج نساء كوانس (٤)، وهو مشهد لم اعتده عندنا،ولا وقع على مثله نظر هنا،وأولئك الركبان يتكلمون بلهجتهم المغربية،مما لايدع لي شكا في انهم من غير قبائلنا البدوية

ثم رميت ببصري فرأيتنا قادمين على بلدة ذات سور أثرى،تتراءى خلفه مآذن ليست من الطراز المصرى،وما كدت ارى ذلك حتي لاحت لي أراض يفلحها رجال ونساء ، ليسوا من مصر فى شيء من الاشياء

فالتفت الي صاحبي متعجباً وقلت له : أين نحن الآن ؟

فقال : فى ضاحية تلمسان ، وقد اتخذتها مثابة منذ زمان

قلت : تلمسان ؟ أين مصر من الجزائر ، وقد كنا فى شبرا منذ عشر دقائق ؟

---

(١) النزعة الميل. والنزغة التسويل والاغراء (٢) المقيل الاستراحة وقت القيلولة (٣) الاصيل قبيل غروب الشمس (٤) القطار جماعة من الابل على نسق واحد. وكوانس من كنس الظبي اذا دخل كناسه

فقال : ان لم تصدقني فسل الزراع ، من اهل هذه البقاع

قال الوجدان : فظننت ان الشيخ يمزح، فسألت بعض السابلة، ثم ركباً في قافلة فاتفقوا في الجواب ، ولم يبق محل للارتياب

فعدت الي صاحبي دهشاً وقلت له : كيف يكون هذا ؟

فقال : طويت لنا الارض ، فماذا ؟

فقلت . أكرامة من كرامات الاولياء ؟

فقال . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

قال الوجدان فأدركت اني اصحب واحدا من أصحاب المقامات، ممن نقرأ عنهم الكرامات، ونعدها في الخرافات، وكان يجب عليّ ان اطمئن معه على الرجعة، بمثل هذه السرعة، الا أن الرعونة البشرية غلبتني فقلت له . وكيف أعود الي الوطن، في مثل هذه البرهة من الزمن ؟

فقال الشيخ . ان ما رأيته من هذه الحال ، يقل في ثمنه ان تشد له الرحال ، وتضرب من أجله آباط الجمال ، وأنت لم تتكلف له عناء في الذهاب، فاده حقه في الاياب

قال الوجدان . فغشيني عند سماع هذا الكلام ما غشيني، ولما هممت ان استعطفه لم اجده أمامى ، فوالله لا أدري أغاص في الغبراء ، أم صعد الى السماء ، ووجدتني وحيداً فى وسط الصحراء ، فضاقت عليّ بما رحبت ثم قدرت المسافات، وعددت ما معي من الدريهمات، فرأيت اني أعجز عن الرجعى بوسائلي وحدها، وان لا بد لى من الاستعانة بأولياء الامور في تلك البلاد، واستنكرت ان يطوح بي رجل من الصالحين الي مثل هذه الهلكة، الا ان الكرب الذي نالني لم يدع لي مجالا للفكر في مثل هذا الامر. فحصرت همي كله فى العمل للعود الى الوطن ، فقصدت رجلا من العملة ينحو نحو المدينة ، فاستوقفته ، وقلت له ان أوصلتني الي حاكم تلمسان ، فلك مني فرنكان

فنظر اليّ الرجل نظرة المستريب (١) وقال . ما تلمسان ياسيدى، اني لم اسمع

(١) المستريب من استراب اي وقع في الريبة

هذا اللفظ مذ كنت

قلت . عجيب هذا أتكون في ضاحيتها ولم تسمع بها ؟

قال . ياسيدي انا اعرف ابشان وملوان ووردان أما تلمسان هذه فلم أسمع عنها شيئا ولعلها بالوجه القبلي

قال الوجدان . لما طرق أذني هذا الكلام كدت أضيع عقلي وبدرت اليه بقولي . من اي البلاد انت ؟ (١)

فقال العامل . أما بلدي فالمحله الكبري، ولكني اعمل الآن فى شبرا

قال الوجدان . فنظرت الي ماحولي فوجدت المعالم قد تغيرت فبعدان كنت أري أسوار تلمسان الأثرية، ومبانيها المغربية، صرت ارى مزارع شبرا الشذية وقصورها البهية (٢). فعلمت ان صاحبي الصالح قصد بذلك مداعبتي. وأردت أن أتخلص من حديثي مع ذلك العامل بحيث لا يشعر بما كنت فيه فقلت له . شتان ما بين المحلة وتلمسان، فلك العذر في جهل مثل هذه البلدان، ثم نفحته بقرشين فانطلق قرير العين

اما انا فيممت صوب القاهرة وفى نفسي من هذه المداعبة شيء (٣)، لما نالني فيها من العنت (٤). وبينما انا أسير، وقد أخذني التفكير، واذا بصوت رنان يناديني من بين الافنان، فنظرت الي فوق واذا بصديقي البلبل الرفيق، على غصن وريق، ينظر اليّ بعينيه الياقوتيتين، ويرفرف مرحا بجناحيه الانيقين (٥)، وما وقعت عيني عليه حتي قال .

لك التحية ياوجدان، كيف خلفت تلمسان ؟

فقلت . لك مثلها والكرامة، انك والله لصاحب هذه المقامة

قال . فكيف بك فيها ؟

قلت . لقد رأيت مالا يتفق الا للافراد ولكني أحسست فيها بصدمة لا يزال أثرها في قلبي

---

(١) بدر الي الشيء يبدر بادر اليه اى اسرع (٢) الشذية اي العطرة (٣) يممت قصدت . والصوب الجهة (٤) العنت المشقة (٥) الانيق الجميل

فقال البلبل : أحلاوة بغير نار ؟ كيف يعقل ان تحتك بهذه الخوارق، ولم تدفع في المآزق ، وتفتن بالبوائق ؟ (١)

فقلت : رضيت بذلك مادمت من بالك

قال الوجدان : ثم اردت ان انتهزها فرصة فأخوض معه في بعض المسائل ، فلم أجده امامي، فتفقدته على كل غصن من تلك الشجرة فلم أقف له على أثر، فعدت الي بيتي متعجباً من هذه الاحوال ، ولم تبلغ الساعة واحدة بعد الزوال ؟

الوجدية السابعة

قال الوجدان :

طال عهدي بفقد الاعاجيب، وانا من الذين لا تصدهم الظواهر مهما فتنت، عن البواطن مهما خفيت ، وكانت الشواغل المادية قد استوعبت جهودي رَدَحاً من الزمن (٢) ، فقطعتني عن الشؤن المعنوية على كره مني. فخرجت كمن نشط من عقال، او خلص من إسار (٣)، أتخير مرتاضا لنفسي، ومرتاداً لخيالاتي (٤)، فلم أر أفضل من غشيان الرياض (٥) لعلي اصادف زهرة تكاشفني سرها، اوساجعة تطارحني شجوها (٦)، فأخذت أتنقل من روضة الي روضة، متوسما وجوه الزهر ، متلفتاً للسواجع فوق الشجر، فما أبه لى منها آبه، ولا فطن الي منها نابه (٧). فامضني هذا الاعراض (٨)، وكنت أعهدني اذا دخلت خميلة بسمت لي ازهارها، وصدحت لى أطيارها، ورحبت بي غدرانها، وحيتني ضفادیها ونينانها (٩)، فأدركت ان إدماني

---

(١) البوائق المهلكات جمع بائقة (٢) الردح بفتحتين المدة الطويلة (٣) الاسار السير من الجلد يشد به الحيوان (٤) مرتاضاً محلا للرياضة. ومرتادا من ارتاد الشيء اى طلبه (٥) الغشيان الاتيان (٦) الساجعة من سجع الطائر اى غرد. والشجو الهم والحاجة (٧) أبه له اى فطن له. والنابه الشريف (٨) أمضني ومضني اي ساءني (٩) الخميلة الروضة. وصدحت غردت. وضفاديها اي ضفادعها. ونينانها اي اسماكها جمع نون

الشغل بالماديات، اضعف من قواي الروحية، وحجب من انوارى النفسية، فجلست أجلو ما صدِي، من مرآتي، واستثير ما كمن من قوّاتي، وبينما انا مشتغل بنفسي على تلك الحال، واذا بزهرة نسرين، تسأل اخرى من ياسمين: ماذا يفعل هذا المسكين؟ فبسمت النسرينة بسمة زهرية، تضوّعت منها نفحة عطرية، وقالت هذا مفلس يراجع ماضيه، لعله يجد له باقية

قال الوجدان: فأسرعت الي تحيتها، وبالغت في تجلتها، فوالله مازادت، على ان قالت: الصيفَ ضيعتِ اللبن (١)

قال الوجدان فأخذت اقسم لها بالمحرّجات من الايمان بأني على عهدى الاول، لم أتحوّل، واني لم انقطع الى عالم الحس الا بضغط القواهر، لا إخلاداً الي الظواهر، ولا ركونا الي المظاهر. فما اتممت كلامي حتي سمعت قهقهة استهزاء، تلتها صفرة إزراء، فلفتّ بصرى فاذا بهدهد على فنن (٢)، يرمقني عن شزن (٣)، فنفحته بتحية بديعة، وشكوت له ما اجده من القطيعة. فما زاد على ان ضرب الهواء بجناحيه، وطار وانا انظر اليه، ثم اقتعد غارب غصن عال (٤)، وتركني على شر حال. الا اني سمعته يقول لجاره، الذي عن يساره:

ماذا عهدك ببني حواء، من جهة الوفاء، يا امير الهواء؟

فتنهد الهزار تنهد الدَنِف (٥)، واجابه بلسان الموتور الأَنِف

الوفاء كلمة وضعوها للدلالة على نوع من اهوائهم، فيفي الواحد منهم لصاحبه مادامت بينهما علاقة من هوى، فان زالت قطعه وسمي قطيعته بأسماء يتمدح بها، فسماها عقلا وكياسة وحزما وزهدا وإباء الي غيرها من الصفات الكريمة. فان اتفق ان عاد الي ما نعت

---

(١) الصيف ضيعت اللبن مثل يضرب لمن كان في يده شيء فلم يعرف قيمته وضيعه ثم احتاج اليه فعاد يتفقده. وسببه ان شيخا غنيا تزوج من فتاة، فالتوت عليه وتزوجت من شاب، فاحتاجا الي لبن فجاءت تطلبه من زوجها الاول، فردها بتلك العبارة. وقوله الصيف اي زمن الصيف وهو الفصل الذي طلقها فيه (٢) الشزن البعد والناحية (٣) الغارب اعلي الكاهل (٤) الدنف المريض (٥) والموتور المظلوم

الامتناع عنه بهذه النعوت الفخمة، دعا رجوعه عطفا وبرا وسماحة الى سموه من عقائل النحائز ، وكرائم الغرائز (١)

فقال الهدهد : ان الانسي الذي تراه ماثلا تحت تلك الدوحة ، كان يتردد علينا في الاحايين، ثم بدا له فقاطعنا سنين، فان سألته عما حمله على المقاطعة، وعما ساقه الى المراجعة، لبكى بدموع غزار، وافتن في ضروب الاعتذار (٢)

فقال الهزار : يخيل لى انه يترقب ليصيد ، ويتلطف ليكيد

فقال الهدهد : لالا، انه ليس ممن يمسك الطيور ويؤذيها، ولكنه ممن يستخبرها ويداجيها ، فهو على شاكلة غريبة من شواكل اللعب والتلهي (٣)

فسأله صديقه : اي شيء اخذت عليه من ذاك ؟

فأجاب الهدهد : يزعم انه يصيب من المراجع حكمة شردا بين نوعه، ويأخذ عنها علما ينفع به بني نوعه

فقال الهزار : هذا أعجب ماسمعنا من ضروب النزل، وشكول التدلي (٤) ما ابن مايعلمه الحيوان ، مما ألم به الانسان، لاشك فى ان هذا ضرب من الهذيان

فقال الهدهد : انه ليس من الهذيان، ولكنه من الاحتيال، وذلك ان الانسان اجفى كائن لسماع مايصلحه، واعصي مدعو لتفهم ماينفعه، فهو يترامي على اهوائه ترامي الفراش على النار، ولقد اخذت تلك الاهواء بأكظامه حتى لا يكاد يفلت من إسارها طرفة عين ليخلو فيها الي عقله، فيضطر اهل البصر من افراده لان يأتوه بما يدهشه من الخيالات، ليتصيدوا منه لفتة اليهم طلباً منه للذة العجب، فيدسون اليه في ذلك القالب شيئاً من الحكمة ، وذرْواً من النصيحة (٥)

فقال الهزار : هذا اعجب ماسمع عن كائن علا كماله على قواه الذاتية ، و نيط ارتقاؤه بمواهبه الفكرية

قال الهدهد : ان شأنه من هذه الوجهة يوجب الدهش، فهو من كراهة النور

---

(١) النحائز جمع نحيزة وهي الطبيعة (٢) افتن تفنن (٣) الشاكلة الطريقة والمذهب (٤) شكول جمع شكل والتدلي الانحطاط (٥) ذرْواً اي قليلا

بحيث قد تمكث اقوام منه فى ظلمة ضلالة ظاهرة يترددون في حمأتها (١) عشرات القرون، ثم لا يتحولون عنها الا ببطء يوجب الاسف، مع ظهور اثرها الموبق (٢) في كل محاولة من محاولاتهم

قال الوجدان : انه سمعت من تحاور هذين العصفورين ما ملأني خجلا من الاعلان عن نفسي بين كائنات تلك الطبيعة الباسمة، وبينما انا اتقبض واتضاءل حتي لا يراني منها شيء فتكون رؤيتي سببا في حرماني من هذا الحديث الممتع، واذا بطلقات نارية متوالية ، واسراب من الطيور تتدافع في الجو مترامية . فقال الهزار للهدهد: ماالذي نسمع ؟

فقال الهدهد : هذا ياسيدى شاب من احسن الشبان تقويما ، واصفاهم اديما ، وآنقهم زيا ، واحفلهم تديتا، ينتاب بعض هذه الايكات باداة نارية يصب منها شواظا من نار (٣) على اخواننا فوق الاشجار، وهي في غفلة عنه فيهوى منها عدد كبير بين مدقوق عنقه، ومهيض جناحه، ومهشوم فخذه، ومثقوب صدره . ومعه كلاب دربها على جمعها له فتاتيه بها وهي على تلك الحالات المزعجة من الآلام، فيطرب من النظر اليها وهي تقطر دما ، وتجود بانفاسها .

فقال الهزار وقد ذهب التأثر بلبه : هذا وحش ضار ، ولا اخاله الا فذا في هذه الديار

فضحك الهدهد ثم استعبر ، وقال يرحمك الله ياابا الاخضر، ان الناس كلهم على هذه السيرة وان هذا المنظر الذى تعده مزعجا رائعا ليلذهم الي حد انهم اتخذوا له حظائر متسعة سموها (التيرو)، أعدوا فيها رجالا من مهرة الرماة، فيؤتي بالحمام فيطلق منه سرب في الجو فيتولاه اولئك المترصدون بقذائف النار، فتسقط مثني مثني على أشد حال من التمزق فيصفق لهم النظارة (٤) بايديهم اعجابا ومرحا

فقال الهزار وقد ملأه الفزع، وبدا عليه الجزع : أويحضر هذه المشاهد نظارة؟

---

(١) يترددون يتنقلون . والحمأة الطين الاسود (٢) الموبق المهلك (٣) الشواظ اللهب (٤) النظارة المتفرجون

فقال الهدهد . ان الناس ليحتشدون في هذه الاماكن احتشاداً يأخذ بالا كظام، لا بالجنان، بل ببذل العقيان (١)، وتجد بينهم الشيب والشبان، والغادات والولدان. فيتساوي الجميع فى الطرب لهذه المشاهد المريعة ، والارتياح لها

فقال الهزار بعد ان سكت هنيّة (٢): اذن مامعني قولهم ان الانسان اكرم الكائنات الارضية ، وانه صاحب الخلافة الالهية ؟ ان كائناً هذا شأنه فهو أخس من أخس الكواسر ، وأحط من أحط الضواري ، وأبعد عن الله من اوحش العجاوات الهائجة (٣)

قال الوجدان . فسدكت بمكاني (٤) منتظراً نهاية الحديث، وبينا انا على تلك الحال واذا بحركة عظيمة حدثت بين الطيور، وصفير سرور وارتياح ملأ الجو ، فرفعت بصرى مستخفياً فاذا ببلبل جميل الصورة قد اقبل بين سرب من امثاله، وهو يقدمهم كما يقدم الرئيس قومه. فما استقر على غصن حتي اقبلت جميع الطيور اليه ، ترفرف بأجنحتها حواليه، وتتناغى بين يديه، فدققت فيه النظر فاذا به صديق لي من البلابل، كنت ألاقيه منذ زمان، واطارحه الاشجان، فأردت ان اعرفه بنفسي، ولكني خشيت ان يكون ذلك سبباً فى فض هذه الندوة (٥)، فلزمت الصمت، وارهفت أذني للسمع (٦)، فلم تكد الطيور تنتهي من الترحيب بالبلبل حتي قال لهم. فيم كنتم أيها الاخوان؟

فأجابه الهدهد . كنا نذكر الانسان

فسأله البلبل . والى اى حد انتهيتم من امره ؟

قال الهزار . الى انه اخس الحيوانات ، واحط العجاوات

فضحك البلبل وأغرب (٧)، وقال هذا منكم مستغرب

فسأله الهزار . هل يري الاستاذ غير هذا الرأي ؟

---

(١) العقيان الذهب (٢) هنية اي ساعة يسيرة (٣) الهائجة المتروكة يموج بعضها فى بعض (٤) سدك بالمكان لزمه ولم يفارقه (٥) الندوة الجماعة (٦) ارهفت حددت (٧) اغرب اي بالغ

فاجابه البلبل : نعم وسأدلى به اليكم، فاعيروني آذانكم. اما ان الانسان حيوان بجسده، فهذا مما لا يمتري فيه عاقل، واما انه بالاستنامة لمطالبه الجسدية، ووقف عقله ووسائله لتحصيلها، يصبح أعدي الكواسر، وشر المخاطر، فلا مجال فيه لمجادل. ولكن غاب عنكم انه بقبوله للترقى سيصل من الكمال، الي حيث لا يبلغه الخيال ، فيقلب الارض من حال الي حال ، ويؤتيها من البركات بما لا يخطر ببال. فاذا كان هو اليوم يسير في العالم سيرة الجبارين، ولا يفكر الا فى زيادة انغماسه فى الطين، فسيفطن غداً الى حقيقته، وما أودع من الاسرار في طبيعته، فيأنف من مضارعة الكواسر، ويرقى الي حيث لا تدركه الخواطر(١)، فان كائناً تتلاقى فيه جميع القوي الكونية، يستحيل عليه ان يستمر فى الحالة الحيوانية. فان قلت لكم انه سينتهي من الرقى الي حيث يسيّر الجبال بارادته، ويتحكم في الكواكب بقوته، لما كنت مغالياً في تقدير منزلته. هنالك تتحقق للانسان خلافة الله ، وتصدق ولايته على ماسواه

فقال الهزار : ماأعجب ما نسمع من الاستاذ، في هذا الكائن الشاذ، ان الذي نراه منه انه أعبد مخلوق لذاته، وأحرص على توفير لذاته، ان بدت له بادرة شهوة لم يبال ان يهلك العالم في سبيل نيله اياها، وابلاغ نفسه مناها، فحياته من يوم وجوده علي الارض سلسلة من جرائم ، ومدنيته ادوار من مخاز ومآثم . قيل لنا فى عهد من عهوده تربصوا بهذا الانسان فقد نظر في الخليقة، وهام بادراك الحقيقة، فتربصنا به آلافا من السنين، واذا به قد أوجد الفلسفة والدين، فزعم انه بالاولي سيصل الي اللباب ، وبالثاني سيتأدى الي رفع الحجاب، فانتظرناه اجيالا اخري واذا بالفلسفة قد أدته الى الالحاد، وأخلد هو بالدين الي الجمود والعناد، وهاهو اليوم قد اتخذها اداتين لشهواته، ووسيلتين لتأليه ذاته. أفلا يعد هذا الكائن أيها الاستاذ شر النوائب وأفدح المصائب ؟

فقال البلبل : لقد حفظت علي الانسان سيآته ، وجردته من حسناته ، ان للانسان بجانب ماتذكره عنه لفضلا ينم علي كرم جوهره، ونوراً يدل علي سمو

(١) المضارعة المشابهة

مصدره ، ألا تذكره انه قد قذف به من هذا العالم الى حماة الحيوانية، وسلط عليه من المقتضيات الجسدية والمطالب المادية، ومن المسولات النفسيه، والشهوات البهيمية مالو سلط بعضه على الحيوانات لناءت تحت آصاره ، وبادت ببعض آثاره (١)؟ ولكن الانسان بعد ان اضطلع بكل هذه الاعباء (٢) وقاوم ما تولده له من الارزاء، اخذ يفكر في وجوه التخلص منها، ووسائل التنزه عنها ، شعوراً منه بأنها لا تليق بكماله، ولا تتفق وما يحس به من جلاله ، فأعلن عليها حربا استجمع لها كل قواه ووسائله ، وما زالت الحرب بينهما سجالا الوفا من السنين، فتارة تصرعه وتلحقه بالكائنات السفلي ، وطوراً يصرعها ويلتحق بالملأ الأعلى ، وهو في اثناء هذه المعارك يحصل علماً ، ويزداد بالوجود فهما ، ليعود الى الكفاح اقوى عزما، ويخرج منه اكثر غنما

أفمن الانصاف أن يكره هذا الكائن ويحقر، أم أن يحنو ويعذر، ويشجع ويشكر؟

قال الهزار : لقد حولتني أيها الاستاذ من الازراء بهذا الكائن الى إعظامه ، ومن الحقد عليه الي حبه واحترامه، ولكن مابال افراد ممن يدعون انهم انتهوا من العلم الي غايته، ومن الفهم الي نهايته، يقررون ان المادة هي اول الوجود وآخره، وانها باطن كل شيء وظاهره، وان الانسان لا يمتاز عن الحيوان، الا بأنه أقبل منه للارتقاء، وأصبر في تنازع البقاء، وهم يهزأون بكل من يقرر غير هذه الاصول، ويعدون كلامه من الفضول؟

فقال البلبل : ان دعوي الوصول الي نهايات العلم، وغايات الفهم، وجدت في كل زمان ومكان، وأوت الى النفوس التي تنخدع بها من افراد الانسان، ممن لا يبصرون الا بأبصارهم، ولا يحسون الا بأعصابهم، ولا يفهمون الا بلغاتهم. وما قيمة بصر لا يرى اكبر قوة في الارض والسماء وهي الكهرباء، ولا يري أشعة رونتجن وهو يرسم بها

---

(١) ناء به الحمل ثقل عليه. والآصار جمع إصر وهو الثقل (٢) اضطلع بالشيء قام به . والاعباء جمع عبء وهو الحمل

الاحشاء، ولا يرى الشموس الا نقطا مضيئة وهي من الضخم بحيث لا تعد أرضنا بجانبها الا كالهباء، ثم ماقيمة اعصاب لاتحس بالأثير، وهو الموجود الكبير، الشامل لكل جليل وحقير، فهل يعجبون بعد ذلك ان لم يروا العالم اللطيف بأبصارهم، ولا يحسون به بأعصابهم ؟

فقال الهزار : ماأغلظ حجاب هؤلاء، ولكن كيف خلق العالم في نظر هؤلاء الفهماء ؟

فقال البلبل : الوجود في نظرهم عالم لانهاية له، فيه مادة أزلية أبدية، تجري فيه قوى الي غير غاية، فتؤثر في تلك المادة بغير قصد، فنشأت هذه العوالم منها اتفاقا ، وبلغت الي هذا الابداع عفوا

فقال الهزار : وكيف نشأت في نظرهم القوة العاقلة، في هذه العناية العامة الشاملة، وهل يعطي الشيء فاقده ، ويصلح الامر فاسده

فقال البلبل : ان هؤلاء لايتكلمون مثل هذا النظر العقلي، ولا يعبأون الا بالامر الحسي، فهم لايرون غير المادة فلا يقرون بوجود لسواها ، ويرون الحس ولا يرون موجده ، فيقولون بأنه يتولد من المخ ، على نحو مايتولد البول من الكلي والصفراء من الكبد

فقال الهزار : هذا قياس غريب، لايقول به لبيب، فالبول مادة والكلي مادة ، وليس بعجيب ان تتولد احداها من الاخرى، ولكن كيف يعقل ان تتولد القوة العاقلة في شرفها وجلالتها ، من المادة في عمايتها وجهالتها ؟

فقال البلبل انهم يرونها ملازمة للمخ فيقولون بأنها منه، ولا يتكلفون ان ينظروا لما وراء ذلك

فقال الهزار : ولكن علماء التشريح اليوم قد اثبتوا بما جربوه على مجروحي الحرب العامة ان هذا الرأى اصبح لايعول عليه

فقال البلبل : ان هؤلاء المتعالمين المتفلسفين لايعتدون بقول عالم الا اذا وافق مذهبهم ، فاذا لم يوافقه عدوه ممخرقا

فقال الهزار . ان العلماء القائلون بالروح اصبحوا اليوم يعدون بالالوف ، وقد

تطورت الفلسفة بتجاربهم من حال الي حال،والعالم اليوم في تطور جديد فاين ... ء من هذا الانتقال الذريع ؟

فقال البلبل : كل هذا لا يجديهم نفعاً،فهم يصرون على ماهم عليه ولو انقلبت ... على الارض

ولقد صرح بمثل هذه العبارات احد اهل البصر من العلماء المعاصرين لنا،وهو يدعي (كاميل فلامريون) في مناسبة المباحث الروحية التي اثبت بها الباحثون وجود عالم حي مدرك وراء هذا العالم مجرد عن المادة، فقد نشر كتابا بديعا أسماه (القوى الطبيعية المجهولة) جاء منه ما ياتي :

« ما أقل العقول المستقلة الحرة على سطح كوكبنا هذا،وما أقل الميل للاطلاع مجرداً عن مصلحة ذاتية . كأني بجمهور قرائي يقولون : اى شيء في هذا الموضوع يوجب الاهتمام ، أخونة (اى ترابيزات) ترتفع عن الارض، واثاثات تتحرك، وكراسي تنتقل من مواضعها،وبيانات تقفز،وستائر تضطرب،وطرقات تحدث بلا سبب معروف،وأجوبة تتوجه الي أسئلة عقلية،وعبارات تملي عكساً،وايدي ورؤس وأشباح تظهر،كل هذه من الامور التافهة،والهذيان الذى لا يصح ان يلفت نظر عالم من العلماء.وماذا عسي ان تثبته لنا تلك الامور حتي لو كانت حقيقية، تلك أشياء لاتفيدنا فتيلا

« أجل من الناس من قد تسقط السماء على رؤسهم فلا يتأثرون،اما انا فاجيبهم: ماذا تقولون ؟ ألا يعد شيئاً في نظركم ان نعلم ونبصر و نعترف بوجود قوي حولنا لاتزال مجهولة ؟ألا يعد شيئا يؤبه له عندكم ان ندرس طبيعتنا الخاصة وخصائصنا الذاتية ؟ ألا تستحق هذه المسائل ان تكتب في برنامج المباحث،وان تخصص لها ساعات من العناية ؟

« اني كلما فكرت فى هذا الامر دهشت من ان جمهور الناس يجهلون هذه المسائل كل الجهل، بينما قد عرفها ودرسها وقدرها ودونها منذ زمان بعيد جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة في هذه السنين

« ايه ايها السادة مهما بلغ من ضيق احكامكم فان قصر نظركم لا يصح ان يسري

على الكون، فقد علمتم بانه على الرغم منكم ومن كل العقبات التي تضعونها فان مركبة المعارف الانسانية ستتقدم الي ابعد مما هى عليه الآن، وستستمر متقدمة، وهي فائزة لامحالة بادراك قوي جديدة. مثل هذه المسائل كمثل ضفدعة جالفاني . فان الحوادث المضحكة التي تنكرونها تكشف لنا عن وجود قوة مجهولة، فلا أثر بغير مؤثر »

قال الهزار : لاشك فى ان هذا رجل متثبت يعطي المسائل حقها من الروية. ولكن ماهي حكاية ضفدعة جالفاني الذي يتخذها مثلا لهذه الظواهر ؟

قال البلبل : جالفاني هذا عالم ايطالي توفي في سنة (١٧٩٨) حدث له فى بعض سني حياته ان مرضت امرأته فقرر الطبيب من اغذيتها (حساء ضفادع)، وهنالك امر نأكلها ، فأخذت الطاهية تعملها لها وأتت بضفادع فهيأتها وقطعتها وعلقتها على القضب الحديديه ليا لكون البيت، فرؤيت تضطرب وتذهب وتجيء، فأُخبر العالم جالفاني بذلك، فشاهدها بنفسه وقرر ان لذلك علاقة بالكهرباء، واخذ فى درسها ونشر مباحث في ذلك ، فسخر منه كل علماء زمانه، وتعدي الاستهزاء به من الخاصة الى العامة حتى لقب بمرقص الضفادع . فرد عليهم بقوله ان استهزاءكم بي لا يمنع من اني أستكشف قوة من اكبر قوى الكون. وكان من اثر دؤوبه واستمراره ان وقف من اسرار القوي الكهربائية على ما ابتني عليه اليوم اكثر ما نشاهده من آثارها في هذه المدنية

واليوم يهزأ رجال بما يقف عليه الباحثون في الروح من تحرك الاخونة وارتفاع الكراسي، وحدوث الطرقات، وظهور الاشباح، فى جلسات التجارب بلا سبب طبيعى معروف. ويعدونه من الامور التافهة، التي لا تفيد الانسانية فيسأ لهم عن ذلك (كاميل فلامريون) بقوله : (ألا يعد شيئا فى نظركم ان نعلم ونبصُر ونعترف بوجود قوى حولنا لاتزال مجهولة ؟) وهو سؤال بعيد الغور فان ثبوت قوي عاقلة مجهولة وراء هذه القوى الطبيعية يقلب مدركات العلم المادى رأساً على عقب، ويؤسس الفلسفة على أصول جديدة ليست لها الآن، ويفتح للانسان مجالا ليس له حد فى عالم غيب عن مشاعره ألوفا من السنين، ولكنه يحن اليه بفطرته: لانه مآله بعد الاعوام القليلة التي يعيشها في هذه الارض على الحالة الجسدية

قال الهزار : ما احسن [illegible]

قال البلبل : انه اخصهم [illegible]

يتبجحون به، ويعدونه قد بلغ [illegible]

اصغر حادثة من حوادث هذه الحياة [illegible]

« الذي نعلمه من الانسان [illegible]

قيس بعد الشمس، وان نخترق الابعاد السماوية، [illegible]

لانزال نجهل انفسنا. والانسان كائن ثنوي (اي مؤلف من شيئين اثنين) ولا تزال هذه الطبيعة الثنوية سراً من الاسرار في نظره. نرانا نتذكر ولكن ماهو التذكر، لا يستطيع احد ان يجيب على هذا السؤال. ونرانا نمشي ولكن ماهو العمل [illegible] ؟ لايعرف احد ذلك. ارى ان ارادتي غير مادية، وانها من خصائص روحي غير مادية ايضاً، ومع ذلك فمتى اردت ان ارفع ذراعي ارى ان ارادتي تحرك اذني، فكيف تحدث ذلك، وما هو الوسيط الذي يتوسط لانوة [illegible] في انتاج نتيجة مادية؟ لا يوجد من يستطيع ان يجيبني عن هذا ايضا. بل قل كيف ينقل العصب البصري الي الفكر صور الاشياء الخارجية، وقل لي كيف يدرك هذا الفكر، واين مستقره، وما هي طبيعة العمل المخي؟ قولوا لي أيها السادة . . ولكنني فاني استطيع ان أسألكم عشر سنين ولا يستطيع اكبر رأس فيكم ان يجيب عن احقر أسئلتي » انتهى

قال الهزار : ماألطف مانسمع عن هذا العالم، لقد اجاد أيما اجادة، فهل هو فذ فى العالم الانساني ؟

فقال البلبل : لقد هب الانسان من نومه، واصبح الذين يقولون هذا القول الوفا من اقطاب العلم، بل لم يبق ممن لم يقل الا جماعه من خفاف الاحلام قمشوا مسائل منثورة من العلم اخذوها عن مغروري العلماء من اهل القرن التاسع عشر، فتراهم أحرص عليها من البخيل علي دراهمه، فيوهمون انفسهم والناس انهم من اركان الالمعية وماهم علي شيء غير حشو رث من طامّات القرون الخوالى

قال الوجدان : لما انتهي البلبل الي هذا الحد لم أطق الصمت، لما أصابني من هزة الطرب بما سمعت ، فنهضت رافعاً يدى الي فوق قائلا بصوت عال : سلاماً أيتها

الكائنات الجميلة ، المتدية في هذه الخميلة ، أنا ...

قال الوجدان : فتطلعت عن الامام حركة فجائية هي خفق اجنحة الطيور تتدافع هرباً، وتتخذ سبيلها في الجو سرباً (١) ، وماهي غير ثانيتين حتي لم يبق في الايكة غير صديقي البلبل . فصحت به رحماك أيها الصديق الحميم، فلا تدعني في العذاب الاليم

فصفر البلبل صفرة مونور، وقال من انت ايها المتجسس علي الطيور، المتربص لها بالشرور ؟

فقلت : رفقا ، فانا الوجدان ، صديقك منذ ازمان

فضحك البلبل وقال : اذكر اني كنت قابلتك متفلسفا، فمالى اراك اليوم متعسفا؟

قال الوجدان : فلما هممت بالجواب اذا به قد انقض علي كتفي فلما هممت بالقبض عليه، لتقبيله بين عينيه، انتفض فاستوي امامي رجلا ذا سمت مهيب، وشكل رهيب علي اكمل مايكون جمالا ووقارا وان كان قد جلله المشيب، ونالت منه التجاريب، وعليه ثوب فضفاض (٢) خالص البياض، وعلي رأسه قلنسوة فارسية، وفي رجله نعل عربية، فتهيبته ... فهمس الي (٣) واشار مسلما علي ، فتمالكت نفسي ... فقال بل انا الحكيم بن مرشد

قلت فكيف كنت بلبلا ، ثم انقلبت رجلا ؟

فقال : سل عما تستطيع ان تفهمه ، وما ينفعك ان تعلمه

قلت : هذا هو الذي اخذ بلبي الساعة

قال : فلا تعل حتي يهدأ روعك من روعته (٤)، وانتفض فانقلب بلبلا علي أيكته

قلت : رحماك ، لا تدعني في هذه الحيرة

فقال : سأقابلك المرة بعد المرة ، فترقبني كل اصيل وبكرة

قال الوجدان : ثم غاب عن بصري فلا ادرى أستحال الى ضياء، ام حجبه عني الهواء ؟

---

(١) سرباً اي يتتابع الناس فيه . وهو في الكلام اتخذت الطيور لها مسلكا في الجو (٢) فضفاض واسع (٣) همس ارتاح وبسم (٤) الروع القلب . والروعة الخشية

الوجدية الثامنة

حدث الوجدان قال :

خرجت في يوم رق نسيمه، وراق اديمه (١)، اسرح الطرف في بعض شوارع القاهرة، وأستجلي معاهدها الفاخرة، ومغانيها العامرة، واذا انا بطغام من الشبان، يتعقبون سربا من الحسان (٢)، وهم على اشد ما يكون من صبوة وخلاعة، ونهتك ورقاعة (٣)، يتمايلون كأنهم سكارى، وما هم بسكارى، ويصطخبون اصطخاب الحمر المستنفرة، فرت من قسورة (٤)، كل ذلك والناس يمرون بهم لا ينكرون عليهم، ولا تأخذهم نخوة الرجولية، لاننا قد ألفنا الخنى فلا نستكبره، وأنسنا بالاختلاط الادبي فلا ننكره (٥)، فما راعني الا رجل كبير الجثمان، قوي الاركان، عليه ملبس وطيلسان، كأنه من بلاد الافغان (٦)، اعترض اولئك الطغام الخالعين للعذار (٧)، فاستوقفهم بصيحة جبار، وكنت على مقربة منهم، فوقفت معهم، واذا به يقول :

ألهذا الحد ايها المفتونون، يصل بكم المجون (٨)، والي هذا المدى معشر السفهاء، تطوح بكم الاهواء، لقد ضارعتم الخنازير في خستها، وشاكلتم الحمير في بلادتها، ولا أعلم نوع الحيوان، فمنه طوائف تستتر عن العيان، في مثل هذا الشان، اما انتم ايها الانذال فلا تخشون رقيبا، ولا تعتبرون حسيبا، ولا تعرفون حدا، ولا تحترمون عهدا، يملأ احدكم بطنه، ثم يركب رأسه، فيطوف الأزقة كالكلاب الضال، يتلمس قمامة

---

(١) الاديم اصله الجلد المدبوغ وأديم اليوم معناه حالته الجوية (٢) الطغام اوغاد الناس الواحد والجمع سواء. والسرب جماعة الظباء (٣) الصبوة جهالة الفتوة. والرقاعة الحماقة (٤) يصطخبون يتصايحون. والمستنفرة الشاردة او المشردة. وقسورة اي اسد (٥) الخنى الفحش في الكلام (٦) الملنسوة من اغطية الرأس. والطيلسان كساء كان يلبسه العلماء والخاصة (٧) العذار الحياء وخلع العذار معناه تهتك (٨) المجون اي الهزل وهو مصدر مجن يمجن اي كان لايبالي بما قال وما فعل

ينسممها، او خزية يتقحمها (١)، بئس افرادامة انتم، فليت لها بعددكم ثيرا نا تفيدها في زراعها، وتعينها على معيشتها، ولكن هب انكم حيوانات عجم، فما لهؤلاء المارة يرونكم، ولا يصفعونكم، بل ما لاصحاب هذه الدور لا يخرجون اليكم بالنعال، يمنعوكم ان تمروا ببيوتهم على هذه الحال، أليس لان الجميع ساووكم في هذه المخزيات، على أقدار مختلفات، فلا يزعجهم النظر الى ماهم فيه، ولا تتحرك لهم نخوة لتلافيه. بقيت طائفة بريئة جعلت الحوقلة معاذها، والاسترجاع ملاذها (٢)، واهمة انها متى انكرت المنكر بقلبها، امنت سؤال ربها. فالمقيم بين ظهرانيكم كالمقيم بمهاب السموم، او النازل بمساقط الرجوم (٣)، ثم صاح بهم تالياً قوله تعالى: «أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي تمور، ام أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير» (٤)

ثم تركهم والخزي يتغشاهم، والدهش يتولاهم، وانصرف والعيون تشيعه، والقلوب تتبعه، والناس بين معجب ببيانه، ومتعجب من ثبات جنانه، وقوى ايمانه

قال الوجدان: فلم أشأ ان تفوتني هذه الفرصة السانحة، والنهزة اللائحة، فتبعته حتي اجتاز النيل، وسار صوب الاهرام نحو ميل (٥)، فبلغ مني التعب حده، ولم اجسر ان اخطب وده، وكأنه ادرك ما بي فالتفت اليّ، واجال نظره فيّ، ثم تبسم وقال: أتعبت ياوجدان؟

فأدهشني ان اكون معروفا لديه، بقدر ما سررت من وصولي اليه، فسلمت عليه باجلال، فرد باحسن ما يقال، ثم هش وبش واظهر من العطف ما يظهره الصديق

---

(١) ركوب الرأس كناية عن الامعان في الضلال. والقمامة الزبالة. ويتقحمها اى يخوضها (٢) الحوقلة حكاية قول لاحول ولا قوة الا بالله. والاسترجاع حكاية قول انا لله وانا اليه راجعون. والمعاذ الملجأ ومثله الملاذ (٣) المقيم بين ظهرانيكم بصيغة التثنية اى في وسطكم. والسموم الريح الحارة التي تهب نهارا. ومساقط الرجوم محال سقوط الشهب الراجمة (٤) تمور اى تضطرب. وحاصباً اي ريحاً شديدة تحمل التراب والحصباء. وصوب الاهرام اي جهته

القديم ، لصفيه الحميم ، نازددت عجباً على عجب ، وجرأة عليه فقلت ·
يذكرني مولاى ولا اذكره ، فهل ان يعرفني بنفسه فاشكره ؟ فقال :
لقد جبت معك الاقطار ، وتدارسنا المعالم والآثار ، ألا يبقى لديك من كل هذا ذكرى ؟

قال الوجدان : فأخذت أتفرس فيه لعله كان من اصحابي المطربسين ، فصار من المتفلسين ، او كان ممن يحلق فصار من الملتحين ، واخذت اجهد ذاكرتي ، فلم أهتد لاثر له في زاويه منها ، فخجلت والله ان اقر له بعجزى عن ذكراه ، فتظاهرت له بسرورى من اتيانه ، وشدة شوقي الي اجتلاء محياه ، رجاء ان اذكره بعد لامة ، فتنقشع عني تلك الغمة (١)

ففطن لها فضحك واطال ، ثم قال لك العذر على كل حال ، وستعرفني في غير هذا المجال ، فهل لك فيما هو خير من ذلك ؟

قلت ماهو ؟

قال : ان تشهد مؤتمر الحيوانات ، فقد تآمرت ان تجتمع في بعض هذه الفلوات

قلت : هذا من احب الاشياء اليّ

قال : ولكني أخشي ان تراك على صورة آدمية ، فتصيبك ببلية

قلت : لقد لقنني شيخى سر الاستحالة ، فسأنتفع به في هذه الحالة

قال : لا يمكنك ان تنتفع به في حضرتي ، ثم امسك بيدي ، وأمرني باغماض عينيّ ثم فتحهما ، فوجدتني بعيراً ذا سنام عال ، وعنق طوال (٢) ، فأخذت أجرب كلماتي لأستحيل الي ما كنت عليه فلم تفد ، فضاق صدرى وتطلبت صاحبي لأرجوه أن يحيلني الى سيرتي الاولي فلم أجده ، وضقت من حالتي ، وتمنيت لو لاقيت منيتي ، وكنت كلما نظرت الي عنقي الطويل ، وسنامي الثقيل ، وجلدي المجعد ، ووبري الملبد ، وفكرت اني لامخلص لي من هذه الحال ، ازداد انقباض صدرى ، وشكوت الامر من نفسي

---

(١) اجتلي الشيء نظر فيه . والاة الحين . والغمة الغم (٢) طوال اى كثير الطول

وبينا انا على تلك الحال ، واذا بطوائف من الحيوانات اخذت تفد ارسالا ارسالا (١)، ما بين أسود وفيلة، ونمور وثعالب، وخيل وحمير، ودجاج وسلاحف، وخراف وذئاب، وعقارب وثعابين، فربضت ذوات المخالب والانياب في الصدر، ثم تلتها ذوات الحوافر، فذوات الخفاف فسواها وسواها، حتي غصت الفلاة ، ولم يبق في سعف نخيلها سعفة ليس عليها عشرات من مختلف الطيور، فلما استقر بها المقام، وانتهي تبادل السلام ، ساد السكون ، وشخصت العيون

اما انا فحشرت نفسي في زمرة الابل فبركت حيث بركت ، وبينما نحن على تلك الحال، واذا بأسد مفتول السواعد، مطرور الانياب، تقدم الي نشز من الارض وسط هذا الجمع، فأنصت اليه كل سمع (٢)، فزأر زأرة ردد صداها التلال، ثم بسمل وحمدل وقال :

يامعشر الكائنات المباركة، لقد علمتم ماحدانا لعقد هذا المؤتمر اليوم (٣)، واني معلنه رسمياً ورافع به صوتي عالياً، هو جور الانسان ، وبغيه على الحيوان

لم يكف الانسان، ان يأكل الحيوانات، اذا عدم النبات، وخاف الجوع ، فتراه يسرف في سفك دمها فينحرها تحية لقادم، او تيمناً بعروس (٤)، او تظاهرا بجوده، ولا يبالي مع ذلك بما صنع، كأنه لم يأت عملا يحتمل الكلام، فضلا عن الملام، فإن لفته لافت الي السرف، في أكل الجيف، دهش من أن يكون في العالم من يفكر في هذه الصغريات ، واعتبر المناقشة فيها من الترهات (٥)

قال الوجدان: هنا ثارت ثائرة الثيران والاغنام، وتلاها صنوف من ذوات الاجنحة كالاوز والدجاج والحمام ، وتقدموا للاسد فقالوا :

أيها الملك علا مجدك، وعم رفدك (٦)، اقد رضينا ان يرتع الانسان في اجسادنا

---

(١) ارسالا اي جماعات جمع رَسَل بفتح الراء والسين (٢) مطرور الانياب اي محددها . والنشَز بفتحتين المرتفع من الارض (٣) حدانا ساقنا (٤) التيمن هو طلب اليمن بضم الياء اى البركة (٥) الترهات بضم التاء وفتح الراء مشددة الطرق المتشعبة من الطريق الكبير وتستعار للاباطيل (٦) الرفد العطاء

حتي يحكم الله في امرنا، ولكنه يذبح بعضنا امام بعض، فيسوقنا شراذم شراذم، فيتسلط على الواحد منا رجل متين، بيده سكين، فيتله للجبين، ثم يقطع منه الوتين (١) ونحن اليه ناظرون، فلا ندري أيحسب اننا جمادات مجردة من الشعور، ام هو الذي رانت على قلبه الشرور (٢)؟

قال الوجدان: فسمعت ضجة في المؤتمر، ترنح لها الشجر، وماجت منها ذوات الصوف والوبر، ثم حدث سكون، فاندفع رئيس المؤتمر يتمم خطبته فقال:

أحل للانسان صيد البر والبحر دفعاً للحاجة وتداركاً للضرورة، الى حين، ولكن الانسان ظن ان هذه الاباحة تحل له كل محظور، فأخذ يصطاد الحيوانات تلهياً، ويفتك بها تسلياً، فان هجس بقلبه هاجس ازعجه (٣)، او ألم به هم شغله، فأول ما يخطر بباله ان يجوس خلال الغابات، فيورد بعض كائناتها موارد الممات، فيعود وقد سرّي عنه الهم وزايله الغم. فانظروا يارعاكم الله الي هذه النفوس الجامدة، والقلوب الجاحدة، واعجبوا حين تسمعون ان هذا الانسان يقرر في فلسفته انه المختص بالرحمة والحنان، دون اصناف الحيوان، ثم هو يسفك الدماء لهواً ولعباً، ويقتل الاحياء سروراً وطربا...

هنا ثارت ثائرة المهي والغزلان، واضطربت الطيور على الافنان (٤)، وصاح الجميع واغوثاه من قسوة الانسان، يرى الوالدة منا وهي تزق صغارها (٥)، او تحضن بيضها، فيقتلها ويهلك بقتلها عدة احياء بعد ان يذوقوا الوان الآلام بضعة ايام وقد حظرت عليه صيد اكثرنا الحكومات، وأرته وجه الضرر في هذا الافتئات، ولكن هيهات

ثم اندفع الاسد يتم خطبته فقال:

صرّح للانسان ان يستفيد من اصواف البهائم واوبارها فيشاركها في دِثارها

---

(١) تله صرعه يقال تله للجبين يريدون صرعه. والوتين عرق يجاور للقلب هو المسمي الآن بالأورطي (٢) رانت غلبت (٣) هجس اي خطر. والهاجس اي الخاطر (٤) المهي جمع مهاة وهي البقرة الوحشية (٥) تزق صغارها اي تطعمهم بوضع منقارها على مناقيرهم

وشعارها ولكنه شط في هذا الباب فأخذ يوسعها اهلاكاً، ليتخذ جلودها أكراكاً، زيادة في الترف ، لاخوفامن التلف

ثم امعن في هذه البوائق فعدا على الفيلة لأنيابها،وعلى النمور لفرائها (١)، وعلى النعام لريشها،وعلى الايائل لقرونها، وعلى السلاحف لعظامها، وهلم جرا ممالا يحصي كثرة،ولوكان هذا العدوان تداركا لخطر، او اتقاء لضرر، لكان له بعض العذر، ولكنه انما يبيد هذه الاحياء ليجعل من قرونها تحالي لعصيه،ومن عظامها خرزات لحليه، وغير ذلك مما لا يضره ولا ينفعه

ولقد تواعدنا على الاجتماع هنا اليوم بعد ما نفد الصبر،وضاق الذرع ، لنبحث عن حيلة تنجينا من شر هذا الكائن الظلوم،العاتي الغشوم،الذى ستر بدعواه المدنية، وجه كل دنية،واخفى تحت ظاهر من الدين، خبث الشياطـين، وعدوان المردة والابليسين (٢)

قال الوجدان : فما اتم الاسد خطبته حتي نهض افعوان كأنه سارية سفينة (٣)، تلوح على عينيه آثار الضغينة، وقال ايها الرئيس الرأي عندى ان نتألب على ابادته لتخليص العالم من اساءته (٤)

فنهض قرد قد جرب، وأكل عليه الدهر وشرب وقال :

من تقصد بالابادة ايها الافعوان،أهذا الانسان الذي يحول القطن المندوف، الي نار تحصد الصفوف، ويجبل الماء السلسال، الي بخار يرفع الجبال، فان كنت تستعظم عليه مخالب الاسود الضارية، وانياب الأساود المردية (٥)، فقد استعظمت عليه ما لا يحرك له ساكنا، ولا يزعج منه آمنا، لاتساع مجال احابيله، وبعد مدى افاعيله. اماترى اخواننا الميكروبات، علي دقة اجسادها، بعد ان بحثت فى اجتياح الملايين من افراده،

(١) الدثار الثوب الذى فوق الشعار . والشعار هو الثوب الذي يلي البدن . والبوائق جمع بائقة اى المهلكات . والفراء جمع فرو (٢) المردة بفتحتين جمع مارد (٣) الافعوان ذكر الافعى (٤) نتألب اى نجتمع (٥) الأساود جمع أسود وهو الثعبان العظيم فيه سواد

حتي كنا نعتقد بانها ستكون القاضية على عناده، وقمت الآن تحت [illegible]
عليها أسلحة عرفانه، فابتكر ما يبيدها ويلاشيها، ولم يرف الله فيها، فهل [illegible]
في مهاب غضبه، ومساقط شهبه، نعوذ بالله من هذا الرأي الفائل، وكم [illegible]
من الغوائل (١)

فوقف نسر حيال الاسد، كأنه من ذرية لُبَد (٢)، وقال لقد وجدت حلا
وسطا، وارجو ان لا يكون شططا (٣)، اري ان نهجر المواضع التي يسكن [illegible]
ونرحل الي ما ليس له عليه سلطان، من مجاهل الاودية، وأغفال الانتظار [illegible] (٤)

فصاح به القرد قائلا : مهلا يا أبا المنهال، لقد نصحت بالمحال (٥)، أبقي [illegible]
في الارض موطيء قدم لم يرده هذا الانسان، ولم يجس خلاله [illegible]
فأين المهرب وقد ملك أبعد قعور البحار، وقبض على الهواء السار، وسيطر على
القوى الطبيعية فصار يصرفها على ما يحب ويختار ؟

هنا نهض بعير قشعم، كأنه من ذرية شدقم (٦) فقال يامعشر الاخوان، لقد
صبرنا علي جور الانسان قرونا، أفلا نصبر عليه قرنا آخر ؟

فصاحت الحيوانات من جميع الجهات، وماذا يكون من بعد ذلك القرن ؟

قال الجمل : سيتم له تسخير الهواء، ويزداد سلطانا علي الماء، ويدين له المغناطيس
والكهرباء، فلا يحتاج للخيول تجر مركباته، ولا للثيران تعمل في زراعاته، ولا للابل
تحمله في صحراواته

هنا صاحت الحيوانات البيتية والحملان، صيحة ياس وأشجان، نادبة خلودها
تحت ارهاق الانسان (٧)

فقال الجمل : مهلا أيتها الكائنات المستضعفة، فوالله لتنتصرن لكم العلوم والفلسفة

---

(١) الفائل اي غير السديد (٢) لبد بضم ففتح اسم آخر نسور سليمان عليه السلام (٣) الشطط تجاوز الحد. الاغفال من الارض جمع غفل وهو ما لا عمران فيه (٤) ابو المنهال كنية القرد (٥) قشعم اي مسن (٦) وشدقم فحل مشهور من ابل العرب ينسبون اليه الابل الكريمة (٧) ارهاق اي ظلم

أبشروا فقد تايدت نظريات النباتيين،وظهر خطر اللحم للعلماء الفزيولوجيين، بما لايدع مجالا للمكابرين،وانتشر مذهبهم بين الكثيرين،ولا يمضي غير جيل،حتى يعم الناس الا القليل

فارتاح المؤتمرون لرأي أبي صفوان ، وهنأوه على ما أوتي من البيان (١)

وبينماهم يطهرون اعجابهم بما سمعوا،واذا بجلبة أوتومبيلات أقبلت تهد الارض هدا ، فذعر المؤتمرون ، وابذعروا وهم يجمحون (٢)

قال الوجدان : مرت الاوتومبيلات الى حيث تقصد وبقيت انا وحدي في تلك الفلاة،لااستطيع الرجوع الى داري على صورة جمل،ولا أجد من يهديني الى وجه العمل.فبينما انا اجيل الطرف في تلك الفلاة اذلاح لي شخصان،فقلت اقصدهما لعلهما من اهل العرفان،فلما قاربتهما سمعت احدهما يقول.يا بشري هذا جمل،فقال الآخر: سر على مهل ، والا جفل ، ثم اخطمه على عجل

قال الوجدان : فلما قربت منهما،قلت سلام عليكما،فوالله ماسمعاها حتى اخذا يركضان ، لايلويان ، فلم يسعني الا تركهما

وبينما انا اكاد اتميز من الضيق،واذا بصاحبي في الطريق،فصحت به،وأرقلت اليه (٣)،وبسطت له ما لحقني من الضيق مما أنا فيه

فتبسم وقال : أشهدت المؤتمر ، ووعيت مادار فيه من العبر

قلت : نعم ولكن أضاع رشدى ما أنا فيه ، فمن عليّ بتلافيه

قال : اغمض كريمتيك ففعلت . فقال : افتحهما . فرأيتني بشراً سويا فحمدت الله ملياً (٤)، ثم اقبلت عليه لأقتبس شيئاً من نوره،فما كدت ألقي عليه بصرى حتى رأيته انتفض فصار بلبلا بديع المنظر،جميل المطهر، فتأملته فاذا هو أستاذى الحكيم بن مرشد ، فاستشعرت الادب ، وقلت أتأذن لي ان أسألك ؟

قال : قد دار الفلك ، وهجم الحلك ، والرواح خير لي ولك

---

(١) ابو صفوان كنية الجمل عند العرب (٢) ابذعروا تفرقوا.ويجمحون يسرعون
(٣) الارقال سير سريع للابل (٤) ملياً أي ساعة من الدهر

قلت : فعدني ان أجدك فى معهد

قال : هيهات ان انقيد. ولكن التمسني حين تتروح ريح الحكمة، وتدناح كسب غمة ، ثم اختفي عن عيني فلا ادرى اين ذهب ، فعدت وانا فى اشد العجب

الوجدية التاسعة

قال الوجدان :

أجمعت وأصحاب لى في يوم العروبة (١)، علي اداء رياضة محبوبة، فاخذنا نتشاور في اى الرياضات أجلب للأنس، وأروح للنفس، فانتهي رأينا الي ان نمتطى صهوة النيل (٢)، لنستفيد من نسيمه البليل، فاكترينا زورقا جمع بين جمال المظهر، وكمال المخبر، فلما هممنا بالنزول اليه، لاح لنا علي الشاطيء شيخ ذو سمت مهيب (٣) قد جلله المشيب ، عليه عباءة يمانية ، وعمامة كردية، فقال احدنا يلوح لي ان هذا الرجل غريب الوطن ، بعيد عن الاهل والسكن ، ولا يخلو ان يكون من أولي الفهم ، والضاربين في العلم بسهم، فهل لكم ان نكرم وفادته علي بلادنا، بدعوته الي مصاحبتنا ؟

فقلنا اصبت شاكلة الكرم (٤) وحققت بانك اكرم الامم، فتول امر دعوته وتلطف فى تكرمته

فما لبث ان تقدم اليه وسلم عليه ثم قال له : يلوح لنا ايها الشيخ انك غريب ونود

---

(١) العروبه يوم الجمعة. قال سيبويه العروبة يوم الجمعة ومن قال (عروبة) اى بدون أل فقد أخطأ. وبلغ ذلك يونس بن حبيب فقال اصاب سيبويه (٢) الصهوة مقعد الفارس من الفرس اى ظهره استعيرهنا لسطح البحر (٣) السمت اصله الطريق والمحجة ويستعار لهيئة اهل الخير فيقال : مااحسن سمت فلان (٤) الشاكلة الطريقة والمذهب والخاصرة

ان نقف من بلادنا على كل عجيب، فهل لك ان نصاحبنا اليوم في نزهتنا النيلية، لتقف على بعض مالدينا من المواهب الطبيعية ؟

قال الوجدان : فتهلل وجه الشيخ بشرا ، واخذ يوسعنا شكرا، ثم مال نحونا، ونزل الي القارب معنا. فلما استقر بنا الجلوس، وارخيت للزورق القلوس (١) سمعنا ضيفنا يقول :

باسمك اللهم وعلى بركتك ، وفي حفظك وكلاءتك، نستدبر قراراً أرضياً ، ونستقبل سيالا لجيا (٢) فارعنا بعينك، وراعنا بعونك، واجعل هذه النزهة لنا مقرونة بنفحة من نفحاتك، وآية من آياتك، حتي تجد الروح منهما ما يجد الجسد، فنحظي لكل منهما منك بمدد

قال الوجدان : فأدركنا ان الرجل واحد من اهل الكمال ، فتوقينا ان نخرج امامه عن ذلك المجال ، ولبثنا معه كأننا فى مسجد ننتظر التأذين، لا فى رياضة نفتنّ في ضروبها مرحين (٣)، وكأنه شعر بهذه الحال ، نخشي ان نرميه بالاثقال، فنظر الينا وقال :

يا ايها الاخوان الاجاود، السباقون الى المحامد (٤) ، لقد وصل الىّ بركم، فوجب علىّ شكركم، وحق علىّ مدى الدهر ذكركم، فأبدأ بتقديم نفسي اليكم، وعرض حالى عليكم. انا الجوّال بن حمدان، من اهل خراسان، حببت اليّ السياحة فلم أدخر لها وسعا، ولم أضق بها ذرعا، لم أدع قطراً الا زرته، وما غادرته حتي رزته (٥)، وقد أداني التطواف الي بلدكم عاصمة العلوم الدينية، وملاذ اللغة العربية، فأسعدني الحظ اليوم بوجودى معكم، فأنا الآن لكم ، فأعطوا الرياضة حقها من اللهو والمرح ، باركم بما سنح (٦)

(١) القلوس جمع قلس وهو حبل السفينة (٢) كلاءته اي حفظه. من كلأه الله يكلأه كلأ وكلاءة وكلاء اى حفظه وحرسه. واللجي نسبة للج وهو معظم الماء (٣) نفتن. يقال افتنّ فلان في حديثه وخطبته اخذ فى فنون من القول وجاء بالافانين . مرحين اى شديدي الفرح والنشاط (٤) أجاود اي كرام جمع جواد (٥) رزته اي جربت ماعنده وخبرته (٦) سنح عرض او تيسر

فقال احدنا ان خير اللهو عندنا ان نتذاكر الادب، ونخوض في لغة العرب

فقال ضيفنا واني ماحدا بي اليكم، الا اخذ العربية عنكم(١)، فما احسن ما يرويه الرواة عندكم لشعرائها المقدمين ، وأدبائها المتقدمين ؟

فقال واحد منا : من احسن ما نرويه قول ابي الطيب في خلق المرأة :

اذا غدرت حسناءُ وفّت بعهدها · فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة · وان فرِكت فاذهب فما فرْكها قصد (٢)
وان حقدت لم يبق في قلبها رضي · وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما · يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

فصاح صديقنا الجوّال قائلا : ما أعجب هذه الحال، ان لدينا شاعرة تدعي أم الطيب قالت من هذه القافية ما يصح ان يُعد في باب توارد الخواطر، كوقوع الحافر على الحافر

قلنا ماذا قالت ؟

قال : قالت في خلق الرجل :

اذا رجل يَغْدِرْ لكوفي بعهده · فمن عهده ان لا يدوم له عهد
وان رام عشقا كان اقوي صبابة · وان رام هجرانا فما هجره قصد
وان يحتقد لم يبق في قلبه رضي · وان هو يرضي لم يصب قلبه حقد(٣)
كذلك اخلاق الرجال وربما · يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

قال الوجدان : فعجبنا من تخالف الشاعرين، في الحكم على الجنسين ، وأخذ بعضنا ينتصر لأولهما، وبعضنا يؤيد ثانيتهما، وجرّنا الجدال الي مطارح شتي من العلوم النفسية، والفلسفة الاجتماعية. ثم بدا لنا ان ننزل الي الشاطىء لترويض الاعضاء ، والتمتع برؤية الزروع في الفضاء، فأطللنا من مظلة الزورق فاذا بنا في وسط لجة من البحر ليس لها نهاية، ولا لمداها غاية، واذا بالزورق يشق الامواج بقوة ، كأنه مسير

---

(١) حدا بي اى ساقني (٢) فرِكه يفركه أبغضه . قيل هو خاص ببغضة الزوج لزوجه تقول فركها وفركته (٣) يحتقد اى يحقد

بآلة مخبوءة، فبلغ منا الدهش حده، واصاب منا الهلع جهده، فنظرنا الى صاحبنا الجوّال، فاذا به على ما نحن عليه من الحال، فتكاثرنا على المجدافين لنقف الزورق عن الاندفاع، وبذلنا في ذلك المستطاع، فلم يزدد الا سرعة، ولم نحن نحن من ذلك الا رَوْعة على روعة، فأيقنا بشدة الخطر، وجلسنا ننتظر القدر. وبينا نحن كذلك اذ لاحت لنا جزر منثورة، فيها مرافىء معمورة، فحيي فينا الامل، وقلنا عسى ولعل، ولكن مما زاد هلعنا اننا كنا نمر بتلك الجزر مرور البرق الخاطف، او الريح العاصف، فلا نكاد نشارف جزيرة منها، حتى نبتعد عنها، وعلمنا من كثرتها وصغرها انها جزر الارخبيل اليوناني، ثم لاحت جزر كريد فمالطة فسرديذيا فكنناريا ثم اجتزنا مضيق جبل طارق وكان كل ذلك بسرعة تفوق كل تقدير، ولا يبلغ مداها التعبير، فخرجنا الى المحيط ونحن على أسوأ حال، من الهلع والاجفال، فلاحت لنا القارة الامريكية بشواطئها الجبلية

فقال صاحبنا الجوّال: اسمحوا لي ايها الاخلاء، ان ألقي بنفسي الى الماء، فأحاول ان اصل الى الساحل، وانجو من هذا الخطر الغائل

فقلنا: ان كنت تحسن العَوْم فليس عليك لَوْم

فصاح على بركة الله، وألقى بنفسه في اليمّ، ومرق من الزورق مروق السهم، وغاب عن اعيننا فلا ندري أبلغ معتصما فنشب، ام خانته قواه فعطب (١)، ويممنا نحن نمخر في البحار، بسرعة كوكب سيّار، حتى انتهينا الى الاوقيانوسية، وجزنا جزائرها القصية. وما هي الا لحظة حتى رأينا زورقنا قد رسا الى ساحل صخريّ، كأنه سفح جبل ..لي، فتباشرنا بالنجاة، وعاد الينا الامل في الحياة، ونظرنا في ساعاتنا فاذا نحن لم نقض . هذه السياحة السحيقة اكثر من عشرين دقيقة، فبلغ منا الدهش حده، وكاد أثبتنا يفقد رشده، فاخترقنا الجبل الى ما دونه، فاذا بنا في صحراء جرداء، وفيفاء مرداء (٢)، فسرنا فيها فلاح لنا بناء، حواليه شجر وماء، فقصدناه متلهفين، لعلنا نجد فيه بعض

---

(١) نشب به تعلق به (٢) جرداء اي لا نبات فيها. والفيفاء المكان المستوى من الارض. والمرداء الرملة لا تنبت

الآدميين، فاذا به مسجد من اجمل ما وقعت العين عليه، مما انتهت الفخامة اليه، قد بني من المرمر الناصع، وجصص بالشيد اللامع (١)، ولكنه على فخامته ودقة صناعته، قد خلا من النقوش والتلوين، فكان على ما أمر به الدين. وقرأنا على بابه هذه الكلمة «هذا مسجد الغرباء»، فعجبنا من وجود هذا البناء العظيم، في هذا المكان العقيم، وبينا نحن نجول فيه، ونتأمل إحكام مبانيه، واذا برجال قد اقبلوا شتي وجماعات، ووحدانا وزَرافات (٢) وهم من اجناس مختلفات، فمنهم هنديون وصينيون وعرب وجركسيون وتتريون وبخاريون، وسودان وسوريون، ومغاربة ومصريون، واقوام آخرون، لم نعرف اجناسهم، ولم نتحقق اصنافهم، فاصطفوا على اتم حالات الوقار، يلهجون بالتوبة والاستغفار، فجلسنا في صف من الصفوف، واخذنا نجيل انظارنا في هذه الألوف، فلم ندرك كيف وصلت الي هذا المكان السحيق، ولا هديت اليه من اي طريق، ثم ماهي الا لحظة حتي أذن المؤذن بالصلاة، فقاموا لتأدية سنتها، ثم جلسوا ينتظرون الخطبة، فلم تمض الا ثوان حتي صعد المنبر رجل وضيء الطلعة، جليل الهيئة، فسلم علي المصلين، ثم جلس ينتظر التأذين، فلما تمت هذه الرسوم، وحان الوقت المعلوم، نهض نهضة سحبانية، وقال بلهجة خالصة عربية :

الحمد لله علي ما اسدي من الآلاء، وافاض من النعماء، حمداً يستوجب لنا المزيد من امداده، ويستدر عليه شآبيب ارفاده (٣)، وأصلي وأسلم علي خاتم انبيائه، وصفوة اصفيائه، محمد الذي ارسله رحمة للعالمين، وهدى للسالكين، ونوراً للمستهدين، وعلي آله وصحبه اجمعين، ما خطب خطيب وأناب الى الله منيب

(أما بعد) فياعباد الله زنوا أعمالكم بقسطاس مستقيم، وقدّروها تقدير حكيم، فانها غراس تضعون بذورها، وستجنون ثمارها، اما حلوة المذاق جنيّة، وإما مرة الطعم وبية (٤)، فابذروا ما تطيب لكم ثمراته، وتخف عليكم تبعاته، والله ولى الصالحين

---

(١) الشيد ما طلي به الحائط من جص وغيره (٢) شتي اي متفرقين جمع شتيت. وزرافات جمع زَرافة وهي الجماعة من الناس (٣) شآبيب جمع شؤوب وهو الدفعة من المطر. والارفاد العطايا (٤) وبية مخففة عن وبيئة اي موبوءة

عباد الله : الحياة مضمار تتسابق فيه جياد الهمم الى غاياتها ، فتندفع مقودة بما اكتسبته من حالاتها، فمن سقط دون الغاية فلا يتهمن القدر ، ولا يعمَين عن العبر. فانما يصل الي غايته من أعد لها عدتها، واتخذلها اهبتها، من علم يكشف له عن مكانها، وحكمة تبين وجوه امكانها . فمن خبط خبط العشواء أخطأه أقرب المطالب اليه، فما بالك بما يبعد عليه ؟

اذا كان احدكم لا يبلغ امنيته من صحفة طعام، الا اذا سعى لها سعيها، وأعدلها من جيد طهيها، فكيف يتوق الي مرتبة من مراتب الحياة الكاملة، او درجة من درجات المدنية الفاضلة، بغير علم يقيمه علي طريقها، وأصول تؤديه الى تحقيقها ؟

ألا ان الكمال جنة معجلة، وسعادة مكملة ، ولكن دونها طريقا محفوفا بصنوف القواطع لا يجتازه احدكم الا بدليل من العلوم العالية، ومشكاة من الاخلاق السامية، ودافع من همة لا تعرف الملل، ونهمة لا يقنعها نهل دون علل (١)

اتقوا الله في انفسكم ايها الناس فلا تقصروها علي المطالب الحيوانية، والرغائب البدنية، فتنحطوا عن مستوي العجماوات، وتنزلوا الي اسفل الدركات، واعلموا ان بين جنبي كل واحد منكم مجموعة قوي لو يستخدمها فيما أعدت له عرجت به الي عوالم من الكمال يقصر عنها التعبير، ويرتد عنها الطرف خاسئا وهو حسير

يبحث احدكم عن مال يصيبه، ليحصل على عيش يستطيبه، فيخوض غمرات الخبائث لتحصيله، ويتسكع في متائه الشبهات لتحليله، وربما هلك دون قليله، فضلا عن جليله، وبين احناء ضلوعه كنز لا تفني ذخائره، ولا تنضب موارده، من قوى تسخر له الوجود، وتخضع له كل موجود، فيتحكم في اختيار ما يليق بجلاله، ويلفظ ما يعدو علي كماله، فما اقصر الهمم عن بلوغ هذه الغايات القريبة، وما أعمي البصائر عن هذه المواهب العجيبة

الدين لا يكلفكم لتحصيل هذه القوي ان تخوضوا النيران، او تسكنوا الغيران، او تنقطعوا عن الاهل والخلان، ولكنه يكلفكم ان تعلموا انكم مظهر أسماء الله وصفاته،

---

(١) النهل الشرب الاول والعلل الشرب الثاني

وخلفاؤه في مخلوقاته، وان قلوبكم هذه مهبط اسرارها، ومشرق انوارها، وان روحكم مستمدة منه، ومتنزلة عنه، لتعملوا علي مقتضي هذا العلم من الدأب علي ما يظهر اسراركم، ويجلّي انواركم، بطلب العلم والعمل به، والتعطش للكمال والتعلق بسببه، وترك التفريط والافراط، والهرب من كل مايؤدى الي الانحطاط سواء في الميول النفسية، او في الخصائص العقلية، وهو بعد ذلك يتولاكم فيأخذ بأيديكم الي مقاوم الكمال الصوري والمعنوي، ومراتب الجلال الجسدي والروحي، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا

يقول قائل قد عرفنا فلاناً وفلاناً، فقد كانا ممتلئين ايماناً، وجاعلين وردهما حديثاً وقرآناً، فعاشا مستضعفين، ثم ماتا ولم يتركا أثراً أو عين، فلماذا لم يصلا الي ما تصفه من المراتب العلية، في حالتيها الصورية والمعنوية؟ ثم ماذا يكون من أثر أمة يستن افرادها بسنتهما، ويعملوا علي شاكلتهما؟

الله اكبر هذه شبهة يدلي بها اعداء الدين، ويقصدون بها تشكيك المؤمنين يقال ان فلاناً وفلاناً عاشا مؤمنين مستضعفين، وماتا ولم يخلفهما أثر ولا عين. نعم لأنهما لم يعملا بما طالبهما به الدين، من دوام طلب العلم والعمل به، والأخذ من كل كمال بسببه، والدأب علي استشراق نوريهما، والاجتهاد في استثارة قوى روحيهما

اقول العلم ولا اقصد به مجرد العلم بالشئون الدينية، فانه يكفي منه ما يصحح لك الامور العبادية، ولكني اريد بالعلم علم الكونيات واسرارها، والروح ومطالع انوارها، فبالاول يبلغ الانسان من بسطة الحياة الارضية ما يكفيه الحاجات الجسدية، ويمكنه من بلوغ ابعد شأو من المدنية المادية، وبالثاني يطل علي حظائر القدس فيستمد من نوره الالهي، وروحه العلي، ما يعرج به الى أوج الكمال النفسي، وذروة الجلال السماوى

ولا اريد بقولي الاخلاق العالية ان يقبع احدكم في كسر داره قبوع القنافذ، وينقبض في زاوية مصلاه انقباض العواجز، لا يقوم لحاجته الا كما يقوم من اثقلته الادواء، وبهظته الارزاء، لا يتكلم الا همساً، ولا ينظر فيما حوله الا اختلاساً، قد انصرف همه عن كل مطلب يتطلع اليه الاحياء، الا ركعات يعددها، والفاظ يهمهم بها، وسبحة

طويلة يحملها

كلا، ان الاخلاق العالية، ان يكون احدكم على مثل ما يكون عليه الأروع الاريحي في نفسه وبين قومه، على حال يجمع بين ادب النفس وعزتها، ولين العريكة وشدتها، فيصلح ان يكون لغيره في المكارم اسوة، ولسواه في حسن السيرة قدوة

فراقبوا الله أيها الناس في انفسكم، وحاسبوها قبل ان يحاسبكم، وانتهزوا فرصة المهل، قبل ان يحال بينكم وبين العمل، بحلول الاجل، فتسألون عن مواهبكم التي أهملتموها، كما تسألون عن ذنوبكم التي اجترحتموها

قال الوجدان : فنسيت لجلالة هذه الخطبة، ما أنا فيه من الكربة، ثم نزل الخطيب فأم هذا الجمع المحشود، وصلى بنا صلاة ما صليت مثلها فى حياتي خلف امام، ولا شعرت بما شعرت به فيها من الالهام، فلما سلم وانتهت رسوم الصلاة نهض القوم كلهم فتصافحوا تصافح الاخوان، وتعانقوا تعانق الخلان، ثم اخذوا ينصرفون، وفاتنا ان ننظر الي اين يذهبون، فبقينا في المسجد نتأمل في بنائه، ونعجب من مهارة بنائه، وكرم الآمر بانشائه، حتي لم يبق في المسجد غيرنا والخطيب، فتقدمنا اليه، مسلمين عليه، فرد علينا التحية، ونفحنا بالدعوات الزكية، ثم قصصنا عليه قصتنا فأظهر الارتياب، وقال ان هذا لعجيب عجاب، فاسمحوا لى ان ارى ذلك الزورق السحري، الذي قطعتم عليه البحر اللجي، الي هذا المكان القصي

قال الوجدان : فذهبنا به اليه، فلما عرضناه عليه، أظهر الدهش والحيرة، واطال فى إعمال الفكرة، ثم نزل اليه وتبعناه، وما كدنا نغشاه حتي انساب انسياب الحوت فى الماء، واندفع اندفاع الشهاب فى السماء، فقال لنا الخطيب لقد فعلتم فعلتكم، ومو هتم علي حيلتكم. فلنا والله ما علينا في هذا الامر من لوم، فانج بنفسك ان كنت تحسن العوم، قال معاذ الله ان اتعرض للخطر، فلا نتظر معكم احكام القدر

قال الوجدان : فما هي الا سويعة حتي صرنا فى البحر الابيض المتوسط فتباشرنا بالنجاة، واخذنا نحمد الله، ثم ما مضت الادقائق حتي مررنا من مصب رشيد، الي نيلنا السعيد، فلما شارفنا القناطر الخيرية، وقربنا من القاهرة المحمية، التفتنا فلم نر الشيخ الجليل، فتحققنا انه سقط في النيل، فاشتد حنيننا اليه، واخذنا نترحم عليه، وما كدنا

حتي سمعنا صفرة بلبلية و نغمة شجية فالتفت فاذا بصديقي البلبل النجيب، فحييته تحية الحبيب ، وقلت لقد أبدعت هذه المرة فى الاعاجيب. فأنت والله الحكيم بن مرشد، وأنت خطيب مسجد الغرباء ، ولكن ماسم تلك الخزيرة ، ومن أين أتت تلك الجموع الغفيرة ؟

فصفر صفرة مَرَح وقال : كفاك اليوم مارأيت، فاذا التقينا حدثتك بما اشتهيت، ثم اندفع فى الجو اندفاع الشهاب ، وتركنا دهشين من هذا العجب العجاب

الوجدية العاشرة

قال الوجدان :

قصدت ذات يوم حلوان ، لأسرّي عن نفسي بعض الاشجان، ومن هنالك امتطيت صهوة كُمَيْت يعبوب، وأخذت أجول فيما حولها من السهوب (١). كان هذا في معمعان الشتاء، والبرد في عنفوان الفتاء ، فراقني ذلك الهواء المدفأ بأشعة الشمس ، المواتي لاهواء النفس ، فأمعنت السير غير حاسب لتقلبات الجو حسابا ، ولا متخذاً لأفاعيله أسبابا ، وبينما انا اداول في تلك الفيافي بين الخبب والتقريب (٢) وأختبر ما بلغه فرسي من الترويض والتهذيب، واذا بالسماء قد تلبدت بالغيوم، والامطار قد آذنت بالهجوم، فأجمعت الرجوع على الادراج، دافعاً حصاني الى الاهماج (٣)، غير ان تهاطل الغيث حال بيني و بين النظر، فخشيت ان ارتطم في الخمر ، او أتردّى في بعض الحفر (٤) فوقفت أرتاد لي ملجأ يعصمني من الماء، فلم

---

(١) الصهوة ظهر الحصان . والكميت الفرس الذي خالطت حمرته سواد ، واليعبوب السريع الجري. والسهوب الفلوات (٢) الخبب والتقريب نوعان من سير الفرس. الاول ان يستقيم تهاديه في جريه ويراوح بين يديه، والثاني ان يرفع يديه ويضعهما معاً (٣) الاهماج اقصي مايكون من ركض الفرس (٤) الخمر ما يسترك من أكمة او شجر . وأتردّى اي أقع

أجد غير مغارة في تلك الانحاء (١). فقصدتها على عجل، ثم دخلتها على مَهَل، فرأيتها فسيحة الجوانب، طويلة المسارب، فلم أر من الحكمة ان أطمئن دون ان ابلغ طرفيها، تفاديا من ان يكون قد كمن فيها بعض الضواري، من قطان البراري، فسرت مستعيذاً برب الفلق، من شر ما خلق، فكنت كلما سرت لاحت مسارب، وتفرعت مذاهب، فحرت فيما اصنع ولكني امعنت المسير. فلاحت لي عن بعد أشعة شمسية، فقلت قد انجلت البلية، فرجعت أدراجي. لا ُمتطي ِهملاجي (٢). فاذا بالحال على ما كانت عليه. واذا بالغار قد تسرب الماء اليه، فعدت لما كنت قصدته. من سبر غور الملجأ الذي دخلته (٣)، حتى اذا وصلت الى مكاني الاول، وجدت الاشعة لم تتحول، فعدت الى باب الغار ثانياً. فرأيت المطر لا يزال هامياً (٤)، فعجبت من هذه الحال، التي تمثل المحال، وآليت على نفسي ان انتهي لمساقط تلك الانوار، لاقف على ما وراءها من الاسرار، فأمعنت السير مجداً، وقد ألم بي الدهش جداً، حتى قطعت نحو ميل. في ذلك السَرَب الطويل (٥)، فانتهيت الى ُفوّهة رأيت منها الشمس في رائعة النهار، ولم أجد على الارض من أثر للامطار، فزاد دَهشي مما رأيت، وكدت ارجع الى حيث اتيت. الا اني تجلدت حباً في استطلاع الخفيات، وخرجت الى تلك الفلوات. فاذا انا في موامي يضل فيها الوهم، ويحار في تصورها الفهم (٦)، وحرت بين ان اورد انحاءها اوأؤوب. فدفعني حب الاستطلاع على الدؤوب (٧)، فما سرت فيها غير قليل، حتى لاح لي ظل ظليل. ونهر يشبه النيل (٨)، فقصدتهما محفوزا بدافع العجب، وان كنت مثقلا بالريب (٩)، فلما قاربتهما تبينت غابات فيحاء. ورياضاً غناء (١٠)، وغدرانا

(١) الاحناء جمع ِحنو اي الجانب (٢) يقال فرس ِهملاج اي سريع العدو (٣) الغور العمق (٤) هامياً اى هاطلا (٥) السرب بفتحتين الحفير تحت الارض (٦) موامي جمع َموماة او َموماء الفلاة التي لاماء بها ولا انيس (٧) الدؤوب مصدر دأب على الشيء اى استمر فيه وامعن (٨) الظليل ذو الظل يقال: مكان ظليل وظل ظليل اي دائم وقيل على المبالغة (٩) محفوزاً مدفوعا (١٠) فيحاء واسعة. وغناء الروضة الكثيرة العشب لحفيف الريح فيها

من الماء النمير، وتحف بها انواع الازاهير (١) فراقني هذا المظهر الجميل، ونويت ان أتفيأ ظلالها لأقيل (٢)، الا اني ما كدت اصل اليها، حتي رأيت على دوحاتها من أنواع الاطيار، ماتحير الانظار، ويبهر الافكار، ما بين بلابل وقماري، وهداهد وكراكي، وحمائم وغربان، وطواوس وعقبان، ومالا يحصيه الا معاجم علم الحيوان، وهي ذات الوان تعجز الشاعر، وتعي المصور الماهر، فقلت يالله ما أجمع هذه الايكات لملكات الهواء، وأين عشاق الطيور من هذه الاشياء. الا اني ما كدت أقرب من مدخلها حتي صمدت لي أسراب من النسور، وأخرى من البزاة والصقور، فراعني منها انها من ضخم الجثمان، بحيث يستصغر بجانبها الانسان، فلزمت مكاني، وهلعت مما دهاني، فأحاطت بي احاطة السوار بالمعصم، ثم تقدم الي منها نسر قشعم (٣)، فسألني بلهجة تشف عن الكبرياء، وتشعر بما وراءها من البلاء، قائلا: من أنت أيها الآدمي، ومن هداك الى هذا المكان الخفي، قلت رحماك ياأمير النسور، وحامي هذا المكان المعمور، اني لم أغش مدينتكم لشر نويته، ولا لكيد بيّته. ثم كشفت عما جري لي لم اكتم منه حرفا، ولا تعمدت لحقيقته صرفا، وختمت ذلك بقولي: هذه قصتي ألقيها اليك، بارك الله فيك وعليك، فدعني اعود الى حيث جيت، ولك ان لا أبوح بهذا السر مابقيت

فقهقهت النسور مما قلت قهقهة استهزاء، قائلة متي عهد من بني آدم الوفاء! ثم مازاد قائدهم على ان قال سر خلفي الي حيث اريد، واياك ان تحيد، فأطعت أمره على الرغم، وسرت يحدوني الوجل والغم، فاخترق بي من الغابات والايكات، ما يعد من عجائب الموجودات، وقد عمرت افنانها بمختلف الطيور، وانواع الوكور (٤) فاتخذ كل جنس منها قسما لا يشاركه فيه سواه، ولا يحله الا اياه، وكنت كلما مررت بطائفة منها صاحت صيحاتها العادية، ورشقتني بألفاظ سخرية، فكنت أسمع بعضها

---

(١) النمير الزاكي من الماء والحسب أى الكثير. والازاهير جمع أزهار (٢) لأقيل اى لارتاح وقت القيلولة (٣) قشعم اي مسن (٤) الوكور جمع وكر وهو عش الطائر

يقول : « أنعم بك من صياد، لقد هداك للفرائس هاد » وبعضها يقول : « نهنئك بالظفر والاقدام، أيها الفاتح الـمقام » (١) وبعضهم يصفر صفير المرح وهو يقول: «لا يغرنكم تواضعه واستخذاؤه الآن، فانه يفكر في ان يجعل مدينتكم خبرا لكان» وبعضها يضرب بأجنحته صافراً. ويقول ساخراً: «احنوا رؤوسكم لهذا الجسور، فقد فتح مدينة الطيور »

قال الوجدان : فلم ازل امشي خلف ذلك النسر الهائل، وانا عرضة لكل هازيء من الطيور وهازل، حتي انتهيت الى ميدان قد أظلته الادواح، وعطرته الازهار بأريجها الفيّاح، وفرشته الاعشاب ببساط اخضر، وزركشته الانوار (٢) بطراز أزهر، فخيل لي فيه اني وسط بهو من أفخم ما شيدته الصناعة، وأحكمت ابداعه (٣)، فالتفت واذا في صدره قد تجثم نسر من ضخام النسور، كأنه في مكانه ملك وقور، وعن يمينه ويساره عدة من امثاله، تمثل مجلس الحكم في جلاله، ومن خلفهم جماهير قائمة كالجنود، تزيد في جلال هذا المحفل المشهود، وعلي ما يحيط بتلك الباحة من الدوحات من مختلف الطيور عدد لا يحصيه حاسب، ولا تستقصيه كاتب، كأنها نظارة تشهد المرافعة في قضية (٤) وتترقب صدور حكم في جنية، وقد ساد السكون، وشخصت العيون، فقدمني النسر حتي وقفني حيال القاضي، وعرضني للتقاضي، فلما وقعت عينه عليّ، توجه بكلامه اليّ . وقال :

كيف تجرأت علي انتهاك حرمة هذه المدينة، باقتحامك معاقلها الحصينة، واى دافع دفعك لازعاج أمننا، وتكدير صفونا، أما كفاكم معاشر الآدميين ان توغلوا فيمن يساكنكم منا قتلا وتعذيبا، لا تخافون حسيبا، حتي جئتم تزعجوننا في مخابئنا، وتقلقوننا في مأمننا ،

قال الوجدان : فقلت ادام الله دولة مولاى القاضي، وأنصف بعدالته المتقاضي،

---

(١) القمقام بفتح القاف الاولي وضمها السيد الكثير العطاء (٢) الانوار جمع نوْر وهو الزهر المسمى بالنوار (٣) البهو هو المسمي الآن بالصالون (٤) النظارة المتفرجون والجنية بوزن عطية الجناية

لقد وصلت الي هذا المكان اتفاقا، وما قصدت لراحتكم اقلاقا

فتبسم تبسم المرتاب، وقال ياهذا العجب العجاب، لقد عشنا ألوفا من السنين في هذا المكان، لم يزعجنا فيه انسان، فكيف اتفق لك مالم يتفق لسواك، والله لنقين جراء ما جنته عليك قدماك

ثم التفت عن يمينه باهتمام، وقال ليبسط المدعي العام. وجوه الاتهام

فنهض عند ذلك بازيّ أشهب، وهو حَنِق مُغضَب، وأخذ يجلّي التهمة عليّ فقال:

هذا يامولاي القاضي واحد من الذين يزعمون ان الله خلق الارض لهم، وجعل كل مافيها ملكهم، لا ليقوموا فيها بحقوق خلافته، واعباء وكالاته، بما يقتضيه العدل الطبيعيّ، والحق الالهيّ، ولكن بما توحيه اليهم شهواتهم، وتوجبه عليهم نزغاتهم، فتراهم يستثمرون الارض لا لتكفيهم المؤونة، وتمكنهم من المعونة، بل ليبغي بعضهم على بعض، ويستأثر دونه بكل عَرْض(١)، فيشبع القوى حتى يَتْخم، ويحرم الضعيف حتى يَعْدَم، فترى في كل مدينة من مدائنهم افرادا قد اكتنزوا الملايين، وجمعوا الوف الفدادين، بوسائل شايعة، لا تسوغها شريعة، فصرفوها في نقع غلة شهواتهم. وبل صدَي رعوناتهم(٢) يعتدون على الاعراض ولا يرعوون، ويتهتكون حرمة الآداب ولا يخجلون (٣)، ولم يكفهم ذلك حتى امتد بغيهم على من يساكنهم الارض من صنوف الحيوانات، وانواع العجماوات. فأوغلوا فيها قتلا، واذاقوها من انواع التعذيب ويلا، وكان اشد انواعها بلاء بهم الطيور، فحبسوا بعضها في الدور، وعرضوا البعض الآخر للذبح والتنور، ولوكان ذلك منهم لدفع متربة او اتقاء مسغبة (٤)، لقلنا الجوع كافر، وكان لهم منا عاذر، ولكنهم يأتون ذلك الى الحد الذى يضر بصحتهم، ويفضي الي هلكتهم. ومما يزيدنا من قساوتهم عجبا، انهم

---

(١) العرض المتاع (٢) الغلة العطش ونقع الغلة هو ارواؤها. والصدي العطش (٣) يرعوون اي يرتدعون والرعوى الارتداع (٤) المتربة هي الفقر الذى يلحق صاحبه بالتراب. والمسغبة الجوع

يقتلوننا لهواً ولعباً، ويجعلون إفناءنا لسرورهم سببا

وقد فاق هذا المتهم بني جنسه في الظلم بغشيان مدينتنا، والوقوف على ملاجئنا، ليعود فيخبر قومه بما هدى اليه، وعثر عليه، فلا يمضي يوم او بعض يوم، حتى يتراكض الينا غواة القوم، فيسلبونا العافية، ولا يتركوا منا باقية (١)

لهذا نطلب من المحكمة ان تنزل بهذا الواغل أشد العقاب، لاتقاء ما يستتبعه إقلاته من التباب (٢)

قال الوجدان: فما أتم المدعي خطبته، حتى جاشت الطيور على الاغصان، وصفرت لها صفير استحسان (٣)، وما بقي الا ان يلفظ القاضي بالجزاء، فأتعرض للبلاء فقلت أيد الله دولة الطيور، وخلد ملكها مدى الدهور، وحاط كيانها بقادة النسور، اني رجل ممن ينتمون للحكمة يكشفون اسرارها، وللاخلاق يرفعون منارها، وللانسانية يبنون آثارها، ويزيلون عارها، ولكم كتبت أستعطف عليكم القلوب، وأرد اليكم حقكم المسلوب، ولن يزيدني الوقوف على مدينتكم، الا مضيا في تأييد قضيتكم، والدفاع عن حقيقتكم، فان شئتم ان ...

قال الوجدان: فقطعتني عن الاتمام جلبة تصم الآذان، احدثها الطيور على الاغصان، علامة على السخط والشنآن (٤). وما لبث ان قام المدعي العام فقال:

ان ما يقوله المتهم يا حضرات القضاة من الخدع التي مرن هذا النوع على استخدامها، بعد ان بلغ الغاية من إحكامها، فهو يقسو ويلين، ويتنمر ويستكين ويعتز ويذل، ويكثرُ ويَقِل، على مقتضى الاحوال والشؤون، وبحسب ما يودان يكون فان رأيتموه قد زهد حتى تبلغ بالاعشاب، ونسك حتى لازم المحراب، فلا تأمنوا ان تروه قد طمع حتى لا تشبعه الممالك، وفسق حتى لا تزعه المهالك

وهذا المتهم يريد ان يوهم المحكمة بأنه امام من الائمة، وزعيم من زعماء الحكمة، وولي من اولياء الفضيلة، وعدو من اعداء الرذيلة، لكى تعطفوا عليه، وتستنيموا

---

(١) العافية الصحة التامة (٢) الواغل هو الذى يغشي القوم بغير اذن (٣) التباب الهلاك. وجاشت اضطربت (٤) الشنآن العداوة

اليه ، حتي اذا افلت عد افلاته ضربا من ضروب المهارة . وعاد فشن علبكم الغارة

قال الوجدان : فسمعت ضجة بين الافنان ، تشعر بالاستحسان . وظهر على الغضاة ميل للادانة ، وفاء لحق الامانة . ولكني اظهرت الثبات . ولم أنثن امام هذا الاعنات فقلت :

من الجور ان يعم هذا الوصف الشائن . نوعا فضله الخالق على كل كائن . وخصه بجميع المحاسن . اجل انا لا انكر ان فينا افرادا بل طوائف الفوا العصيان والدعارة . وعدوا الاحابيل مهارة . واتخذوا الشرور تجارة . ولكن ذلك لا يقدح في ان منا المصطفين الاخيار . والصالحين الابرار . والعاملين على احياء معالم العدل . ورفع منار الحق والفضل . فهل تسمحون لانفسكم ، وانتم تنشدون الانصاف وتكرهون الاجحاف ، ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ؟

قال الوجدان : فنهض المدعي العام وقد احمرت عيناه ، وضاع نهاه (١) وقال : ياحضرات القضاة العدول ، والجهابذة الفحول . انتم أجل من الانخداع لهذا المين المزوّق ، والباطل المنمق ، (٢) فان هذا النوع شديد المحال ، كثير الاحتيال ، فلا يكسرن شر تكم بنفثاته ، ولا يسحرنكم بتر هاته . فعجلوا عليه العقاب ، وقتم للصواب

قال الوجدان : فنظر القاضي لمن حوله من العقبان . وقال : لقد بدا من أمر هذا الآدمي ما يوجب المظنات ، وليس في عدلكم سعة للاخذ بالشبهات ، فهل تقبلون ان انزله على حكمي وأبوء دونكم باثمي ؟

قالوا : قبلنا ماتقول راضين ، لازلت فينا من الموفقين

قال الوجدان : فسرعان ما نشر جناحين ، كشراعي سفينتين ، وتقدم اليّ فحملني بمخلبه وطار ، فايقنت بالبوار ، فصحت به رحماك ، وانا أسبح معه في السكاك (٣) فضحك مغربا ، ثم قال متعجباً ، لشدّ ما أضر بك الجولان ، ياوجدان ؟

قلت : امّا وقد عرّفتني ياأمير العقبان ، فلا أيأس من الامان

---

(١) النهي جمع نُهيَة اي العقل (٢) المين بوزن العين الكذب (٣) السكاك هو الهواء الملاقي السحاب

قال: لابأس عليك الآن، وسأحملك الي ضاحية حلوان

قلت : وما أدراك باسمي أيها الطائر الكريم، بل الحاكم الحكيم ؟

قال : ما أشد مابلغ منك حب التنقيب،وطوّح بك الي كل امر مريب

قال الوجدان : فسكت خجلا،وان كنت أودان يجيبني عجلا،وماهي الادقيقتان حتي بلغ بي ضاحية حلوان،وقال هذا حصانك فاذهب بأمان

قلت : شكراً لك علي مامننت،وثناء علي ما تفضلت،فأنشدك الله ما انت ؟

قال : ألست كما تري عقابا من العقبان؛قلت أيبلغ العقبان هذا الحجم؟ ويكون لهم مثل مالك من الفهم ؟

قال : ألا يجوز ان تكون فى منام ، وان ماتراه حلم من الاحلام ؟

قلت : كيف يكون ذلك وانا حاصل علي كمال الشعور،ومميز بين الظلام والنور

قال: أتستطيع ان تثبت لي انك يقظان،وان مارأيته وتراه صحيح ببرهان ؟

قلت:اليقظان يرى الامور جلية،ويحس بترابطها وتسلسلها علي حال طبيعية،ولكن النائم يري مرائي غير مترابطة ؟ فهو كخابط ليل، يمر من غور الي نجد ، ومن نجد الي غور، علي غير نظام،ولاسبق المام (١)

فضحك العقاب مغربا،ثم قال مداعباً:وما دليلك الحسي علي انك لست تقرر ما تقول وانت نائم،وعلي ان لافارق بين مرائي اليقظان وحلم الحالم؟

قال الوجدان : فصحت به رحماك رحماك لقد جعلتني في ارتيابك، فأي دليل حسي استطيع ان اقدمه،وآمن ان لاتهدمه ؟

فقهقه العقاب ملياً، ثم انتفض فصار بشراً سويا ، فما كدت ان أتعرفه حتي انتفض ثانية فصار بلبلا ياقوتياً،فتأملته فاذاهو والله استاذى الحكيم بن مرشد.فقلت هو أنت، شكراً لك علي مافعلت،فلولاك لهلكت

ثم قلت : هل لك في مزاملتي بقية نهارى،لأطفيء بحكمتك ناري ، وأخفف آصاري ؟

---

(١) الغور الارض المنخفضة.والنجد الارض المرتفعة

قال : لقد تركت قومي ينتظرون اوبتي، ليقفوا على حكومتي (١)، ثم ودعني متحفزاً للطيران، معولا على الرجعى للاوطان ، فقلت ان كان ولا بد فواحدة ؟
قال ماهيه ؟
قلت : ان تثبت لي اني است بنائم ، وان مارأيته ليس بحلم حالم
قال : انتظر حتي تفيق من نفسك، وترجع الى حسك، ثم مرق مروق السهم ، واندفع يسابق الوهم، فركبت حصاني وقد انضاه السغب، وعدت مزوداً بالعجب

الوجدية الحادية عشرة

قال الوجدان :

قصدت مدينة الفيوم ، وقد ساورتني الهموم(٢)، رجاءان اسري عن نفسي بعض كروبها، برياضة أفتن في ضروبها. وأحمل الجسم على ركوبها (٣) فوصلتها بكرة يوم رق هواؤه، وصفت سماؤه، فأخذت اجول فيما اشتهر عن غياضها، وطاب ثمره من رياضها(٤)، فلم تزدني تلك المناظر الشائقة، والمظاهر الرائقة، الا انقباضاً على انقباض، وامتعاضاً على امتعاض، فقلت في نفسي ياسبحان الله ، ماذا عسي ان يخلصني من مزعجات الهواجس، آنق من هذه النفائس، ثم عدت فقلت ان الله في هذا الامر لحكمة، سأحمد معها هذه الغمة، فخرجت اطلب الصحراء، مستعيضاً عن الرياض بالخلاء، فما سرت غير ميلين ، حتي لاح لى شبحا انسانين ، فقصدتهما فاذا بأحدهما اعرابي قد جلله المشيب ، وثانيهما غلام عليه برد قشيب (٥)، فسلمت عليهما ، وجلست قريبا منهما، فبعد ان احسنا ردالسلام، سمعت الشيخ يقول للغلام: « اى بني ان من أصول المدنية، التي نحن أممها علي ظهر الكرة الارضية، وحفظة

---

(١) حكومتي اى حكمي (٢) ساورتني هاجتني (٣) ضروبها انواعها (٤) غياضها جمع غيضة وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء (٥) القَشيب الجديد

أسرارها من دون الروية، ان تنفي سريرتك وعلانيتك، وتتحد معارفك وسيرتك ، فلا يتنادى فيك ناطق بشمال، ولا يتعاكس منك مجهود وامل، فان حدث لك شيء من هذا التنافر، وخشيت ان تختلط امامك الامور، فحكم العقل فيما شجر من هذا الخلاف، واعط العلم قسطه من الاعتراف، فما حكم به العقل واقره العلم فامضه ولو خالف هواك، وباين مشتهاك، غير ناظر لما قيل او يقال، ولا آبه بما موهه الخيال، ويغرر به الجهال، فان العقل اهدى هاد للانسان، والعلم اقوم سبيل للاحسان. فان تنكبت هذه الخطة هجم بك الهوى على الضلالات، وخبط بك في متائه العمايات، وقذف بك من مضطرب فتنة، الى منزلقات محنة، وجذبك من مفازة غي، الى هاوية بغي، وما زال بك حتى يفقدك ميزة وجودك، فتصبح وبينك وبين احكام عقلك حوائل، ودونك ودون مقتضيات علمك غوائل. فتجدك مضطراً للسير على غير هدى، مدفوعا لما تعتقد انه سدى، او فيه ردى، ولا تزال كذلك حتى ينتهي وجودك وانت لا بعقلك اهتديت، ولا بعلمك اقتديت، احط من الحيوان في غفلته ، وادنى من الجماد في رتبته، آسفاً على حياة امضيتها حائراً، وجهاد طويل خرجت منه خاسرا «نحن حفظة المدنية الانسانية، والحاملين لامانتها العلية، لا يجدر بنا ان نكون من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »

قال الوجدان: طرقت سمعي كلمة المدنية، وتأملت في الذي زعم انه من امتهادون البرية، فاكبرت هذه المزاعم من احد اعراب البرية ، ليس عليه شيء من دلائلها الصورية، فهو مشتمل برداء، وملتحف بكساء، وعلى رأسه عمامة لطيفة، وبيده مخصرة خفيفة، وفي رجليه نعلان صفيقان، على نحو نعال العربان ، وهذه الهيئة لا تشف عن علم ولا صناعة ، ولا تجارة ولا زراعة ، فأي مدنية يعتبر نفسه من حفظتها ، واية علوم يعدقومه من امتها، فحملني حب الاطلاع على مخاطبته، للوقوف على حقيقته

فقلت له : ماذا تقصد ايها الشيخ بقولك المدنية، في صيحتك الابوية ، لعلك تريد بها الاخلاق اللطفة، والآداب المهذبة، تفرقة بينها وبين الخشونة البدوية ،

وجشوبة الحياة الخلوية (١)

فهز رأسه متبسما ، ثم قال منهجاً :

« أريد من كلمة المدنية أكمل ما يسعه معناها ، وأتم ما يشمله مغزاها »

فقلت له بلهجة تنم عن الاعتراض ، وتنم عن الامتعاض :

انها تسع العلوم الانسانية على ما وصلت اليه في الايام الحاضرة ، والصناعات اليدوية على اكمل احوالها العصرية ، وهي ذلك الحدث الفخم ، والابداع الذي جد ، الذى تمثل في اكمل الصور ، لاهل القرن التاسع عشر ، ثم بلغ علمه في القرن العشرين ، فهل انتم من ذلك على شيء ؟

قال الوجدان : فشعر مخاطبي بأني انكر عليه ذلك لسذاجة [illegible] إعرابه ، فنظر الي نظرة استخفاف ، وقال يا لضيعة الانصاف ، أتظن يا هذا ان المدنية وقف على من لبس السراويل المضيقة ، والمعاطف المزوقة ، واحاط عنقه بالاقمشة المنشاة ، ودلي على صدره الاربطة المغشاة ، وحلي اصبعه بخاتم براق ، وأحاط خصره بنطاق لايطاق ؟

ان ظننت هذا فقد ركبت الشطط ، ومنيت بالغلط ، ووقفت مع الظواهر فقط

اعلم ياهذا ان الناس من المدنية على حالين ، فبعضهم اخذوا بقشورها ، وتمسكوا بشرورها ، وهؤلاء لايعنيهم الا ما تنتجه مصانعهم من فرش منضدة ، وآنية مرددة (٢) (٣) وألبسة مفوفة ، واغطية مزخرفة (٤) ، ولا يهمهم بعد ذلك حكم لعمر بمضرتها ام نفعها ، وأمر بالاخذ بها ام دفعها ، فالعلم لديهم مقصور على دور العلماء ، وبيوت الحكماء ، ليس لهم منه الا ثمراته المادية ، ومموهاته الصناعية ، اما ما يأمر به من الاخلاق الفاضلة ، والآداب الكاملة ، فهم بمعزل عنه ، وبنجوة منه (٥) ، وغاية ما يعنون به انتقاؤهم عبارات مرققة ، وجمل منمقة ، وهيئات في الحديث والنداء ، واشارات تتقي [illegible] والكلام ، اصطلحوا عليها [illegible] ، واتخذوها لتمويه [illegible] حتى احدهم

---

(١) الجشوبة الخشونة (٢) متجهما اى باسر الوجه عبوس (٣) مرددة اى مملسة (٤) مفوفة اى مخططة (٥) بنجوة منه اى بمعزل عنه

بعد ذلك ان كان نتفهم له و جملته، خارجا علي العلم و حملته، وغريبا عن الحق وشيعته.

والبعض الآخر اخذ من المدنية بحقيقتها، وعول منها علي زبدتها، وائتمر من العلوم بأوامرها. وجال منها في سرائرها، فقام علي السمت الذي رسمته، وأخذ بالمحصول الذي بلغته (١)، فبلغ رتبة نقصر عن تصورها الافهام، ولا تحيط بجلالتها الاحلام

ياهذا، ماالفائدة من ترة في التعبيرات، وزخرفة الهيئات، وتمويه المشروبات والمأكولات، اذا كان كل ذلك مخالفاً لما قرره العلم ونتيجه، ومعاكسا لمقتضاه ومؤيداته. أبأمركم العلم ان تمنعوا الهواء الطلق عن اجسادكم الضعيفة، بهذه الالبسة الكثيفة، التي لا يسمح ضيقها للرئة بأداء وظيفتها ولا للاحشاء بالجري علي سننها، أكانت المدنية في نظركم اصولا مهلكة، وعلومها سموماً موبقة، ام انتم الذين لا تأخذون الا بظواهرها، ولا تعولون الا علي مظاهرها ؟

ياهذا، ما قيمة هذه المدن الشاهقة القصور، والشوارع المتلألئة في النور، والمركبات الغاديات الروائح، والسيارات السوانح والبوارح (٢) اذا كانت اعراضكم منتهكة، واخلاقكم مبتذلة، وآدابكم منحطة، واعوالكم ضائعة، ونفوسكم عمرتها الهواجس، وصدوركم عششت بها الوساوس، ونياتكم فاسدة، واهواؤكم متغلبة، وشهواتكم متحكمة، ومجتمعاتكم بؤرات فسوق، وبيوتكم مهابط عقوق، وانتم بين هذه العوامل اشباح تحركها الشهوات، وتتقاذفها المخريات، وتتحكم فيها الغفلات، فأي مدنية بها تفاخرون، واي علم عليه تعتمدون ؟

قال الوجدان سمعت منه هذا الكلام، فخيل لي اني في المنام، فقلت له: من اي البلاد انت يرحمك الله ؟

قال : من المدينة الفاضلة

قلت : لم اسمع بهذا الاسم من قبل، وقد قرأت علم تخطيط البلدان، وطفت ارقى المدن في العمران

---

(١) السمت الطريق (٢) السوانح من الطيور التي تذهب عن اليمين. والبوارح التي تذهب عن الشمال

قال : ان شئت اوصلتك اليها الساعة ، فوقفت على ما فيها من البداعة ،

قلت : ان فعلت كان لك الفضل ، وعليّ الشكر

قال الاعرابي : ان لي ناقة نجيبة اسمها عجيبة تعرف الطريق اليها وتدل العين عليها ، فارتحلها وخلّ لها الزمام ، توصلك الى باب المدينة بسلام

ثم نادى بأعلى صوته يا عجيبة . فحضرت مجيبة ، فاذا بها شمردلة شملال (١) ، فوثق بها في الترحال ، فأنختها ، ثم امتطيتها . فقال لي سر على بركة الله وحفظه . فشكرت له جميل عنايته ، واثنيت على مروءته ، وسارت الناقة بين الرسيم والذميل ، حتى جاوزت نحو ميل (٢) ، ثم اندفعت تنهب الارض نهباً ، وتخترق الهواء ، ولما اشتدت عليّ مصادمة الهواء ، سترت وجهي بغطاء ، فلم أعد أرى ما حولي من الاشياء ، ثم احسست بأنها عادت الى الهوينا ، فكشفت عيني ، فاذا انا بين رياض زاهية ، وحدائق باهرة ، فتأملتها فاذا هي على نسق لم تقع على مثله العين من الجمال ، وحسن النسق ، في بقعة فسيحة من الارض لا يحيط به الطرف ، تتخللها شوارع قد اكتنفتها الاعناب المختلفة الالوان (٣) ، وقامت فيها الآلات الكهربائية ، مقام الحيوانات الزراعية ، وقسمت في داخلها الى تقاسيم هندسية غاية في الابداع ، ونهاية في حسن الاختراع ، وقد أينعت شجراتها ، وتضوّعت زهراتها ، وطابت ثمراتها ، حتى خيل لي انني في وسط الجنان لا في مزارع لبني الانسان . فعجبت ان تكون البساتين التي تكتنف المدائن ، على هذا الطراز الفني ، فسرت في احدى تلك الشوارع الزاهرة ، فلاحت اسوار المدينة الشاهقة فتأملتها فاذا هي كأمنع اسوار المعاقل تراصت عليها المدافع ذات الفوهات الواسعة ، لم اسمع بمثله في مخترعاتنا الرائعة . فلم يسعني الا ان ارجل وعمدت الى ناقتي فعقلتها ، ثم تركتها وسرت فلاح لي باب لم أر مثله فخامة . قد احاطت الجنود داخله وامامه . وكلهم على زي صاحبنا الاعرابي ، فلما وقعت انظارهم عليّ ، حتى اهرعوا اليّ مندهشين ، وقادوني لضابطهم متعجبين فدخلت معه من دهليز داخل ذلك الباب الضخم الى بهو فخم فلما

(١) الشمردلة الناقة الحسنة الجميلة الخلق . والشملال الناقة الخفيفة السريعة

(٢) الرسيم والذميل نوعان من سير الابل . (٣) اكتنفتها احاطت بها

مثلت بين يديه قال بصوت يشف عن كمال الادب، يصحبه شيء من الدهش والعجب، من اى البلاد انت . وكيف وصلت ؟

قلت : اقبلت من مدينة الفيوم، علي شمردلة سمعوم (١)

فنظر الضابط الي من حوله نظرة دهش عظيم، وقلق جسيم ثم قال: في كم قطعت هذه المسافة وكيف نجوت مما صادفك من المخاوف ؟

قلت ياسيدى قطعتها في عدة دقائق، ولم اصادف في طريقي شيئا من البوائق

قال الوجدان : فبهت الضابط متعجبا. ثم سألني مستغربا

وهل اخبرك احد عن هذه المدينة، وهداك الى طريقها الأمينة ؟

فحكيت له ما حدث في يومي واخبرته عن الاعرابي ونصيحته لولده وما دار دار بيني وبينه وكيف انتهى الامر باعارتي ناقته

فكاد يصعق الضابط مما سمع، وما زاد علي ان قال لي هلم معي. فخرجنا من البهو الي الباب وهناك ركبنا اوتوموبيلا لم ترعيني مثله في جمال الرواء، ومتانة البناء، وسرنا نخترق شوارع ما رأيت في حياتي اوسع ولا انظف ولا اجمل منها. تقوم علي جانبيها قصور في تنسيق التشكيل، تحيط بها حدائق لا اجد في براعتي قدرة علي وصفها، [illegible] جات عن المعادن الامعة. ترصعها الزهور اليانعة. فما شككت اني في جنة الخلد. ولكن سرعان ما لاحت لنا مبان يعجز خيالي عن تصويرها. وكنت اقرأ علي ابواب كثيرة منها بخطوط جميلة أمثال هذه العبارات (جامعة العلوم الدينية) (جامعة العلوم الكونية) (جامعة العلوم الطبيعية) (مجمع علماء التاريخ) (مجمع علماء الاجتماع) (مجمع علماء الادب) (دار الكتب اللغوية) (دار الكتب الطبية) الي غير ذلك مما لا يحصي كثرة، وكلها علي اشكال من البناء تعجز وصف الواصف، وتكل [illegible] الناعت. وما زلنا سائرين حتي وصلنا الي قصر كأنه قطعة واحدة من المرمر الناصع البياض في وسط حديقة لا أجد في بياني قدرة علي الاشارة الي صفة من صفاتها. تحيط بها فرق من الجنود. فدخلنا منها الي بهو انتهي اليه الابداع الخيالي [illegible] في صدره شيخ قد جلله المشيب، في شكل مهيب، وعن يمينه

(١) [illegible]

ويساره رجال لا يقلون عنه جلالة ومهابة، فسلم الضابط باحترام، فرد الامير السلام، وأمرنا بالجلوس، ثم أخذ صاحبي يقص عليه أمري، فدهش الحاضرون، واخذوا يتهامسون، ثم ادرك الامير بسعة علمه، وثقوب فهمه، بأن وصولي الي مدينتهم لم يكن الا بأمر خارق للعادة، وصرح بذلك لما بين يديه من القادة

ثم قال لا يبعد ان يكون لهذا الغريب تعلق عظيم بالفضائل، وميل شديد للخلاص من أسر الرذائل، فتولاه روح كريم يحب ان يطلعه على مساتير الخليقة، ويقفه على لباب الحقيقة، ولا بد انه يثق منه على كتمان الاسرار، فقذف به الى هذه الديار، ثم نظر الامير الي احد الجالسين عنده وقال اجعله في دارك يا ابا سليمان، واوله من عنايتك ما يسعه الامكان، حتي يهيء الله له الرجوع الي الاوطان

فقال ابو سليمان: سمعاً وطاعة، سأتولاه مذ هذه الساعة، ثم اخذني وخرج من الحضرة

فقلت لمضيفي أين موقع هذه المدينة ياسيدى؟ فقال: سل عما تشتهي غير هذا، وكل ما أستطيع ان اقوله لك اننا قوم سئمت نفوسنا الاكاذيب المتفق عليها، وأنفنا أن نعيش حياة تتناقض فيها قلوبنا وعقولنا، وتتعاكس اعمالنا وعلومنا، فاتحدنا ونحن عدة آلاف، من جميع الاصناف، ان نرحل الى بقعة من الارض لا يهتدي اليها خيال، ولا تخطر من احد على بال، وأنشأنا هذه المدينة فسرنا في نظامها على آخر ما سمحت به العلوم من حيث البناء والرواء، وجعلنا لها دستوراً مستمداً من القرآن والسنة السمحاء، فقمنا على طريقة لم تقم عليها أمة الي اليوم، لانه ليس فينا الا من شغفته الحقيقة حبا، وتيمته الكمالات عشقا، فلم نجد مشقة في القيام علي اكمل الخطط الاجتماعية فبلغنا في سنين معدودة من الرقى الصوري والمعنوي، ما يعد بجانبه ارقى ما وصل اليه متمدنوكم انحطاطا مخجلا. فقد بلغت لدينا العلوم الكونية الي حد فعلنا معه ما قررت علومكم استحالته المطلقة، مما لو سردته عليك لاقتضي الوقت الطويل —

قلت: وهل راقت لكم الحياة، وبسم في وجوهكم الوجود، فلم تعد فيه تلك الجهامة التي تزعج من ينظر الى تصاريفه، او يفكر فى تكاليفه؟

قال: اننا بسيرنا علي مقتضي معارفنا، اتفقت سيرتنا مع النواميس التي وضعها

الله لقيام العالم، فزالت المصائب التي كان يجلبها الانسان علي نفسه بعصيانه لمقتضيات وجوده. انقطعت لدينا جراثيم الامراض والعلل، وبلغ العمر عندنا حده الطبيعي فترى احدنا يعمر من مئتين الي ثلاثمائة سنة، وقلّت سطوات الخواطر والهواجس علينا، فعمرت صدورنا بالحكمة، فرأينا الحياة كما اراد الله ان تكون باشة باسمة، هنيئة غير متجهمة، اما انتم فلأنكم لا تعملون، وتهيمون في كل واد تتخيلون. انقلبت المدنية عليكم شراً دونه كل شر، أليس من المدهش ان ترقى لديكم العلوم الى حد لا نسبة معه بينكم وبين سكان البوادي، ومع ذلك فهم يتمتعون من لذة الحياة، وصفاء العيش بما أصبحتم منه محرومين، وعنه بعيدين، فزادت فيكم نسبة الوفيات، واحتوشتكم العاهات والآفات (١)، وعمتكم الاخلاق الموبقة، وطمت عليكم العوامل المهلكة، حتي يخيل للناظرين انكم كلما خطوتم خطوة في المدنية، جلبتم علي انفسكم رزية، وتعرضتم لبلية، وحتي قال قائلكم ما أحسن الجهل مع الرفاهية، واجمل السذاجة مع العافية

قال الوجدان: فقلت لمضيفي والله انه ليخيل لى أيها الهمام، ان ما أراه وأسمعه في المنام، واني لأود ان ادرس نظامكم الاجتماعيّ وأقف علي مبلغ رقيكم العلمي، لأحصل علي ما ينفعني فى معاشي ومعادي، ويمكنني من خدمة قومي وبلادي، واني أستودعك الله اليوم فقد آذنت الشمس بالغروب، واعداً اياك بأني سأؤوب

قال لى الى اين ومن اي طريق، وبينك وبين بلادك خمسة آلاف من الفراسخ؟ فيها من الجبال الشوامخ، والسهوب الشواسع، والبحار الزواخر، ما لا يمكن قطعه الا فى شهور؟ هذا ان وجدت من يهديك السبيل، ويجنبك ما فيه من العراقيل

قال الوجدان: فكدت والله ان اصعق مكاني، من شدة ما دهاني، وما تمالكت ان صحت قائلا: خمسة آلاف من الفراسخ؟ اذن انا في اقصي الصين؟ ثم أدركني طائف من الرجاء، فقلت ان معي ناقتي الوجناء، فانطلقت أهرول الي ظاهر المدينة، أبحث عن ناقتي الامينة، فلم ألقها حيث عقلتها، فسألت عنها من صادفته، فلم أجد

(١) احتوشتكم أحاطت بكم

من رآها ، فأيقنت بالانقطاع عن الاهل والوطن، فجمدت متأثراً بالأس والشجن، وبينما انا على تلك الحال واذا بصوت لطيف انبعث من بين الاغصان، وصائح يصيح بي هوّن عليك ياوجدان،فالتفت الي مصدر الصوت،فاذا به صديقي البلبل، فصحت به أدركني أيها الاستاذ الوفيّ ، فأنت نعم المولى

فضحك وهو ينشد :

تريدون ادراك المعالى رخيصة ولا بدون الشهد مين ابر النحل

ثم صاح ياعجيبة، فحضرت النجيبة، فقال لي هلم ياوجدان، فقد تسني مرادك وهان قلت حباك الله وبيّاك،ماأبرك وأوفاك، ثم أنخت راحلتي وامتطيتها، وماهي الا دقائق حتي رأيتني حيث كنت من صحراء الفيوم، فنزلت عن اوجناء، وعدت الي بيتي في المساء (١)، فكانت رحلتي هذه احدي الكبر، ومارأيته فيها من أجل العبر

الوجدية الثانية عشرة

روي الوجدان قال :

نشأت نشأة اهل الدعوة الي الاصلاح واتسمت بوسمهم، فكنت كلما رأيت في قومي عوجاً، وآنست منهم مغمزاً، بذلت لهم النصيحة، وبالغت لهم في الموعظة، وتحريت فيما اقول مواطن الامكان، ومقدور الانسان، حتي لا أغلو فأعد خيالياً، وتنبذ مواعظي ظهريا

لبثت علي هذه الحال سنين، ماهنت ولا وهنت، رابط العزيمة ، وائقاً بفائدة التذكير لقوله تعالى «فذكر فان الذكري تنفع المؤمنين»

فجلست ذات يوم أحاسب نفسي علي ماأدت من واجب، وماقصرت في حق،

---

(١) الوجناء الناقة العظيمة الوجنات

فاستطردت الي معرفه نتيجة مسعاى ومسعى اخواني المصلحين فرأيت ما ملأني مضاضة، وأوقر فلى غما

رأيت الردائل شاعت، والنقائص ذاعت، والاعراض هتكت، والدماء سفكت، والربا عم، والزنا طم، والبيوتات أخربت. وعروش المجد الأثيل هدمت

انحلت روابط الاخلاق فلم يحتشم الرجل ان يحسوا الخمر علنا، ويأتي المنكر جهرة

بطلت الغيرة على العرض فلا يخجل احدهم ان يغازل حريم صاحبه على قارعة الطريق، ويزيد على إجرامه فيتبعها ليعرف دارها. فلا تثور فى الناظرين اليه حمية، ولا تأخذهم على هذا الاثم نخوة الرجولية

فسدت نيات القادة فانقلب دفاعهم عن الوطن تشاتما، وتناقشهم على خدمته تحاسدا. فانصرفت الاقلام الى تصيد المخازي، وتقوّل المثالب

كلت بصائر العلماء عن الهدي فصاروا يشاركون العامة في باطلهم، رجاء الاصابة من حطامهم

استحوذ المرابون على الاموال بطرق التدليس فارتهنت عقارات الامة فأصبح جمهورهم خدماً لأولئك الماليين، يصرفونهم تصريف السادة للعبدان ولم تبد منهم بادرة الرجعى عن المضاربة، او جاهلية المنافسة الكاذبة، وذهبت نصائح الاقتصاديين والاخلاقيين في هذا السبيل سدى

تأملت فى ما كانت الامة عليه منذ عشرين سنة، ثم ما آلت اليه اليوم فوجدت انها فقدت من مالها واخلاقها وكرامتها وروابطها مالا سبيل الى تعويضه لو وقف الحال عند حده هذا فى خمسين سنة، فما قولك ولم يبد من الامة ميل الي اصلاحه، ولم تنشأ فيها حمية للافاته ؟

طاف بي هذا الطائف فضاقت بي الارض بما رحبت، فاستعذت بالله من شر اليأس الذي كنت احاربه

فقلت سبحانك اللهم ما أبلغ حكمتك، وأعدل فتنتك، لقد كنت أهزأ باليائسين، وأصغر من شأنهم. فقد أصبحت لهم اماماً، وعليهم نقيباً، وخيرت نفسي بين ان انبع خطواتهم فأقنع بالعيش كما تعيش الانعام، مكتفياً بما يتسني من الحطام، معطياً نفسي

سؤلها. تاركا الامر لتصاريف القدر، اظراً الي أمتي وهي ستنازعها عوامل التخاذل، وتتوزعها فواعل التمزيق . وبين ان اعيش كما يعيش الغيورون

فقلت لا والله، ان كان لا بد من اليأس، فلا اكون يائسا جبان، وان في الارض لمضطربا عن المقام على الخسف . والصبر على الدون، وقديما اختار الاصفياء التسياح، وأنسوا بالقفار والبطاح. فعمدت في الحال الي لبوسي فخلعته، والي زيي فغيرته ، فتخيرت لبس الاعراب لما فيه من معني السذاجة والمناسبة لسكان البوادي التي عزمت ان اجوس خلالها ، وأتفيأ ظلالها

فلما تمت لي عدة السياحة، تحريت ساعة السحر. فخرجت من داري متسللا تسلل القطا، حتي لا يشتبه بي فأقاد للمخفر، ويفتح معي تحقيق فتسفر حقيقتي، وأفضح عن وجهتي، فما زلت أطوي شوارع المدينة طياً، حتي لحت الضاحية. فاندفعت فيها اندفاع الحوت الي البحر، وجعلت وجهتي جهة الشمال، غير حاسب لقواطع الطريق حسابا، وهو طيش كنت لا اعرفه في نفسي من قبل ، فقد عهدتني وقافا مع الاسباب

اندفعت في تلك الصحراء، فسرت فيها اميالا، حتي أضعت آثار العمران، وصرت في وسط البيداء، كالشعرة البيضاء في الجبهة الجلحاء، فما عهدتني في يوم من ايام حياتي اكثر انقباضاً في الصدر ، واشد استصغاراً لقوى من ذلك اليوم

سرت ساعات، فلما كان وقت الاصيل، تراءت لي دوحة وارفة الظلال ، من اللواتي يدعي علماء النبات انهن في الارض من لدن اقدم امة من امها، فقلت أنتهي اليها فأستريح، او ابيت حتي اذا اصبحت عاودت السير حتي يقضي الله امراً كان مفعولا، فما شارفتها حتي رأيت متفيأ ظلها اعرابي حسن السمت، وضيء المحيا، ناصع اللحية، تدل غضون وجهه على انه يناهز الستين من عمره، قد ألبسه الوقار من حلته برداً يوجب له الاكبار والاعظام، فتهيبته، الا ان الانس الذي استولي على شعوري برؤية الانسي في هذا القفر الموحش، قد غلبني فاقتربت منه وقلت السلام عليك أيها الاب الصالح

فقال : وعليك السلام ، اهلا بابوجدان ، هزيم كتيبة العاملين ، وشريد زمرة المجاهدين

فقلت في نفسي : يا للعجب، أرجعت الكهانة الى العرب، حتي يعلم اسمي ولقبي ومهنتي من غير تعريف؟ فوالله ما كاد صدري يتردد بهذه الهواجس حتي نظر الي وقال:

اتدرى على من تَنَزّل الشياطين ؟ على كل أفاك أثيم

فقلت : عفواً ياه ولاي فوالله ما قصدت ذلك، وانما اردت ان اعلل علمك بالغيب بعلة افهمها فذهب فكرى هذا المذهب على غير قصد

ثم التفت الي وقال : ما الذى دهاك حتي خرجت يائساً، فوالله لولا اخلاص فيك لهلكت مع الهالكين ، ولحقّت عليك كلمة اليائسين

قلت : والله مايئست من روح الله، ولكني يئست من قيام امتي على سنن سواها، وكل يوم هي فى فتنة جديدة

قال : لقد اجملت ففصل

قلت : شربت الخمر، وقطعت الارحام، وانتشر الربا، وعم الفساد، وهتكت المحارم وهضمت الحقوق، وطمت البدع

قال : لقد زدت الامر اجمالا واخشي ان تكون قد علقت بك فتنة ما ات بك كما لت بسواك من الذين انقطعوا في الطريق فهلكوا مع الهالكين

فقلت : يامولاي لو كنت معنا لرأيت عجباً

فأدركته حمية سرت حمياها الى عينيه فزادتهما حياة ، واستوى قاعداً وكان متكئاً وقال :

اتمزقت امتكم فصارت شيعاً، واخذت كل شيعة تشن الغارة على جارتها على سنة القبائل المتبدية ؟

قلت : لا

قال : أوأد الرجال بناتهم خشية العار او الاملاق ؟

قلت : لا

قال : أفشت الفوضي ، وعم الاختلال واعتمد كل قبيل على نفسه وناوا العداوة سواه ؟

قلت : لا

قال : أقتل المصلحون، وأهين الهادون الراشدون . وسيموا الصغار والخسف؟

قلت : لا

قال : ومم يئست اذن يا ابن اخي ؟

قلت : أوكنت منتظراً بأمتي حتي تبلغ الي هذا الحد ، وهل يرجى لمن وصل اليه حياة ؟

فضرب كفاً بكف، وقال يالضيعة التاريخ، وفقد التأسي والاقتداء، ألا تذكر ان محمد بن عبد الله خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم بعث الى العرب وهم على ا كثر مما وصفت لك، فوحد كلمتهم ، وجمع مشتتهم، وهذب اخلاقهم، وأشعرهم بمعني الاجتماع وسر الوحدة، فأسسوا اكبر واعظم امة في الارض ؟

قلت : نعم اعلم ذلك ، ولكن رسول الله أيده الله بملائكته ونصره بفضله

قال : لعلك تريد ان تقول انه انتصر بطريق الاعجاز ، لا من طريق السنن الطبيعية

قلت : نعم

قال : كلا، ولقد اخطأتم النظر في امر النبوات ففاتكم الاستفادة منها، وعددتموها فوق الطبيعة ففصلتم حوادثها عن حياتكم العملية

لعلك يا ابن اخي تذكر ان رسول الله لبث في مكة ثلاث عشرة سنة مضطهداً من قومه ، مغلوبا على امره ، مقصوداً بالاذى من عشيرته مأذيا في شيعته

قلت : نعم

قال : ألم يكن الله قادراً على ان يذل له الجباه فتأتيه صاغرة، ويلين له الشكائم فتطيعه منقادة، ويجعله من السلطان بحيث لا يعصي له قول، ولا يؤتي له نهي ؟

قلت : بلي

قال : فما الحكمة اذن في هذه الفتنة الطويلة ، ان لم تكن لتعليم المصلحين كيف يرشدون ويجاهدون، وكيف يصبرون ويصابرون، وكيف يتدرجون الى ما يرجون

ثم اخذ فى ضرب آخر من القول فقال :

أنسيت يا ابن اخي انه لبث في المدينة عشر سنين يجاهد الكافرين ويجاهدونه،

فينال منهم وينالون منه،قراعا بالسيوف، وطعانا بالرماح، ونضالا بالسهام ؟

قلت: أجل

قال : أولم يكن الله بقادر على ان يسخر معه الصواعق فتصعق مخالفيه فلا تبقي منهم باقية ؟

قلت : بلي

قال : الى هذا يشير الله تعالي بقوله «لقد كان لكم في رسول اسوة حسنة» فكيف تمكن الاسوة ان كانت الحوادث خرقا للسنن،وتعطيلا للنواميس ؟

قلت : والله لقد بلغ منا الجهاد مبلغه و ....

فقاطعني قائلا : مه ! والله ماسمعت عن مصلحي امم مثل سيرتكم،انكم تلبسون الخز،وتستخشنون الطنافس،وتتكاثرون في الاطعمة ، وتتباهون باقتناء القصور ، وتتحدّون اولي الترف في ترفهم

.تنصحون بالاقتصاد وتسرفون،تهدون للطاعة وتفسقون،ترشدون للاخشيشان وتتنعمون .اتخذتم الارشاد مهنة للكسب،فان اخصب ناديكم منها طالبتم بالحقوق ، وناديتم بالشعور،وانا كدت مجهوداتكم رميتم الامة بالموات،وعددتموها في الرفات

قلت : يامولاي اننا من هذه الوجهة على .....

قال : مه ،والله لقد زرتكم ورزتكم،وأقمت فيكم دهرا فما رأيتكم تشبهون المصلحين الا في النداء بالاصلاح،ولكن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولو كان فيكم شيء مما تقولون لفاض من قلوبكم على جوارحكم،ولكنتم اعلام رشاد للسالك،ومنار هدى للتائه، ولكنكم بفقدكم روح الاصلاح فى نفوسكم لم تجدوه فى سواكم،كمن يبذر القشور في الارض الخصبة متخيلا انها حنطة ، ثم ينتظر ثمرتها زمناً فلما لم يجد شيئاً رماها بالموات واتهمها بالعقم

قال الوجدان : فرأيتني والله أحق بالاصلاح ، ممن كنت ارميهم بالجمود ، واضطربت نفسي تطلب المخرج من هذه الاقذار،فأكببت على يده أقبلها،ضارعا اليه ان يهديني للطريق الذى لو سلكته تخلصت من الشوائب،وعددت في زمرة المصلحين حقا

فنظر اليّ نظرة المشفق المواسي، وقال : هوّن عليك يا ابن اخي، فما كتب لك فسوف يأتيك

قلت : يامولاى خير البر عاجله، وان من الخسارة على الحر ان يضيع لحظة من حياته فى ضلالة

فقال : لو كان الامر بيدي لدللتك، ولكني لا استطيع اجتياز هذا الحد فى المرحلة. فان قدر لك ان ترى امامنا الاكبر، فقد قدرت لك منازل المقربين، وعاشرت شموس العالمين العاملين

قلت : وما السبيل اليه ؟

قال : تأتي الي هذه الدوحة أصيل كل يوم طائفة من النسور البلق، تحمل من قدر له الوصول اليه على ظهرها، حتي توصله الى مقره، على بعد لا يبعد عن هذا المكان

قلت : أويستطيع الانسان ان يثبت على ظهر النسر كل هذا الطريق ؟

قال : انه لو شاء أوصلك اليه فى لمح البصر، فلا تحكم عقلك الا فيما يقع تحت مشاعرك من عالمك هذا. اما في ذلك العالم، فصدق كل ما تسمع، فهو منزه عن القيود

فما أتم كلامه حتي بصُرت بسرب من النسور البلق، كأنها زوارق فاتحة شراعها، وهي على اكمل وابدع شكل، فهوت الينا

فقال الشيخ : هاهي ركائب صاحبنا، فاعل ظهر احدها اذا تأهبت للعودة، ثم أمسك بيدى فبوأني ظهر نسر من تلك النسور

ثم قال : استودعك الله. فما أتممت ردى عليه، حتي ضربت النسور الهواء بأجنحتها فطارت، فنظرت الى الارض، فاذا قصورها كالقبور، ورياضها كالبقع علي سطحها. وما هى الا لحظة حتي فقدت رؤية الارض وبقي لون كلون السماء، فرأيتني معلقا في الجو علي حال ما كنت اتخيلها ولا فى نومي، فاعتراني هلع فقدت معه القوة، فارتخت اعصاب يدي، وكنت متعلقا بريشة من ريش النسر، فأفلتها، فهويت من علي ظهره، فأيقنت بالهلاك علي صورة ماهلك عليها بشر قبلي. فأغمي عليّ ثم أفقت فرأيتني بين اظفار النسر كأني ممسوك بخطاطيف من حديد

فسمعت احد النسور يقول للنسر الذي انا في مخلبه :

ان صاحبك كاد يهلك من شدة الهلع فهل لك ان تروح عنه قليلا؟

قال : كلا، ان هذا من الذين ظنوا بأنفسهم الظنون، وتوهموا فيها مالا يتصور من صفات الكمال ، فخله يذق حقارة قدره، وضؤولة خطره

قال الوجدان : فاستسلمت للقدر، ولبثت في مخلب النسر نحو ساعتين، طالتا علي كعامين، ثم شعرت بهويها الي الارض حتي استقرت عليها، فوجدتني فى خميلة لم تر عيني أشرح للصدر منها، واذا تحت سرحة منها شيخ قد جلله المشيب وتألقت حوله الانوار، فوالله ان العين لتحسر عنه كليلة كما تحسر عن الشمس، فلما وقع بصره علي قال مرحباً بالولد الصالح، هدّئ روعك يابني، فانما انت بحضرة عبد من عباد الله فلا تجعل للوهم عليك سلطانا

فوالله لقد سرت هذه الكلمات الي ذاتي سريان الكهرباء، فاستويت كما كنت، ثم اقبلت عليه اقبل يده

فقال : كلا ، يكفيني منك مااستكن بقلبك عني

فقلت : ان للظواهر معني آخر

فقال : قد طلقنا الظواهر ، ومحقنا المظاهر ، فما شأنك يابني ؟

قلت : ماالمسؤول بأعلم من السائل ، ارجو ان يكون قد كشف الله لك رحلتي، ولقد انتهيت الي شيخ صالح، فاستدرجني في الكلام حتي اوقعني في حيرة لا أجد منها مخلصا، اثبت لي في ذاتي النقص، وأمسَنيه بيدي، فسألته عن العلاج فدلني عليك يامولاي

فتبسم وقال : مرحبا مرحبا، ثم نظر الي وقال: أصدقتك عزيمتك فى الاهتداء يابني ؟

فقلت : كيف لا، لأنا والله الي الهدى أشوق مني الى الملك الخالد، فلا خير في حياة لاحقيقة لها

فنظر الي نظرة متفرس، وقال : ها أنا أعرض عليك الاسلام، لانه شرط أولي في الوصول الى الحق المطلق

فغرتني دهشة وقلت أولست مسلما يامولاي،اني من اعرق الناس فيه،انا فلان ابن فلان بن فلان ، وعددت له رجالا من آبائي بين علي وابراهيم واسماعيل الخ

فتبسم وقال : أعلم ذلك ، ولكني اريد منك ان تسلم اسلام الخاصة

قلت : ياسيدي أوهناك اسلامان ؟

قال : ان اسلام العامة هو ان يقنع الرجل من العقائد بما يرده عن الضلال . واما اسلام الخاصة ، فأن يتحقق الرجل معني الاسلام، ليستطيع ان يكون لغيره هاديا، وبحجة الله قائما

قلت : ياموﻻي وهل للاسلام معني غير ما يفهمه مثلي وقد قرأ ما بين دفتي المصحف؟

قال : أتستطيع ان تفصح عن كنه ما فهمته منه ؟

قلت : الاسلام هو ان آخذ نفسي، بما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم من عقائل الاخلاق وجلائل الصفات، وان اعتقد ما نص عليه الكتاب من التوحيد والتنزيه والبعث والخلود والكتب والرسل والملائكة، وان أؤدي ماثبت من العبادات بالتواتر

قال : يا بني هذا اسلام العامة، وكفاهم به نوراً، ولكن عداك اسلام الخاصة وهو الذي ان لم تهتد اليه فلا يليق بك ان تكون هاديا لغيرك

قلت : اهدني اليه زادك الله فضلا

فقال : الاسلام هو أن تسلم وجهك لله لا تلحظ معه شيئا

قلت . قد فعلت

فقال . لو فعلت لاشرق سره علي صدرك، ولما وجهت الي بعده سؤالا ، انك ما فعلت الى ان تصورت معني ماقلته لك، ولكنك لم تسلم وجهك بالفعل، وشتان بين تصور القول وتنفيذه

قلت . أليس اسلام الوجه الي الله، ان اقول يارب قد أسلمت وجهي اليك

قال . أواه، لو كفى ذلك لما كلت دونه العزائم، ولا اضمحلت الهمم، ولأصبح الناس كلهم اعلام هدى، وأراكين فضيلة . ولما رأيت للشيطان صنما يعبد

قلت . وكيف السبيل اليه رعاك الله ؟

فتنفس الصعداء وقال :

فبادراها بالحيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك اهوال

ثم نظر الىّ وقال :

ان اردت ان تسلم وتذوق طعم الحياة الانسانية الصحيحة، وتتمتع بالحقيقة المطلقة الناصعة التي لايتطرق الغم الي قلب صاحبها ولو ألقي في النار، او قذف به فى اليم، فاخلع من رأسك جميع ماعلمته وقرأته وسمعته واستحسنته واستقبحته، وكن كأنك خلقت من ساعتك، فلا تذكر ماضياً ولا مستقبلا، ولا تشعر نفسك بحاضر

قلت . وما فائدة هذا وأي سر فيه ؟

قال . يابني هذا اول شروط الهداية، وآخر مقامات الولاية

اما كونه اول شروط الهداية، فلأن الرجل اذا شارف امراً فلايري وجه الحق فيه الا اذا واجهه بهذه النفس الخالصة من الاكدار

أتدري لِمَ كذب الكافرون الانبياء، لانهم نظروا اليهم من خلال ماعلموا وما ورثوا وما استحسنوا وما استقبحوا، فخالف ماهم عليه قول الانبياء فكفروا به

أتدري لماذا يختلف الناس فيتشاكسون ويتقاتلون ؟

لان بعضهم ينظر لاعمال بعض من وراء خصوصياتهم وموروثاتهم وعاداتهم فيجدونها ضد ماهم عليه فيختصمون

وهكذا كل امر سواء أكان ماديا ام معنويا ان لم يتجرد الانسان في نظره اليه هذا التجرد فلا يرى وجه الحق فيه، وخليق بمن لايسلم في جميع محاولاته ان يعيش طول حياته ضالا فى تيه اوهامه وعاداته، ومحبوساً في قفص ذاته، يغضب ويرضي ويحب ويبغض ويتحرك ويسكن، لا بعوامل الحق، ولكن مدفوعا بدوافع اهوائه

اما كون هذا التجرد نهاية مقامات الولاية، فلأن الحق جل شأنه، وهو قيوم كل شيء لايشرق نوره علي صدر فيه مثقال ذرة من شائبة، ولوحل فيه وفيه شائبة لمحقها كما يمحق ضوء الشمس جميع آثار الظلمة

وما دام الخلق بعيدين عن هذا السر العظيم، والناموس الكريم، فلايفتأون، يختصمون ويتقاتلون، مثلهم كالانعام بل هم اضل سبيلا

قلت . لقد حظيت اليوم بالسر الأقدس

قال : لا ، حتي نعمل به ، فاذا لم تعمل به كان علماً عقلياً لا أثر له على احوالك

قلت : وما الحيلة في اجبار النفس عليه ؟

قال : ان من عرف الخير طلبه، ومن ادرك الجمال سعى اليه. ان في الانسان خلقا سماويا، وهو انه مدفوع للتكمل، وقد دللت على الكمال فستدفعك طبيعتك اليه

فاذا ذقت طعم الكمال ودعيت اليه، كانت انفاسك كأشعة المغناطيس الحيواني تسري في الارواح فتخلع عنها غاشيات القذر، وتميص عن طريق كمالها عوائق الدين، قم يابني فأدّ ماوجب عليك نحو امتك ووطنك، واياك ان تخوض مع الخائضين، وان تفتتن بالفاتنين، قل الحق واصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين، «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»

قال الوجدان : كان الامام يلقي عليّ هذه الدرر وانا مطرق أصغي اليه، فلما أتم كلامه ورفعت رأسي لشكره على ان هداني من ضلال، لم أجد شيئا، ووجدتني في ضاحية بلدتي كساعة خرجت منها. فتحققت ان محدثي كان استاذى الحكيم بن مرشد، دبر لي هذه المقابلة لانقاذى من تيهور الحيرة، فخررت ساجداً لله شكرا ، ثم عدت الي عملي بعزيمة لا تُفل، وهمة لا تكل، وثقة بالله لا تطاولها ثقة، والحمد لله اولا وآخرا

الوجدية الثالثة عشرة

قال الوجدان :

رانت على صدري الهموم يوماً، وضاق بها ذرعي، فكنت كلما عالجتها بملحة من كتاب، او طرفة من ديوان، ازدادت شدة على شدة حتي رأيت الدنيا في عيني أضيق من سم الخياط. فقلت في نفسي ان لهذه النفوس جمحات يسببها لها البطر، ويجنيها الأشر، وقد ورد في الاثر المشهور، ان زيارة القبور تشرح الصدور، وما كنت الي ذلك الحين أخذت نفسي بهذا العلاج، فخرجت الي محلة الموتي وحدي، فلما انتهيت

اليها،واشرفت عليها،جال فكرى فى الانسان وتكوينه،والجسد ومصيره،والاعمال وعلاقتها،والآمال وبوائقها،والروح وعالمها،والفضائل ومعالمها،ولم أدع شيئا مما يتعلق بهذه الامور الا جلت فيه

ثم تقدمت الى سفح الجبل فاذا انا بفجوة تشبه فوهة الكهف ، فمشيت فيها خطوات،فرأيت في احد جوانبها عربيا نائماوهومتمنطق بسيف،ومعتقل رمحا، وبجانبه ترس قد علاه الصدأ،واخذ منه الزمن . فما شككت فى ان الرجل ميت ، فقربت منه لأتحقق من حالته،فآنست فيه حركة الاحياء،ولم تمض برهة حتي رأيته يتهيأ لليقظة،فاستوى قاعداًواخذ ينفض التراب عن رأسه،وحانت منه التفاتة فرآني، فوقف علي قدميه دهشا من رؤيتي،وصاح بي من انت،فقلت سلام عليك انا واحد من قومك،فرأيته ازداد عجبا وسوء ظن،وظل يحدق بنظره الىّ،فعل من رأي امراً غير مألوف له

فقلت: مالك ياهذا افدبرّح بك الهلع ،وظننته قدخاف مني،فأقبلت اليه اهدىء روعه فما خطوت اليه خطوة حتي صاح بي ، مكانك يا عدو الله ، وشرع الىّ رمحه فازددت عجباً علي عجب،وتأملت في لهجته وهيئته،فلم أر فيه شبها بالاعراب الذين ألفنا رؤيتهم فى بلادنا ، فما وسعني الا ان قلت له :

لاتعجل يرحمك الله،واني اتوسم من لهجتك وحسن سمتك،انك علي شيء من الفضل والنبل ، فهل لك ان تخبرني عن حقيقة امرك ؟

قال والله لااخبرك عني بشيء حتي تخبرني عن شأنك ، أمن جيش الرومان ام من متطوعة القبط انت ؟

قلت له لست من هؤلاء ولا اولئك ، انا مسلم مصرى عريق في الاسلام

قال : ومتى انتشر فى مصر الاسلام حتي تصبح عريقا فيه؟انك لتهذى ايها الرجل قال الوجدان . فازداد عجبي منه فقلت له ياابن اخي لم افهم ما تقول،ماذا تريد بقولك جيش الرومان ومتطوعة القبط ؟

فشرع يضحك قائلا . أظنك كثير الهذر،أتكون ياهذا في مصر ولاتدري من الرومان ومَن القبط ؟

قلت : الرومان امة من امم التاريخ القديم .قرأنا تاريخها في المدارس ونحن صغار ، والقبط مصريون مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا

قال : عجباً لك ، لقد والله بليت منك اليوم برجل شديد المحال

قال الوجدان : فزاد دهشي منه وتحققت ان له لشأناً ، وكنت كلما سمعت جزالة الفاظه ، وفصاحة منطقه ، ازددت حبا لاستطلاع امره

فقلت له : أرحمني يرحمك الله ، بتعرفني بأمرك فقد ادهشني والله ما تقول

فقال . والله يا اخي انا اشد منك دهشا . اما انا فالمغيرة بن علقمة من بني غطفان جئت محاربا الرومانيين في جيش عمرو بن العاص ، وقد أويت الي هذا الكهف لأقيل فيه فنمت ، وان فرسي بمنعرج في داخل هذا الكهف . وما ايقظني الا اصطكاك حذائيك بحصي هذه الارض

قال الوجدان : فما سمعت قوله حتي غشيتني حيرة . فقلت له وانت الآن تنتظر ان تخرج من هذا الكهف فتنضم الى قومك من جيش عمرو ابن العاص ؟

قال نعم ، وانه لبالفسطاط

قلت أرني حصانك ؟

فقمنا اليه فوجدناه عظاما نخرة علي الحال التي تكون عليها الجثة بعد الف وثلاثمائة سنة ، فلمسنا عظامه فاذا بها تستحيل بين اصابعنا رميما

فبهت الرجل وكاد يفقد رشده

فقلت هوّن عليك ، ان لله فيك شأناً عظيما ، أخبرني ما عهدك بالطريق التي مررت بها من الفسطاط الي هنا ؟

قال عهدي بها بيداء خالية . وصحراء قاحلة

قلت تعال معى الي باب الكهف فانظر هل الامر علي ما تعهد ؟

فنظر فازداد دهشا ، اذ رأي قبورا ومدافن وقبابا ومساكن

والتفت الىّ حائرا لايدرى ماذا يقول

قلت هوّن عليك فليتني كنت مكانك لاطبق بين الحالين ، فقد شهدت الزمانين

فقال يا اخي ماهذه الحال ، وكيف تبدلت هذه الشؤون بهذه السرعة ؟ وابن عمرو

العاص الآن ؟ وكم مضى عليّ وانا نائم ؟

قلت اما عمرو بن العاص فقد مضي لسبيله، واما المدة التي نمتها فأخشي ان افاجئك بها

قال أذهب عمرو لفتح الاسكندرية ؟

قلت قد تم فتحها ودخلها المسلمون عنوة، بعد حصار دام اربعة عشر شهرا

قال وهل استتب الامر لعمرو، ووفى له المقوقس ؟

قلت نعم

قال لعله الآن صار اميرا علي مصر فقد كان يتمني ذلك ؟

قال الوجدان . فخشيت ان افاجئه بالامر خوفا عليه من نتائج الدهش المفرط

فقلت له نعم تولاها وعزل عنها

قال أنقم عليه عمر بن الخطاب

قلت لا ، وانما عزله عثمان

فصاح متأثرا أمات امير المؤمنين الفاروق ؟

قلت نعم

قال أواه ، لقد كان والله للاسلام عزا ، وللمسلمين ركنا ، وللحق منارا ، وللعدل عليا

قال وما شأن عثمان بعده

قلت قتل فى ثورة اهلية

قال أقتل ذو النورين ، ومن قتله ؟

قلت قتله جماعة من جهات شتي

فقال ماافظع هذه الحوادث ، يقتل امير المؤمنين بغير محاكمة، واين كان طلحة والزبير وعلي وابن عمر وابن عباس ؟

قلت منهم من ألب عليه ومنهم من لزم بيته

قال ومن انتخب للخلافة بعده ؟

قلت علي بن ابي طالب

قال عذيقها المرجب، وبطلها المجرب، وهو سيد قريش وفتاها ولعله القائم

بالامر اليوم

قلت قد قتل من يد عبد الرحمن بن ملجم ، وحكيت له القصة

قال يالله ! ومن انتخب للامارة بعده،كأني بالحسن بن علي اليوم وهو امير المؤمنين

قلت تولاها معاوية ومات

قال معاوية ؟

قلت نعم

قال لقد تحولت الامور عن نصابها،واسندت الشؤون لغير اربابها ، وكأني بالعرب اليوم فى امر مريج

قلت قد ذهب لسبيله وتولاها ابنه يزيد

قال لااعرفه

قلت ومات يزيد وتولاها معاوية ابنه،ومات وتولاها مروان بن الحكم

قال مروان ! وضرب كفا بكف

قلت نعم مروان

قال ويح بني امية ! لقد وُطّئت لهما كناف المنابر،وتمهدت لهم سبل المفاخر، ولا اراهم لهذا الامر اهلا،وفي الناس مثل الحسن والحسين والعبادلة ابناء عمر ومسعود والعباس

ثم التفت اليّ وقال وكيف سيرته فيكم ؟

قلت انتقل الي رحمة ربه

قال فهل رجع الحق الى اهله ؟

قلت تولاها ابنه عبد الملك

قال عهدى بمروان شابا،فتي السن فمتي كان له ولد يستحق الخلافة.فما سيرته في الناس ؟

قلت لقد ذهب الى شأنه،وتولي الامر ابناؤه الاربعة وابن عم لهم يدعي عمر ابن عبد العزيز وذهبوا جميعا

فحلق بعينيه اليّ وقال دهشا ، ماذا تقول ؟ فى اي زمان نحن ؟

فقلت : هون عليك وما يمنع ان نكون في القرن الخامس والعشرين ؟

فصاح رحماك رحماك .أنمت الفين وخمسمائة سنة ، اذن قد تبدلت الارض غير الارض ، وتحول الناس غير الناس ، وصرت فى العالم آية

قلت : أتكره ان يجعلك الله لخلقه آية ناطقة، وحجة بينة ،كما فعل بأهل الكهف؟

قال : ان لله فى خلقه شؤونا فاصدقني في اي قرن نحن ؟

قلت له : انت في القرن الرابع عشر من الهجرة

فصمت دَهشا ساعة حتي خشيت عليه ،ثم رفع الىّ رأسه وقال : وما حال الاسلام اليوم ؟

قلت : ان المسلمين اليوم يبلغ عددهم اربعمائة الف الف نسمة، واما بلادهم فلا تغرب عنها الشمس

قال الوجدان : فما سمعها مني حتي هوى ساجداً شكراً لله ثم رفع رأسه وقال: أما وقد حقق الله وعده ، ونصر عبده فلا ابالي بما انتهيت اليه

قلت : أتسمح ان تكون في ضيافتي ؟

قال : هلم باسم الله،فخرجنا من الكهف نخترق شوارع المدافن ، وما عليها من مقاصير وعلالي ، فقال انكم تسكنون الجبانات ؟

قلت : لا،وانما يأوى النساء اليها فى المواسم والاعياد فيبتن فيها ذكري لموتاهم

قال : بئست الذكري بعصيان الشارع ، ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قال لعن الله زائرات القبور . فان كان اللعن لمجرد الزيارة فما بالك بالمبيت ؟

قلت : هو ماترى

قال : أين علماؤكم ، أين خطباؤكم ، أيعصي الله ورسوله وهم ساكتون ؟

قلت : ياسيدى انهم يشاركوننا في هذا العمل

فصاح بي ارجع بي الي الكهف امت فيه خير من مساكنة قوم اجمعوا على مصادمة الله بالمعصية

قلت: ارجو حلمك حتي تصل الي منزلي فأُجالسك لحظة

فنكس رأسه وسار . فلما توسطنا بعض الطرق اذا بجلبة جنازة قادمة من بعيد،

فتصاعدت اصوات القهقهة، وخشيت ان يزداد حنق الغطفاني فينحي عليهم ضربا فأردت ان اضع حداً لهذه الحالة

فاستأذنت الضابط في الكلام فأذن لي . فقلت : ان لهذا العربي قصة تعد من مدهشات العبر ، بل تعد من آيات الله الكبر

قال وما هي ؟

قال الوجدان . فما شرعت احدثه بخبره حتي وقف اوتوموبيل على باب القسم فحدثت فيه حركة تؤذن بقدوم قادم خطير، وما هي الا لحظة حتي دخل جندى وهمس فى اذن الضابط بأن حكمدار المدينة قد اقبل

فنظر الضابط الي الشاكين وقال لهم : يظهر ان الذى تشكونه مصاب بهواه العقلية، وانه رجل غريب ، والذى اراه ان صرف هذه القضية اولى ، فاذهبوا لما كنتم فيه

ثم نظر الىّ وقال إن تكفلت بايوائه سلمناه اليك، والا ارسلناه الى المستشفى فتكفلت له بايوائه . وخرجنا وانا احمد الله على وصول الامر الي هذه النتيجة

فلما اجتزنا تلك الساحة ، وما اجتازها صاحبي الا واجماً يكاد يتميز من الغيظ والاسف، قلت له رجوتك ان لاتعجل بعدها بعمل لئلا يصيبنا إعنات الحاكمين

قال أليس فيكم علماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟

قلت عندنا منهم مائة الف او يزيدون

قال فكيف تقوم لهذه البدع قائمة مع وجود هذا العدد العديد من العلماء

قال الوجدان : فخشيت ان ازيده بيانا فيهلك أسفا ، لاني رأيته بعد استعراضه هذه المنكرات على أشد مايكون عليه من يفاجأ بما يكره، فقلت له بصوت المتلطف اذا صرنا فى المنزل أفضت لك الشرح، فان جلبة الطريق تحول دون السماع . وسرنا فوقع نظره على سرب من النساء الخالعات للعذار يتهادين بين أترابهن، وتفوح من أردانهن ريح الاعطار

فشخص الىّ باهتمام وقال أمسلمات هؤلاء ؟

ثم نظر يمينا ويسارا ، فوجد الباعة فى الحوانيت قد شخصوا الى تلك النسوة

بأبصار تشع فسقا وخنا،واخذوا يشيعونهن بما اعتادوه من الفحش وسقط الكلام
فنظر الي شزراً وقال أتسير بنا فى محلة الفسوق،أما كانت لنا مندوحة في طريق آخر ؟
قال الوجدان : فظن ان الشارع الذي مررنا فيه محلة الفسوق وهو اعظم شوارع القاهرة ، فتأملته فاذا جبينه والله يندي عرقا ونحن في معمعان الشتاء
فقلت فى نفسي أسفا لقد برحت هذه المناظر بالرجل،ليتني لم اخرجه من كهفه
وصلنا الي الدار فقلت آتيك ياسيدى بغذاء،قال آتني بوضوء،فأتيته به فتوضأ احسن وضوء وأعجله،ثم طلب الي ان ادله على القبلة ففعلت،فاستوي واقفا وشرع يصلى،فكان يقف حتي أخاله لايركع ، ويركع حتي أحسبه لايرفع،فأثر في خشوعه واخباته،حتي سدركت بمكاني متأدبا كأني بحضرة قوى روحانية تحيط بي من كل جانب،فلما أتم صلاته وسلم،استدعاني فجلست بين يديه،ثم نظرت اليه فوجدت وجهه يشع نورا،وقد احاطت به هالة من الضياء ، ماعهدتها عمرى لغير الشمس والقمر
فلما اطمأن بي الجلوس وجه الي بصره وقال :
لقد ألقي في روعي انك على شيء من الخير،وانك اهل لان تأخذ العهد عن رجل شهد المشاهد،وحضر المصادر والموارد،وجالس الغر الاماجد
لقد رأيت من جملة ماوقع عليه بصرى في بلادكم،ان الاسلام اصبح فيكم غريبا ، وانكم على مايكون عليه الناس قبل بعثة الرسل اليهم،ولا رسول بعد خاتم النبيين الا عالم يستن بسنته،فيؤدى مااستحفظ عليه من ودائع العلم،واما نات التذكير . فكن ذلك الرجل ان شئت
أري فتنا قد قامت على ساقها،وغفلة قد نشبت بأظفارها،وأري الناس مستسلمين مستنيمين ،كأنهم قد أمنوا سوء المنقلب ، ووثقوا من سلامة العقبى
اعلم ان الرذيلة وباء الامم،لاتقوم بها جماعة،ولا يلتئم بها شمل طائفة،فهي روح محلل،وعامل مفرق،قد مضت بذلك السنن،وسبقت النذر والحوادث،فلا يغرنك قيام أمة وهى متلبسة بقذرها،فان البناء يقوم على أوهي الاسس حينا ،فاذا عصفت به عاصفة سقط على نفسه

الا انه لاخير في الحياة الا اذا ...
خلقت له، والحياة دار هموم واكدار، دار ...
وفناء، فلا يكن همك مصروفا الا الى ...
او هداية طائعة

الناس امامك يتساقطون ...
من اهلك، فهم قبلك ...
وتذكيرهم، واصبر على مكرهم ومكروههم ...
لاسيئة، وما عند الله خير للصادقين

ثم قال اليك عني، ورفع يديه الي السماء وقال

اللهم انك قد أمتني وأحييتي، وشهدتني ما ...
وقد فقدت اهلي ومعشري ...
الكريمة، فردني اللهم الي رحمتك ان كنت تراني ...

قال الوجدان: ثم خر ساجداً وانا انظر اليه فطال ... لم اعهدها ... فسرت
اليه فاذا به قد مات، وبينما انا ... لا ... واذا ... المكان قد ... وهو ...
منه طيور خضر لم تقع عيني على مثلها ... وانا
انظر اليها حتي غابت عن بصري، ثم ...
ثم قمت شاعرا بحياة صالحة فاصت علي كياني، واحساس ... فآليت ...
في الامر بالمعروف ... ولو ... في ...

الوجدان ...

قال الوجدان:

اخذت ... صحبه ... عما ...
العقلة، ... حرية

فرحت [illegible] احدث الدهشة [illegible] وكدني الفكر والقلق ،
[illegible] مصرى الى [illegible] واجله
في [illegible] السما [illegible] لركوبه
[illegible] احد [illegible] الوم فقبل مسروراً
[illegible] الى عرض
البحر [illegible] الروث ، ورأيت
[illegible] للاستمرار
في [illegible]

[illegible] وصار [illegible] وسط
[illegible] العسير [illegible] كلما اعيت
[illegible] اردات [illegible] الريح ،
[illegible] فأقلت
[illegible]
[illegible] واكن
[illegible] خطوره
[illegible] أشده
[illegible]

[illegible] في حبابي ،
[illegible] مذعوراً ،
[illegible] الجروه
[illegible] ادا امه
[illegible]
[illegible] واست
[illegible]
[illegible] الحيم ادا شيء

يهوي الي من بلعوم الحوت، فأصغيت فاذا انا برجل يولول، قد اوقده الى هذا المربطن مثل الحادث الذي دفعني فيه

فقلت من الرجل ؟

فصاح بي ، وقد زاد ذعراً على ذعره قائلا من انت ؟

قلت انا رجل مثلك دفعني القدر الي مادفعك اليه

فقال أوفيك بقية من نفس تسألني بها من انا ؟

فقلت ياهذا نحن في هذا المأزق الخطر احوج ما نكون الي استعمال العقل والروية

فوالله مازاد على ان استرسل في الانين، وما شككت في انه ملاق حتفه هلعا قبل ان يقتله الحوت هضما

فصحت به قائلا :

ان كان ولا بد من الموت ايها الرجل، فلنمت كما يموت الكرام بنفوس هادئة ، وقلوب رابطة ، ولكني أربأ بنفسي ان اموت قبل أن استنفد كل حيلة

فقال لعلك قد أصبت بجنون من عظم المصيبة. فأى حيلة تنفعك ايها الرجل ، وانت فى جوف حوت يمخر في قاع البحر ؟

فقلت والله لاأيأس من روح الله مادام فىّ رمق، أمعك سلاح ؟

قال معى سيفى ولكني لااستطيع ان أناولكه من شدة الدوار الذى لحقني

قال الوجدان : فتحاملت نحوه وامسكت بمنطقته بعد جهد جهيد واستللت سيفه. وقلت باسم الله واخذت امزق ماتصل اليه يدى من احشاء الحوت

فما هي الا لحظة سرى فيها الالم اليه حتي اعتراه اضطراب كدنا نتحطم منه في جوفه من شدة ماأصابنا من مخضه

ثم عدا واسرع في سيره، ثم شعرنا انه وقف وتراءى لنا من خلال جلده نور، فما شككت انه رسي على ارض، وانه مات، فأسرعت بتمزيق احشائه لنخرج ، وسرى الامل الي رفيقي، فأخذ يعاوننى وسوائل الحوت تسيل على رؤوسنا . وما زلنا نجاهد حتي خرجنا من جنبه. وعجبت كيف لم نختنق فى بطنه من عدم الهواء

قال جزاك الله عني خير ما يجزي به اهله. وأكب على يدي يقبلها ثم شخص الي

ببصره وقال: بم حصلت هذا التبصر عند الشدة، فانه خير ما يقتني المرء من العدد في هذه الحياة المملوءة بالمعاطب ؟

قلت بالعقل

قال الناس كلهم عقلاء ، فلماذا يتفاوتون في هذه الخاصة ؟

قلت ان من عقل انه لامحالة ميت، وانه ان لم يمت طوعا مات كرهاً، تدبر ذلك وعقله ورده في نفسه كلما عرض له ذكر الموت، هانت عليه الشدائد وزايله هلع الاطفال، وذعر الحمر الوحشية ، وملك قياد نفسه عند نزول المصيبة ،واتسعت له وجوه الحيل ،وانبسطت له وسائل النجاة الممكنة . فان قدرت له نجاة وفقه الله لاستخدام احدى تلك الوسائل، والا اسلم وديعته لبارئها وعليه سكينة الصالحين، ورزانة الصديقين

قال صدقت وكأني بك بدلا من ابدال الله في الارض، او قطباً من أقطاب الحكمة فيها

ثم التفت الي وقال :

اننا نتهادى نجات السلامة، ولكننا نسينا اننا قد وقعنا في خطر قد لا يقل عما كان في بطن الحوت

قلت وما ذاك ؟

قال اننا الساعة على جزيرة جرداء ، لاعشب فيها ولا ماء ، وكأني بها خالية من السكان

قلت سر معي نضرب في هذه الصحراء فلعلنا نصادف ما يكون سببا في نجاتنا

قال الوجدان : فسرنا اميالا فلاحت لنا شارة حياة، زروع وضروع، وخيام وآطام ، وطيور محومة في الجو . فقلت أبشر بالفرج

ثم سرنا حتى قربنا من خيام مضروبة لا يحصي لها عدد، وفي ساحاتها رجال ونساء وولدان، وقد اجتمع كل فريق مع مشاكله سنا وجنسا، وقد افترشوا من الاعشاب ابسطة سندسية، قد حلاها نثار الزهور بمثل النقوش الحريرية المختلفة الالوان ، وفي خلال تلك الطنافس غدران لولا جريان مياهها لخلتها أعمدة بلورية

وضمت بين تلك ال... بجيره المد...
ورد به الاهاب...
فا وقف اعينهم ...
بعيد فبادره ...
الخيام وثبا ...
جسما ...
تلك الخيام ...
وحليب الا ...
وقال من اين الصيفان ...
فقصصنا عليهم اخبار ...
الماء وكما كلما اوغلنا في ...
واقبلوا علينا بآدابهم
فلما فرغنا من ذكر قصتنا نظر اكبرهم الينا وقال: مرحبا بكم ...
في البداوة ولستم من اهلها ؟
قلنا ...
وأجملتم المواساة ...
المنعزله عن العمران
قال نعم : ... بن عاقل من ...
ابن ذي يزن ...
معتمدا ان ...
الكذب والخداع ...
وجريه وراء البذخ ...
سنين ...
ورأى انها لا تزال ...
وبيم على انقاضها امة سواها

فقادته هذه التأملات الي وجوب اعتزال بي نوعه، والاكتفاء بأهله ليجعل منهم امة يأخذها بالادب الذى تخيله أليق بحياة الانسان. فاصطنع له سفينة واخذ فيها اهله ومن كل حيوان نافع زوجين، ثم زج بنفسه في البحر تحت رحمة الامواج فقذفته الرياح واهله بعد مئة يوم الى هذه الجزيرة، فرآها جرداء مرداء، لا سكن بها ولا انيس، فنزل اليها حامداً مولاه على ان هداه الى ما يريد من العزلة، واخذ يعمل بما يعلم من ضروب الزرع والاستعمار ليعيش هو واهله بسلام

وقد بذل وسعه مذ حل فى هذه الارض في ان يربي اهله وبنيه على الفضيلة الصحيحة، معتقداً انها هي السعادة التي ينشدها النوع البشري، وما عداها من زخارف الصنائع، ومموهات الاشياء، فأباطيل اصطلح عليها لا تزيد الآخذ بها الا بعداً عن لذاته الحقيقية التي مقرها روحه لا جسده

قلت وهل انتم سعداء بالمعني الذي كان يريده جدكم الاول ؟

قال ان كانت السعادة صحة الجسم والعقل، وراحة البال وطول العمر، ومشارفة عجائب الروح وجلائلها، والعيش مع امثالنا اخوانا متراحمين، بلا ظلم ولا انظلام، فنحن سعداء بالمعني الذي كان يتخيله جدنا الاول

واما ان كان فوق هذا سعادة، فذلك مما تعلمونه انتم وفى وسعكم ان تهدونا اليه

قلت يؤخذ من قولكم انكم لا تمرضون . ولا تحزنون، ولا تتزاحمون فتعتدون

قال كان جدنا يقول ان الجسد آلة حية وهبها الله لصاحبها فان احسن استعمالها فلم يدفعها فوق طاقتها، ولم يقصر بها عن حقها، بقيت له ما قدر لها ان تبقي دون ان يصيبها اقل عارض . وان عوملت بالطيش . وعولجت بالعنف، وردت الموارد ، وتعرضت للموبقات، وربما بادت قبل بلوغ حدها. فنقش في اذهاننا هذا الادب حتي جعله فينا طبيعة، ولذلك ترانا لا نأكل حتي نجوع، وان أكلنا لا نشبع، وقد علمنا ان الله لم يوجد فى حواسنا الشعور بالمحاب والمكاره عبثا . بل بمنزلة الادلة لنا على الافراط او التفريط . وعلى الفعل او الترك، فنصبنا حواسنا حراساً علينا . فان شممنا ما نكره أزلناه حتي لا نشم الا ما نحب، وان أحسسنا بما نستنكر، تحولنا عنه الى ما نستلطف ، وان شعرنا ببرد تدثرنا ، أو بحر خففنا ، وان طلبنا النوم نماء ، أو

المشي مشينا ، لا نحمل أعضاءنا على ما تكره . فكانت نتيجة اعطاء كل عضو حقه في جسدنا ان فاضت على مجموعها صحة لا مرض معها، وفاض علي قلبنا منها ارتياح لا ضجر فيه

قلت أليس فيكم من يعبث بالامن ، ويخل بنظام الجماعة ؟

فقال لقد عشت من العمر مائة وخمسين عاما فما اعتدي في قرانا رجل علي رجل بما قل او كثر

قلت أولا يغضب احدكم علي اخيه فيشتمه . فيؤدى التشاتم الى تلاكم ؟

قال يا ابن اخي الغضب بلا سبب عرض من اعراض فساد المزاج، وفساد المزاج عرض من اعراض اختلال المعيشة، وقد ذكرت لك ان معيشتنا علي اكمل ما يكون من نظام فكيف يتطرق الفساد الي المزاج، ومتي كان المزاج سليما فكيف يعتري صاحبه الغضب ؟

اما ان كان هناك سبب يحمل الشخص علي المدافعة عن نفسه، أفلا تسمي هذه المدافعة غضبا ، اما العدوان فقد قلت لك انه اسم لا نعرف مسماه

قلت ألا يحدث ان احدكم يحسد اخاه علي ما عنده ، فيحدّث نفسه بسلبه او باغتياله ؟

قال انا قطعنا ذرائع هذه الشرور بأن جعلنا مال الله مشتركا بين عباد الله. فترانا جميعاً نعمل في مزارعنا فما حصلناه من خيرات الارض اودعناه فى خزائن عامة، لكل عامل الحرية التامة في ان يأخذ منها ما يريد فى اى وقت يريد، وبذلك بطل فينا الميل للادخار، وبطل ما يتبعه من الغني والفقر وعلو البعض علي البعض، وما يجر اليه ذلك من التعادى والتزاحم والتسافك

قلت والى اى مدي بلغت قوتكم الروحية ؟

قال الي حيث يكفى احدنا ان يغمض عينيه ويقطع خواطره ليسري مع الارواح المجردة فى عالمها

فنظرت الي وجه صاحبي فى الحوت فقلت له ألا تسمع ؟

فقال يخيل لي انهم في الجنة

قلت ألا تمر بكم السفائن ولو فى كل عام مرة ؟
قالوا ما رأينا السفن عمرنا
فقال صاحبي في بطن الحوت: لقد ضعنا ياوجدان، فما الحيلة ؟
قلت هون عليك سيجعل الله بعد عسر يسرا

فأشرت علي رجال من تلك الامة ان يقطعوا جذع شجرة غليظة. ففعلوا. فأخذت منهم الاداة وظلت احولها الى شكل زورق. واستعنت بهم علي حفر باطنها فما مضي أسبوع حتي اصبح لدينا قارب يبلغ طوله بضعة أمتار ويؤمن علينا فيه من الغرق ثم اخذنا من القوم ذخيرة من الثمار الجافة تكفينا عاما كاملا وودعناهم وداع الاصفياء

نزلنا الي الزورق وما كدنا نستقر به حتي اندفع كأنه مسير بالبخار، ومضت علينا ايام فيه، ثم تراءت لنا سفينة فما زلنا نصيح بها حتي التقطتنا باعتبار اننا غرقى وعلمنا انها تقصد سيسيليا

فسارت السفينة اسابيع حتي وصلنا الجزيرة، ونزلنا مع النازلين، فوجدنا عالما غير الذي كنا فيه، عالم حركة و نشاط ولكنه مشوب بأقذار التزاحم الحيواني، والتنافس الجنوني ، حتي ليكاد الاب ينكر ابنته هنالك

رأينا معالم المدنية باهرة، وأعلام الزخارف ظاهرة، ولكننا لم نتنسم فيها نسمه، ارتياح وطمأنينة ، كأن تلك المعالم قامت علي دماء الناس ومهجاتهم

نتلفت يميناً ويساراً فنري الناس علي أجمل زي، وأبهى مظهر ، ولكننا نقرأ في وجوههم آية الحزن والكمد. كأنهم قد أشعروا بأن ما هم فيه حال كاذبة، وخيال باطل نرى المادة الصماء قد أخذت حياتها وازينت، حتي لتكاد تنطق للناظر، ولكنها حياة تميت الفضيلة، وتطفىء جذوة الشعور العالى، ولا تبعث الا للحيوانية الباحتة

سرنا فى باحات الميناء قليلا فلم نصادف من القوم رجلا يدعونا الي قرى، او يعطف علينا بكلمة تؤاسي الغريب، وتزيل عنه الوحشة، بل كنا نرى القوم يسيرون سكوتا لكل امرىء منهم شأن يغنيه عن غيره، ولقد رأيت شيخاً مادا يده يستعطف الناس ويستجديهم فما امتدت اليه يد ببرة، حتي خيل لي انه مائت من ليلته ، لشدة

ما اخذ الحرمان من صحته

فقلت لصاحبي ما ترى ؟

قال أرى حياة حيوانية ، تخدمها عقول انسانية

قلت له ما أقسي حكمك، أتحتقر كل هذه المظاهر الباهرة ،

قال ما احتقرتها ولكني وددت لو كان بجانبها للروح مظهر، أما وهي على ما ترى فكالشبح بلا حياة

قلت لا تسرع في الحكم حتى تخبر القوم

فما انتهيت من قولى حتي شارفنا باب الميناء. فطلب الينا العامل جواز السفر، فحكينا له قصتنا، فما كاد يرفع يده باشارة حتي انقض علينا جنديان وساقانا الي الضابطة. وهناك شرع محقق فى استطلاع احوالنا فلم يدع صغيرة ولا كبيرة الا سألنا عنها

وما راعنا الا قوله انه اشتبه فى امرنا، ولا بد من استيفاء التحقيق معنا. فأمر بنا فأدخلنا الي السجن فظللنا فيه اياما

ثم ظهرت له نزاهتنا فأمر باخلاء سبيلنا، فخرجنا حامدين الله علي السلامة. فمضى اليوم وشطر من الليل ، فقال لى صاحبي قد أمضني الجوع فما الحيلة الى الغذاء ؟

قلت هلم بنا نبيت الليلة تحت ظلة المحطة فاذا اصبح الصباح بحثنا لنا عن عمل يحصل منه القوت

فبينما نحن جلوس واذا برجل جاء علي بعد منا فوضع رأسه علي القضيب الذي يمر عليه القطار، فظننته سقط مغشياً عليه، وخشيت ان يداهمه القطار فيميته، فأسرعت اليه فرفعته ، فأخذ يجاذبني نفسه ، ويدافعني عنها

فقلت له : ألا تدري ان القطار يوشك ان يمر علي رأسك فيحطمها ؟

فقال ياهذا انصرف عني بسلام ، وهل غير هذا قصدت ؟

فأخذتني عليه عاطفة الاشفاق ، فقلت له وما دهاك حتي اعينك عليه ؟

قال مضي علي اسبوع لم أذق فيه طعاما ؟

فقلت له ولم لا تعمل فتكفى نفسك المسغبة ؟

قال انني أعرض نفسي علي المعامل منذ شهر فلا أجد موضعا خاليا

فلما آنس اقتراب القطار سعى في التخلص مني واشتد في ذلك وانا انازعه حتي نشبت بيني وبينه شبه مصارعة وشاركني صاحبي فما راعني الا شرطي علي رأسنا يجاذبنا خناقنا، فأراد الرجل التخلص من الشرطي حتي لا يفوته القطار الآتي، فظنه الشرطي يحاول ضربه، فصفر مستغيثا وما هي الا كغمضة من العين، حتي احتاط بنا شرذمة من الجند فقادونا لدار الشرطة

فقضينا ليلتنا في سؤال وجواب، حتي كدنا نهلك جوعا واعياء. وتبين لمدير الشرطة اننا غرباء بلا عمل. فأمر بترحيلنا الي مصر وأنزل معنا في هذه المرة نحو الخمسين متشرداً، من أمم مختلفة، وفيهم الشاب الضالع، والشيخ الظليع وما بينهما

فلما شارفنا مدينة الاسكندرية قال صاحبي وكان من المغرب، ترى بماذا نقابل في مصر هذه الطغمة المفسدة ؟

قلت بالترحيب والحفاوة .... فدعك من هذا وقل لي ما رأيك في جملة ما وقع لنا ؟

قال خذها في كلمتين

قلت لا والله الا شعرا، فاندفع ينشد :

جبت المخاوف والمخاطر فرويت مالم يرو شاعر
وجمعت ما بين البدا وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله بحقيقة تغني المكاثر
هي ان هذا الناس قد سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة في التأ نق والتظرف والتفاخر
واقامة الدور الشوا هق والعلالي والمقاصر
والجري اعقاب اللذا ئذ والتورط في الكبائر
وهو افتتان بالقشو ر ووقفة حول الظواهر
اما السعادة فهي في ان تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذي شقت لمطلبه المرائر
وتنال من معناك ما حرمته همات قواصر

ان ترتقي بالروح حيـ ث الحق عالي القدر سافر
حيث الفضائل تزدهى بثيابها القشب البواهر
فهناك فانشد قول من علم الحقيقة علم خابر
هذي السعادة فارجها واظفر بها ان كنت ظافر

فقلت أجدت فعلام عولت ان رجعك الله الي وطنك سالما ؟

قال محاربة المدنية جهدي ، فخير للامة ان تعيش سعيدة محرومة من زخارف الصناعات ، من ان تعيش شقية مغمورة في المموهات

قلت هب انك استطعت بقوة البيان، ان تصد امتك عن سبيل المدنية ، فبأى وسيلة تحميها شر الغازات الاجنبية ؟ ألا ترى انه لو هاجمت افسق امة جزيرة بني حكيم لتغلبت على اهلها ، ولم تغن عنهم فضائلهم شيئا ؟

قال صدقت

قلت فعلام عولت ؟

قال على لزوم بيتي، والاكتفاء بنفسي، حتى ألقي الله خالصاً مخلصا ولا أشارك امة تتورط في مخازى هذه المدنية الحيوانية

قلت تعيش بين ظهرانيها، وتزعم انك لست منها؟ الاولي بك بطون الكهوف، او قلل الجبال، ثم لا تكون اتيت بفضيلة غير حبك لذاتك، حبا أقطعك عن بني جنسك

قال فما العمل ياابا البحث ؟

قلت خذها في كلمة

قال لا والله الا شعراً كما شرطت علىّ

فأخذت انشده :

ضل اهل الالمعيـة فى علاج المدنيـة
هي من اقدم عهد عضلة العلم القوية
هى للجثمان غنم وهي للروح بليـة
والذي قر عليه الر أي من أهل الروية
انها شر ضرو ري لخـير البشرية

فقال أصبت والله ، وكم في الحياة من شر ضروري

قال الوجدان : ثم مكث في ضيافتي اياماً حتي تهيأ له السفر الي وطنه، فودعني ورحل ، واصبح من رجال الفكر والعمل

الوجدية الخامسة عشرة

قال الوجدان :

خرجت من داري أصيل يوم صح جوه، واعتل نسيمه، رجاء صديق اقابله فازامله، أو عمل يبدو لي فازاوله، فأرخيت لرجلي العنان تحملاني الي حيث اتفق، حتي انتهيت الي خارج المدينة، وهنالك استقبلني النسيم بما حمل من اريج يفغم الانف، وحياة تنبه الشعور، فاندفعت أسير، وكانت الشمس على بعد مترين من سطح البحر، وقد أرخت ذوائبها الذهبية تتألق على مرآة ذلك الخضم الساكن، والاشجار عن يساري وبين يدي تتراوح افنانها مندفعة بانفاس ذلك النسيم الرطب، فحلا لي السير وأمعنت فيه، وبينما انا اتهادى بين تلك الربى والادواح، واذا برجل قد التحف رداءه، وتوسد ذراعه، تحت دوحة من تلك الدوح وقد أخذته عينه فنام ، وقريب منه أفعوان فاحم اللون، يلوح على عينه الشر، وقد رفع رأسه يطل على وجه النائم إطلال الشؤم على وجه اليائس، فقلت في نفسي لقد ضاع الرجل، اذ لا يبعد ان يرفع يده، او ينقلب على جنبه فيخاله ذلك الارقم قاصداً اياه بشر فيلسعه فيرديه، ونازعتني نفسي بين ان ادع الرجل تحت رحمة القدر، وبين ان ارد عنه عادية ذلك الثعبان، فأما لي طبع غذته النجدة، ونمته المروءة والنخوة، الى الامر الثاني، ولم يك في يدي الا عصي اتخذتها ألهية فى السير لا تدفع عن حاملها عادية ، فعمدت في الحال الى شجرة فعلوتها اسرع ما استطعت. واقتضبت منها غصنا يصلح ان اتخذه سلاحا اخيف به ذلك الصل المميت. ثم تقصدته، فما وقعت عينه عليّ حتي رفع من جثمانه ما يقارب متراً ، وفتح حنكا أوسع من فوهة القربة ، أحاطت به أسنان كاطراف الاسنة،

قد علاها نابان أشبه بلهزمي الرحيين الحادين ، يخيل لرائيهما انهما يقطران موتا زؤاماً

فكدت والله ان ارجع ادراجي، وما كنت قبل ذلك ما زلت وحشيا، ولا قارعت كاسراً، ولكن تداركتني نجدة انسانية، وهمة عربية، فعز على ان اولي الدبر وحيوانا يريد ان يفترس رجلا قد يكون ابا عيلة، او صاحب شأن، فأمعنت في الاقدام. فما أدرك والله ثبات جناني حتي وقف علي ذنبه فكان أشبه بسارية السفينة ، وصفر صفيراً دل علي مبلغ الحقد الذى يدفعه لمقابلتي، كل هذا وانا ممعن في التقدم اليه، فلما آنس مني الاصرار جمع قوته واندفع علي فناولته ضربة راغ منها والتوي اسرع من البرق الخاطف فصار خلفي، فناولته ضربة اخرى ماشككت في انها قد اصابته، فاذا هو قد أحاط بي احاطة السوار بالمعصم، وكنت اعرف من قبل ان الثعبان اذا التوي بانسان وضغط عليه قصمه، فما جالت هذه الفكرة السوداء في خاطري، حتي سمعت قائلا يصيح دعه يا (جلجل)، فوالله ما كاد يصل اليه الصوت حتي ارتخت اعصابه وسقط كأنه تخدر، فالتفت الي الصائت، فاذا به ذلك النائم وقد استيقظ مذعوراً ، فأقبل عليّ وقال ما أصابك ؟ فحكيت له الخبر ، فضحك وهدأ خاطرى ، والتفت الي ذلك الافعوان وقال له انطلق، فانطلق كأنه قد تكهرب لا يلوى علي شيء. ثم أمسك بيدي وأجلسني بجانبه، وضرب بيده علي ظهرى وقال الي هذا الحد تبلغ النجدة بأهلها ؟

قلت : والله مادفعني الى ماتري الا ان خفت ان يخونك ذلك الكاسر وانت نائم، اما وقد رأيت من طاعته لك مارأيت، فقد صار عجبي منك اكثر من عجبي من نجاتي، ولقد أنسيتني بهذه السلطة الروحانية، ماعلق بنفسي من آثار الذعر والدهش

فتبسم وتلا قوله تعالي « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »

ثم التفت الى وقال والله يا ابن اخي اني معجب بنجدتك كل الاعجاب، ولقد كان يخيل الى ان الناس قد شملهم داء الاثرة فلم يبق فيهم من يعطف علي سواه، فجئت انت بما فعلت شاهداً علي ان لله فى خلقه لشأنا، وان الفضيلة لاتزال قائمة بأهلها حتي تقوم الساعة

قال الوجدان فتركته ينادي في اطرافي رجاء ان اصيب منه علما ببعض ما عنده من اسرار الروح ، فلما فرغ شكرته ثم قلت له بلسان المتخاضع الطالب :

والله لقد دافعت عنك ولم اعلم انك من القوة الروحية بحيث رأيت، وما فعلت ذلك الا مضطرا بدافع من طبيعتي لا استحق عليه شكورا، ولقد رأيت منك ما كنت انكره اذا قرأته. فالحمد لله الذي جعلك سبب خلاص فكري من السجن الحسي الذى كان فيه، فان رأيت ان تعلمني مما آتاك الله شيئا اذكر به هذه الساعة المباركة، كان ذلك من فضلك ان شاء الله

فضرب على كتفي وضحك حتي بدت نواجذه، ثم استوى وقال لقد برحت بكم العلوم المادية يا نشيء المدارس، اما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، وركب أمشاج هذا الجسد الناطق، ان وراء هذا العالم المحسوس لعالما سبحت الارواح في جماله سبحا، واستنامت قلوب الكاملين الي بدائعه استنامة، ووالله ما بين الاحياء وبينه الا حجاب من هذا الجسد الكثيف الفاني، فالله الله في انفسكم فلا تسجنوا عقولكم في اقفاص هذه المادة الطينية ، فتقطعوا عليها طريق الحياة الراقية وتكونوا من المحرومين

ثم قال ان كان ولا بد ، فما ألقنك كلمات يسهل عليك حفظها في هذه اللحظة، تمكنك ان تنقلب نسرا متي شئت، فاني أراك مغرما بالرياضات، واستنشاق النسمات

قلت ذلك اليك ، وكل ما جدت به فتفضل منك

قال أعلى وضوء انت ؟

قلت نعم

قال هات يدك، فناولته اياها، فعاهدني على تقوى الله وطاعته، وان لا أبنى بما سآخذه عنه محرما ، ثم لقنني كلمات فحفظتها، ثم تركني. وقال اتلها . فتلوتها فانقلبت نسرا في حجم النسور الضخمة. فنظر الي وضحك، ثم حرك شفتيه بكلمات فانقلب ليثا ، فأشار الى برأسه علامة السلام، وتركني ومضي، وبقيت انا أتأمل في نفسي وأعجب ، حتي خفت ان افقد عقلي من كثرة الدهش المشوب بالفرح

فتلوت الدعوة فعدت انسانا، ثم تلوتها فانقلبت نسرا، فأنست بحالتي بعض الانس، فحاولت ان اطير وكنت لا اصدق ذلك. فوالله ما حركت جناحي حتي رأيتني على بعد

عظيم من الارض،فعرتني خشية واضطرب قلبي،وتوهمت اني هالك ولكني بسطت اجنحتي فنزلت على اهدأ ما يكون،فعلمت ان لا خطر عليّ،فطرت ثم عدت،فعلت ذلك مرارا حتي وثقت بذاني،ثم طرت وامعنت في الطيران حتي انتهيت الي ضاحية مدينة عظيمة،وهنالك وجدت دوحة وارفة الظلال،طويلة الافنان فنزلت عليها،وما استقر بي المكان حتي وجدت تحتها اربعة شبان يدل مظهرهم على انهم من ارقى افراد النشء الحي،وقد اخذوا في موضوع هام يتجادلون فيه،فقلت لاصغين اليهم،فلعل من وراء ما يقولون حكمة التقطها ، فسمعت احدهم يقول :

والله يامعشر الاخوان ان حالة النساء لدينا قد اصبحت شر حال،لا يؤجر الصابر عليها ، ويأثم المدافع عنها

فقال الثاني اصبت وماذا تنتظر من مخلوق لم ينل من العناية ما تناله بعض الحيوانات المنزلية في اوروبا وامريكا؟

فقال الثالث نحن الشبيبة المتعلمة التي يلقي على عاتقها وظيفة كل انقلاب اجتماعي ، فما يطلب دون سوانا احداث الانقلاب الذي نوده في حالة المرأة

فقال الرابع المرأة المصرية لا ينقصها شيء الا التربية فهي بما احيطت به من شريعتها الحكيمة،وتقاليد قومها، في مأمن من جميع ادواء المرأة،تلك الادواء الاجتماعية التي صارت في اوروبا وامريكا الآن خطرا يخشي من نتائجه على بناء جامعتهم

فقال الاول وقد عرته دهشة : ماذا تقول ياحضرة الاخ كأني بك من اهل العصر الماضي،ان المرأة المصرية ينقصها كل شيء اقلها رفع الحجاب ومساواة الرجال في الاعمال

فقال له صديقه وهو يحاوره : ماذا اضر المرأة حجابها حتي تطلب رفعه،وماذا آنست من خير حل بأوروبا وامريكا من تعاطي النساء لاعمال الرجال ، وقد سلختهن المعامل عن البيوت،وقوضت دعائم الاسر،واقلت اجر العمال كما ينادى بذلك علماؤهم ومشترعوهم

فصاح به الصاحب الثاني محتدا : قائلا اما الحجاب فيمنع المرأة عن التعلم،ويحجبها عن الاختلاط بالرجال في المجالس،والحضور مع زوجها في المنتديات. واما ما تذكره

من ان عمل المرأة خارج بيتها يسلخها من اسرتها الى آخر ما ذهبت اليه، فيظهر لي انك سحرت بمباحث كتاب المرأة المسلمة وغرك ما نقل مؤلفه من اقوال المؤلفين والفلاسفة

قال صاحبه وهو هادىء الضمير ساكن الي الحقيقة: نعم قرأت كتاب المرأة المسلمة ، واقتنعت بما ورد فيه من الحجج الحسية ، فهل تقوى على دحضه بنفس اسلحته ؟

قال الصديق الثالث : وقد ظهر بمظهر من يريد حسم النزاع، هونوا عليكم ايها الاخوان، فلا تذهب بكم المناقشة مذاهب الحدة، فتضيع ثمرة الرياضة. وانت ايها الصديق المعارض آخر ما نقوله لك ان المدنية تقتضي كثيرا من الشرور وهذا من الشر الضروري الذي لابد منه لتكميل بنائها، وزخرفة روائها

فقال له محاوره : هذا خطأ عظيم لا يقع فيه الا من يجهل عوامل الحياة الاجتماعية فما الذي عزمتم عليه بعد اليوم ؟

قال امثلهم عزمنا على ان لا نترك الجهاد لانالة المرأة حريتها المسلوبة، واخراجها من سجنها المظلم الي عالم الظهور ومجال الاعمال

فقال اصغرهم: هذا امر قد تحالفنا عليه ولكن ما الرأي . قد أوشكنا على الزواج؟

قال اكبرهم: اما انا فيستحيل على ان اتزوج بمصرية لا تناسب معلوماتي ، ولا أجد فيها الشريك الراقي لحياتي ، وقد آليت ، من عظم ما استحوذ على فؤادي من هوى المدنية وحريتها المطلقة، ان اتزوج بامرأة حقوقية ممن يتعاطين المحاماة، فواها واهاً لمن يظفر بواحدة من اولئك الكاملات، انها لاشك تملأ العين والقلب معا

فقال الثاني: اما انا فميلي كله ان اتزوج بطبيبة فاني اميل للمباحث الحسية، فتكون لى خير شريك في حياتي العلمية

فقال الثالث: اما انا فسأبذل قصاري جهدي للتزوج بامرأة سياسية فعساي ان اجد فيها المثال الجميل الذي اتخيله طول حياتي عن المرأة الراقية

ثم نظروا الي الرابع وقالوا وانت علام عولت ؟ وضحكوا طويلا

فقال لهم اما انا فوالله لا اتزوج الا واحدة من بنات قومي وغاية ما اتحراه فيها ان

تكون متعلمة مهذبة، لااشترط فيها كما يشترط اهل البطالة مالا ولا جمالا ويكفيني منها اصل كريم ومنبت طاهر، تلك ارجو ان اعيش معها على اهنأ ما يرمي اليه خيالي في هذه الحياة وادعو الله لكم التوفيق

فقال له احدهم: هيهات هيهات ما تطلبه من الهناء مع من لم تعرف معني الوجود، ولا تخرج من بيتها الا في مثل لفائف الطفل القاصر

ثم نظر بعضهم الي بعض وقالوا: هلم نتعاهد على هذا العمل ونجتمع هنا بعد اربع سنين ليصف كل منا ما عسي ان يكون صادفه في عيشه من هناء وصفاء، وهذه المدة كافية للتجربة وللاوبة من رحلتنا

ثم قالوا قضي الامر، وبطل الجدال، فنستودع الله انفسنا على نية الاجتماع تحت هذه السرحة بعد اربع سنوات كاملة تمضي من هذا اليوم، ثم انطلقوا وهم يتضاحكون

قال الوجدان: فعجبت مما سمعت وكتبت في الحال يوم الموعد وساعته بمذكرتي لاحضر مجلسهم بعد عودتهم من تجاربهم، وكانت الشمس قد غابت، فطرت حتي قربت من المساكن فتلوت الدعوة فعدت بشرا سويا، وقصدت بيتي فرحا بما اوتيت من هذه الخاصية العجيبة، وظللت استطيل الايام شوقا الي ذلك الموعد حتي كان يوم الجمعة الماضي فخرجت الى الخلاء، فلما توسطت البيداء، تلوت الدعاء، فانقلبت نسرا فطرت حتي وصلت الي السرحة المعهودة فحططت عليها، فوالله ماجاءت الساعة المعينة حتي جاء الاول ولاح الثاني والثالث من بعيد، فما تلاحقا حتي ظهر الرابع، فما وقعت الاعين على الاعين حتي اخذوا يتهادون التحايا، ويتبادلون التسليمات، وتخلل ذلك قولهم متي سافرت ومتي جئت، وبماذا كنت تشتغل الخ

ثم بدأ صاحب الزوجة الوطنية الكلام فقال: باسم الله افتتح الجلسة الموعودة، فليؤد كل منا امانته التي عاهد الله عليها تحت هذه الشجرة، ثم تضاحكوا ونظر بعضهم الي بعض نظرات تنم عن معان كثيرة، فقال احدهم ليتكلم اكبرنا سنا ثم من يليه ثم من يليه علي الترتيب

فشخصت الابصار للاكبر واحدق به رفاقه، وبدت علي وجوههم آثار الشوق لاستطلاع ما عنده فاندفع يقول:

والله ايها الاخوان الاوفياء لقد دفعتني فيما اندفعت اليه عاطفة ليست من الهوى ولا من التقليد، ولئن كنت لم اصب فلم يعدني الاجر على اى حال، ولعلي بما فعلت اصبح حجة على سواي ممن يودون انتهاج نفس الطريق الذى انتهجته

فقال صاحب الزوجة الوطنية : انما يعرف الكتاب من عنوانه ، اللهم طارقا يطرق بخير

فعلا صوتهم بالضحك حتي كادوا يستلقون على الارض، ثم قال واحد منهم يظهر لي من اجماعكم على الضحك ان البلوى عامة، ومتي عم المصاب هان، فلنتكلم على اطمئنان. فأخذ الاول يتم حديثه فقال :

علمتم اني اجمعت مذ عزمت علي الزواج ان اقترن بنابغة من نوابغ الحقوق لتخيلي ان المرأة اذا درست كل ما تقتضيه تلك المهنة الشريفة تصبح من اكمل النساء عقلا، وادعاهن لاسعاد نفسها وزوجها واولادها، وكنت كلما تخيلت علو مداركها وسعة اطلاعها ، احسبني سأنتقل بمجالستها الي عالم يغبطني عليه سواي ممن لم ينل مثل هذه الحظوة

فما وطئت باريس حتي اخذت اعرض علي نفسي نساء المحاماة، فكنت كأني اعرض عليها كتيبة من اهل الدمامة والطعون في السن. فلم اصادف بينهن واحدة عمرها اقل من الخمسة والثلاثين ، فما زلت ابحث حتي عثرت بواحدة تناسب سنها سني ، فأخذت ابذل قصارى جهدي فى اماتتها للاقتران بي، وهي تأبي محتجة بأن ذلك لا يكون الا اذا حصلت علي مركز يليق بمعلوماتها في الهيئة الاجتماعية، وقدرت له امدا يبلغ عشر سنين

فما زلت اتوسل اليها بالوسائل المختلفة حتي قبلت ولكنها اشترطت ان يكون العقد مدنيا لا دينيا، ليكون لها القدرة علي حل عقدة الزواج متي لاح لها وجوب ذلك، واخذت عليّ من الشروط مالا يرضاه الا صاحب هوي ، فلم اعارض في كل ذلك

تم العقد وحصل الاقتران فهيأت نفسي للرتوع في حقائق خيالاتي السابقة، فرأيتني ابعد خلق الله عنها ، بل ابعد خلق الله عن معني الحياة البيتية

مضت الثلاثة الايام الاولي في هدوء وسكون وكان مدار احاديثنا بل احاديثها

علي القضاء والحقوق،والقوانين والشرائع، ومن من المحامين بزّ مناظره في المرافعة، ومن منهم شهد لخصمه بالسبق،وانا لا اشعر بثقل هذه المواضيع لانها جديدة ولكل جديد لذة،وما مضت الايام الثلاث وسالنا انفسنا من حجرة العشاء،حتي ناولتني كتابا وقالت "تَلَه" بهذا ودعني في حجرة الاعمال فان وراني غدا قضية قتل دعيت للمرافعة فيها وعليّ ان استجمع اسانيدها بامعان

فدهشت اولا لهذه المفاجأة،ولكني لم استثقلها كما يجب ان يكون،لانها كانت اول الوقائع من قبيلها،فجلست والكتاب حتي اتيت علي آخره،فأطللت علي صاحبتي من الباب،فاذا بها بين اسفار دالوزوكار بنتييه في شغل شاغل،فما لاح لها شبحي حتي صاحت بي راجية مني الابتعاد، زاعمة ان الامر الذى يشغلها لايحتمل المقاطعة فانثنيت وفى قلبي شيء

دقت الساعة احدعشر ثم اثني عشر و ناهزت الواحدة فاذا بصاحبتى مقبلة تتصبب عرقا،فاستلقت علي المنضدة لاتبدي حراكا ، ثم عمدت الي قليل من ماء الكولونيا فأصابت منه نشقة ، ثم آذنت بالنوم فنمنا

فما راعني الا حركة في الحجرة قبيل الساعة السابعة،واذا بها تبحث عن بعض ملابسها،فقلت ماذا تبغين؟فقالت أتراني أزعجتك؟قلت لا بأس،قالت لاتؤاخذني فان الامر يقتضي الاسراع،وسيكون لى اليوم في المحكمة شأن عظيم،وقد أوصيت الخادمة بأن تصنع لك ماتريد

قلت لاضير،وفى القلب أثر سيء،وسرعان ماانفتلت بمحفظتها وخرجت. فقمت واصلحت شأني وخرجت الي عملي حتي كانت الساعة الثانية عشرة، فأبت الى داري لاتغدى ولم تعدهي،فأسرعت الي التليفون وسألت عنها،فأجابتني بأن المرافعة ستمتد الى مابعد الظهر وانها مضطرة للغداء مع بعض الزملاء . . . . للمناقشة فى موضوع القضية ...

فكدت افقد صوابي،وادركتني الغيرة الشرقية،ولكن هواى أوهمني بأن هذه الغيرة بقية من بقايا اسر المرأة ، علق فى نفوسنا ولا محل له في عصر المدنية

امضيت بالمنزل ساعتين وحدي ثم انصرفت الي عملي وابت بعدالساعة الثامنة

فوجدت صاحبتي واجمة لاتبدي حراكا، وقداخذالاكتئاب منها ماخذه، فتلطفت في السؤال منها، فاخبرتني بانها خسرت القضية ولم تتمكن من تجليتها للمحكمة كما كان يجب ، فقلت لابأس عليك ، امامك الاستئناف

قالت نعم، ولكن خسارة القضية تؤثر على سمعتي، وقد كان في وسعي ان ايدد كل المغالطات لو كنت احسنت تحضير القضية ليلا، وما اخرني عن الاحفاء في درسها الا اني راعيت انك ضجرت من انتظارى

قلت في نفسي والله حسن، اليوم تعرض بأني سبب فشلها تعريضا، وغدا تصرح به تصريحا، فوجمت، وحضر العشاء ونحن صامتان، هي تفكر في شأنها، وانا افكر في مصيبتي بها، وبينما نحن نتناول الغذاء، واذا بالجرس يرن ودخل الخادم يقول: المسيو شارل المحامي يريد مقابلة السيدة، فبدرته بقولها أدخله الي قاعة الاستقبال، ونظرت الي بتلطف وقالت هذا زميلي في مرافعة اليوم وهو من اكبر المحامين شأنا

فأجبتها بما يناسب المقام وقلبي يكاد يتمزق غيظا، وأسرعت في الطعام ثم قامت تهرول له، وبعد هنيهة دعتني لتقدمني اليه، فتبعتها اسحب رجلي سحبا من شدة ما اخذ مني التأثر، وبعد تناول القهوة اخذا في المناقشة واستهترا فيها حتي رأيتني مهملا بينهما، ولولا الغيرة لتركتهما وشأنهما، وارحت نفسي من تصاخبهما، وكنت كلما مرت ساعة، امني نفسي بانقضاء المجلس في تاليتها، وما زلت كذلك حتي دقت الساعة الواحدة ، فقطنا لما ألم بي من التبرم نخف المسيو شارل للقيام مواعدا السيدة على مقابلتها غدا في نادي المحامين .....

مضت تلك الليلة على ماوصفت، فما لاح الصباح حتي اسرعت صاحبتي لايقاظي متحامية ان تعيد مافعلته بالامس من الانسلال من البيت قبلي، واسرعت في تهيئة كل شيء ناظرة الى الساعة بين كل لحظة واخري، وما كدنا نفرغ من الافطار، حتي دفعتني دفعا للنزول، وما توسطنا شارع البيت، حتي انطلقت هي ذات اليمين وانطلقت انا ذات الشمال، فأتبعتها بصري ، فلم تمر عشرات قليلة من الامتار، حتي صادفها زميل من زملائها فسارا معا جنبا لجنب

مضت على هذه الحال ايام، وما راعني الا قولها لي ذات يوم انها مضطرة للسفر

الى بوردو للمرافعة في قضية هنالك،فلم املك منعها،فذهبت وعادت بعد ثلاث ، وصار يتكرر سفرها كل شهر ثلاث او اربع مرات

مضت سنتنا الاولي وهلت الثانية،فكانت الشهرة التي نالتها صاحبتي زيادة فى تنغيص حياتي المنزلية،حيث صار البيت قطعة من المحكمة،ومثابة لزملائها في الصناعة، فكنت أحرّق الأرّم ولا املك لردها عن ذلك حولا ولا حيلة

في هذه الاثناء احست السيدة بوحام فلا تسل عما قاسته فى عملها من المشاق، فكم جاءت من المرافعة وهي على شفا الاجهاض،فأمضت من نتائج هذا الاضطراب اياما وليالى فى مرض يكاد يودي بها ، ولا تسل فى اثناء انقطاعها ، عن تردد اصحاب الدعاوي على البيت ، واظهارهم التأثر من مرضها تأثرا مشوبا بالتبرم من فوت مصالحهم

فلما انقلت كانت وظيفتها عليها عبئا ثقيلا،وكانت تلفت انظار الناس في الجلسة، وكثيرا ما كان ينقطع صوتها في اثناء المرافعة فيأذن لها القضاة بالاستراحة

جاء دور الوضع واضطرت لتمضية مدة النفاس بالبيت،فكانت تلك المدة اثقل عليها من ايام السجن على المظلوم،فما مضت ايامها حتي اسرعت باستحضار مرضع لطفلها، واخذت في شأنها علي ماوصفت لك،ولا تسل عما لقي الولد من اهمال المرضع وسوء اسلوبها في التغذية والتربية،فأصيب الطفل بنزلة معدية معوية اسهرتنا من جرائها ليالي، فكانت تضطر بحكم وظيفتها ان تترك الولد بين يدى مربيته ويدي وتذهب الي غرفة عملها تمضي ساعات والطفل يصيح ولا مغيث له

فكنت اتأمل في وجهها فى تلك الاثناء فأراه فاقدا حنان الامومة،واراها كلما أمعنت في عمل الخارج اكتسبت شكلا رجليا ينفر الطبيعة بتأثير خاص

مضت على ذلك ثلاث سنين مات في اثنائها الولد بعد ان كابد آلاما لا تطاق، وجاء شهر مايو فأخبرتها عن عزمي على السفر الى مصر لارى اهلي وخلاني،فوالله مارأيت في وجهها حنان الزوجات ولا عطفهن،وجاءت لتوديعى علي الميناء كأني ضيف مسافر ، لا أليف مفارق

هذه قصتي ايها الاخوان ، ووالله لقد أصبحت أفضل العزوبة على ما انا فيه ،

وقد عاهدت الله ان لايجمعني واياها بعد اليوم جامعة، وكفاني ما كابدته في الثلاث السنين معها

فنظر زوج المصرية الي الثاني وقال: هلم ياحضرة الاخ شنف اسماعنا بخبرك السار، خيراً اللهم خيراً

فقال والله يااخواني مامصابي بأخف من مصاب صاحبي، ولقد علمتم اني ملت للزوج بطبيبة، فبعد ان وقعت فيما وقع فيه من فقد المثل في السن والصورة، عثرت على واحدة قيل انها متخرجة في الفنون الجراحية، فعمدت لامالتها الي الاقتران بي وبذلت في ذلك السبيل مالا جما، فكان حديثها الطب والعقاقير، وذكر المجاريح والمكاسير، وهذا ليس بشيء في جانب قولهم ان السيدة مدعوة الي قونسولتو فتذهب مع عدة زملاء الي حيث لا أعلم

وقد رضيت بهذا كله وما راعني بعد ان امضيت معها اياما الا بدقات متوالية على الباب في ساعة متأخرة جدا في ليلة ليلاء، من ليالي الشتاء، فقمت من الفراش يكاد جسمي يجمد من شدة البرد، واذا بالطارق رجل يدعو الطبيبة لاسعاف محروق حالته تستدعي الاغاثة، فاضطرت ان تقوم في وسط الليل الدامس لتلبي دعوة الداعي واضطررت ان أنزل معها فأمضينا في بيت المصاب ساعة كانت اشد من جميع تكاليف حياتي، ثم عدنا، وما مضت ليلتان حتي طرق الباب طارق على نحو الليلة السابقة واشتهرت صاحبتي بالاسعاف فصار لايدعي لهم ليلي سواها، حتي اتفق انها دعيت في شهر فبراير الماضي احدي عشرة مرة بعد الساعة الثانية من الليل

وكانت كلما اشتهرت بالحذق كثر عليها الطلب، وملئت اوقاتها بالزيارات والعيادات فصار البيت أشبه بمستشفى، واكثر من هذه الصفة تأثيرا علي ان السيدة من شدة شغفها بالطب، او حذقها في التشريح، جعلت بدل التحف التي يحرص عليها النساء فوق الموائد والرفارف قحوفا بالية واضلاعا متآكلة، وجماجم نخرة، ويزيد على ذلك رائحة حمض الفنيك التي كانت تهب من ثيابها بدل الاعطار الزكية، فكان هو لي بها أشد هول وناهيكم بمن يرى نفسه في مستشفى ابدى

اما اللذة البيتية وما كنا نتخيله من الحنان والانعطاف بين الزوج وزوجه، فكان

خيالا عفت الحقيقة المرة علي اثره من ذهني، وصرت اغبط حياة الجاهلين لاعتقادى الراسخ انها اقرب الي جمال الفطرة من هذه الحال المتكلفة

قال الوجدان : كل هذا والثالث ساكت واجم ينم وجهه علي ان مصابه أشد من مصاب صاحبيه، وما انتهي الثاني من حكايته حتي ابتدر الثالث وقال :

ان مصابي ايها الاخوان اشد مصاب. وهو العجب العجاب، والحديث الذي يتناقل ولا يستطاب

ذهبت الى الغرب شغفا بالمرأة السياسية. فلم اجد المشتغلات بها شغلا جديا الا كل عجوز شمطاء، ودردبيس درداء، ولم أجد فيهن غير اثنتين ممن لا يجاوز سن الواحدة منهما الاربعين، فعرضت نفسي علي اولاهما فأبت هازئة بالزواج والمتزوجين. عادّة تلك الرابطة بقية من عادات الاولين

رضيت بي الثانية بعد ان تحققت من عظم ثروتي، فأخذتها فرحا قرير العين، وكنت كلما أراها معتلية منبر الخطابة فى مجلس النواب، أكاد أطير فرحا، وكانت دارى مثابة للسياسيين ورجال الاقلام، فمكثت علي ذلك اياماً تخيل لي اني في نعيم مقيم

حتي اذا قرب يناير وحان عرض الميزانية علي المجلس، قالت زوجتي هيىء نفسك لمنظر مدهش، فقد أعددت حملة منكرة ضد الاشتراكيين، فظللت انتظر اليوم الموعود بصبر نافد، حتي اذا جاء اليوم بكرنا الي المجلس، فدارت رحى المناقشة، فلما آن لصاحبتي ان تتكلم، ارهفت اذني للسماع، فرأيتها تحمل علي الاشتراكيين والاشتراكية حملات شعواء، وما كادت تجلس حتي استأذن زعيم الاشتراكيين في الكلام، واخذ ينقض حججها حجة حجة، ويدحض أدلتها دليلا دليلا، وحشا كل ذلك من ضروب التهزيء والتضحيك بما كدت ان انزل اليه فأدعوه للبراز

وما كاد يجلس حتي وقفت صاحبتي وقد بلغ الاضطراب منها مبلغه وظهر أثره علي أعضائها، فحملت علي خصمها من جنس حملته، فصفر لها حزب الشمال، وساعدهم حلفاؤهم وعلا ضحكهم عليها وتهزيئهم بها، وانتصر لها عدد من المجلس وبح صوت الرئيس لاعادة النظام، وما هي الا ثوان حتي حمي الوطيس واستحال الجدال الى

ملاكمة، وعلا صياح النساء، فما شككت في ان زوجتي قتلت، فنزلت كالمجنون ابحث عنها، فأخذ بيدي رجلان من بوليس المجلس، فكنت اسمع الملاكمة والتصايح داخل المكان واكاد اذوب كمدا، ولم ازل واقفا حتي خرج الاعضاء وخرجت معهم، فبادرت الي يدها فوجدتها بحمد الله لم تصب بضرر، ولكنها لم تستقر فى البيت هنيهة حتي اجهضت وكانت حاملا فى سبعة اسهر

ولا تسل عما اصابني في تمريضها مدة عشرة اشهر من السهر والقلق حتي شفيت، فحمدت الله على ما حصل، ولكني ادركت من ذلك اليوم سوء اختياري وعلمت اني كنت في ضلال مبين حينما تمنيت ان اتزوج من غير قومي

قال الوجدان: فلم يبق في المجلس واحد الا وأظهر له الاسف وشاركه في التأثر فنظر اليهم وقال مهلا ايها الاخوان فان الذي سأحدثكم به أدهي وأمر

ذلك ان الحكومة أصدرت قراراً ماساً بحقوق بعض الطوائف، فاضطرت الاحزاب الى اظهار استيائها بواسطة مظاهرة عامة، ودعيت امرأتي لتخطب القوم لتحمسهم

فقلت لها: ياسيدتي كفى مالقيته من يوم الملاكمة والزمي بيتك، لان النساء لم يخلقن لامثال هذه الحركات العنيفة، فأرتني صعوبة التخلف واحتجت بكل حجة، فلم يسعني الا متابعتها، فما وافي يوم التظاهر حتي رأيتها محمولة على باب فوق الرؤس، وهي تخطب الناس تحمسهم والبوليس محتشد فى كل مكان يدعو الناس لعدم التطرف، ولكن الحماسة كانت بلغت حدها، فضرب بعضهم البوليس، فاضطر الجنود للحملة عليهم، فتبودل الرصاص وحدثت موقعة ذات شأن فقدت فيها كل من اعرفه، واختلط الحابل بالنابل، وأخذ الشرطة يسكون الناس ويزجونهم الى السجن، فهرولت الى البيت، فلما هدأت الفتنة وعاد النظام اخذت ابحث عن صاحبتي فعلمت انها اصيبت برصاصة في فخذها، فذهبت لاراها. فرأيتها في حالة يرثي لها قد تمزقت ثيابها، وتهدل شعرها، وظهرت عليها علامات الضعف والذهول، فهدأت بالها من خلال باب السجن وذهبت على أسوأ مايكون

ثم أمر بها فسيقت الي المستشفى وحكم عليها بثلاثة اشهر سجنا بسيطا، أمضيت

نصفها بالمستشفى والنصف في غرفة السجن، فانتظرتها حتي خرجت ومكثت معها شهراً على أسوأ حال فاقداً كل لذة بيتية، وما هل مايو حتي استأذنتها في السفر الى اهلي، وجئت اقص عليكم مارأيت

فما انتهي من حديثه حتي نظر الثلاثة الى رابعهم نظر استطلاع وتلهف وسألوه ان يسرد عليهم حالته الزوجية فاندفع يقول :

لما هممت بالزواج عرضت على نفسي جميع الاصول، وحشرت الي عقلي كل ماقيل في هذا الموضوع، وجلت فيه بنظرة انتقادية فما رأيت اجمع لشروط الزوجية، ولا اضمن لكمال الحياة البيتية، الا ماعليه قومي

تحققت ان في المرأة المصرية نقصا فى التربية، نقصا في العلم، نقصا في ادراك حقيقة الحياة، ولكني رأيت ان جميع هذه العلل ممكنة العلاج بقليل من المجهودات اذا اتفق ووقع احدنا مع من لم تستكمل شروط الكمال النسوى

قرأت كل ما كتبه الكاتبون عن المرأة، فطفت من الاقاصيص الخيالية الي المقررات العلمية، فأدركت حقيقة كلية، هى ان المرأة خلقت للحياة الداخلية، لا للمكافحات الخارجية، وجعلت شريكا له الغنم وليس عليه الغرم، وعلمت ان الرجل في خشونته وصلابته وبما اكتسبه في المزاحمات من الخلق الوعر، والقياد الصعب، فى حاجة تامة لمخلوق على ضده يأوى اليه، يكون جامعا لكل مايتصور من صفات اللين والرقة والعطف، ولا يمكن ان يحرز هذه الصفات الا مخلوق رقيق القلب رقيق الجسم رقيق الشعور، وهي خلال لاتتوافر الا لكائن يحجب عن قساوات العالم الخارجي وضراوات الحياة العملية

رأيتني بعد كفاح الابطال ومناظرة الاقران، ومقارعة الخصوم فى السياسة او في العلم او الاعمال، في حاجة الى مخلوق خيالى بالغ اقصي درجات اللطف والدعة ليلطف من شرتي ويهدئ من جيشاني، ويجتذبني بما اودع فيه من الجواذب من عالم المخاصمات والمقارعات، الى عالم الهدوء والسكينة، لافرغ الى ذاتي ولو سواد ليلتي، وأعود الي اعمالى في اليوم التالي بأكثر قوة واكبر نشاط

تحققت ذلك من نفسي ومن العلم، فأدركت فساد مذاهب الذين يدفعون المرأة

لتخرج من خدرها وتلقي بنفسها بين احضان المراحات الدنيوية، ووالله ما الحوت يقذف الى البيداء بأشد ذهولا عن وجوده، وأبعد مكانا عن عالمه من مخلوق لطيف الجسم والشعور، هي المرأة، يقذف بها الي مزدحم التنانير، ومضطرب العدد والمراجل

تحققت من هذا كله فعمدت الي اسرة تناسب اسرتي مكانة وأدبا، فخطبت اليها عقيلة من عقائلها، فما مضت شهور حتي انتقلت الي نفس العالم الذي يحمله احدنا في خياله، فما رأيتني مخدوعا بأوهامي، ولا مغرورا بأحلامي

نعم آنست مخلوقا لم يبلغ اقصي درجات الكمال الانساني ولكنه قابل للتكمل، اذ لم يَعْدُ سن التعلم

فان سألتموني اليوم عن مبلغ سعادتي، قلت يكفيكم مني اني لا أريد المزيد والحمد لله على ما منح، حمدا يبلغ مداه، ويوجب رضاه

قال الوجدان: فوالله لقد غبطه اخوانه حتي كادوا يحسدونه، وما زالوا ينثرون عليه من درر التهاني حتي استعفاهم، ثم قال لهم:

اخواني لقد وضح الصبح لذى عينين، واصبحتم بحمد الله جامعين من هذا الامر بين العلم والتجربة، وليس بعد هذه المرتبة درجة في الايقان، وها هي البلاد على باب فتنة عمياء من هذه الوجهة، فهل لكم ان تقدعوا بتجاربكم هذه انوف المكابرين الذين يتجرون بهذه السفسطة الشنيعة. مستخفين تحت ستار المدنية الكاذبة والفلسفة الباطلة ؟

قال اكبرهم: والله يا ابن اخي الفتنة غالبة، والابصار كليلة، والحقيقة اضيع ما تكون بين الهوى والتقليد

وقال الاوسط: أراني والله الآن وقد رفعت عني غشاوة الفتنة بهذه المحنة الصارمة، كأني كنت مسحورا بمؤثر يغلب الارادة ويفوق الطبيعة، والا فكيف كان يغيب عني حقيقة ما ستنتهي اليه حالنا مما ألقينا بانفسنا فيه بارادتنا ؟

وقال الثالث: لعل الله بما حكم علينا بهذا الابتلاء الشديد، قد هيأنا لان نكون حججاً دامغة نؤيد الحقيقة بحالنا وقالنا، وان لم يكن لنا الا هذه الدرجة العليا لكفانا بها مغنما بعد جهاد اربع سنين

الوجدية السادسة عشرة

قال الوجدان :

فُطرت على حب الغريب من كل شيء ، فكنت أتحرى الغرائب فيما أقرأ وفيما أبصر مغتبطا بهذا الميل في نفسي لانه دفعني الي الوقوف على ما سُتر عن الاكثرين، وحجب عن غير الافراد الممتازين، فطالبتني نفسي برؤية شيء مما أتوق اليه، ولكن أنّى لى ذلك وانما الاعاجيب لا تجيء الا اتفاقا، فلما لم أجد لغلتي منقعا، ولا لاهوائي مرتعا (١)، ضاقت نفسي وجاشت (٢)، فاندفعت الي الشارع رجاء ان تلهيني ضوضاء السُوقة ، وجلبة الباعة والمارة، وتوقى خطر المركبات المتنوعة ، عن تلك الرغيبة التي تنازع نفسي . فاستدرجني السير من طريق الي طريق ، حتي انتهيت الي زقاق ليس به احد غير شيخ عليه عباء ، وكأنه من الغرباء ، فلم يلفت لى نظراً ظنا مني انه قروي جاء الي القاهرة لبعض شؤونه ، فوالله ما حاذيته وأنا غافل عنه حتي بدرني بقوله :

أأقل من السلام ، يا كاتب الاسلام ؟

فالتفت دهشا وقلت سلام الله عليك ورحمته وبركاته

قال: وعليك مثل ذلك ياوجدان

قلت : لا تؤاخذني بما اهملت، كأنك تعرفني وما اذكرك، فهل لك ان تذكرني بسابق العهد أيدك الله؟

قال: كنت جارك في عالم الروح قبل ان نسجن في هذه الاجساد

قلت: أو تذكر ذلك العهد؟

قال: ان قشطت من ذهنك ركام الاهواء والرغبات، وخلصت جوهرك من ادران

---

(١) منقعا من نقع ظمأه اي بله

(٢) جاشت اضطربت

الهموم والرعونات ، تذكرت ماوراء ذلك (١)

قلت: اهدني لطريقه . اكرم الله وجودك ، وادام تأييدك

قال لست من اهله الآن ، فامض لما انت بصدده من تطلب الغرائب ، وتلمس العجائب

قلت: والله كأني بك مطلوبي اليوم

قال: لا، ولكن ان شئت ان تشهد مشهداً من اغرب مايروى لاهل هذا الجيل، فانطلق حتي تنتهي الي آخر الشارع، ثم مل جهة اليمين تجد عطفة، فقف هنالك هنيهة فسيمر بك شيخ طويل اللحية ، قويم المشية ، ممسك بيده هراوه ، ومعلق فى جنبه إدواة (٢)، فسر خلفه من بعد ولا تكلمه ، ثم انظر مايكون بعد ذلك

قال الوجدان : ففعلت كما قال، ووقفت حيث اشار، فما هي الا هنيهة حتي اقبل ذلك الشيخ الطويل اللحية يمشي لا يلوي على شيء، كأن له غرضاً يسعى اليه، فتبعته من بعيد حتي شارفنا الخلاء ، وانعزلنا عن الدهماء ، فالتفت وراءه فرآني

فقال: ايه ياوجدان؟

فأقبلت اليه مسلماً، فرد على متبسماً، ومددت اليه يدي فصافحته ، ثم أملت رأسي لاقبل يده ، فجذبها بشيء من الشدة واخذ يضحك ثم قال :

ما الذي دفعك لتقبيل يدي ياهذا؟ أطول لحيتي ام ضخامة هراوتي؟ ألا تمكن ان تكون يد محتال ، او مدنس دجال ؟

قلت: بل لمرفانك اسمي ولم تخبر عني

قال : عجبا لك ! ألا يحتمل اني رأيتك في المدينة قبل اليوم، فسألت عنك من يعرفك ؟

قلت: يجوز ذلك ، ولكن سيماك تدل على نفس زكية ، وحال مرضية

قال: لشدّ ما بلغت منكم سرعة التصديق يابني مصر، فكم حسن المظهر، قبيح المخبر

---

(١) الركام الشيء المركوم بعضه فوق بعض. والادران هي الاقذار جمع دَرَن

(٢) الهراوة العكازة . والاداواة اناء صغير من جلد

قلت وان الذى تقوله لأدل دليل على صدق فراستي

فضحك متهقها ثم قال: ما اكثر ما يكون التواضع حبالة لصيد، ومقدمة لكيد

قلت لقد انشرح صدري لك والسلام

فصاح قائلا: أواه أواه، ما أبعد شمائل الاسلام عنكم يا بني مصر، ألا يقول دستوركم «وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم»

قلت الخلاصة اني اريد ان اصاحبك اليوم

قال لا والله حتى تقر بالخطيئة، وتعزم ان لا تعود الى هذه السذاجة

قلت قد اقررت وعزمت

قال اذن طابت الصحبة، فأغمض عينيك

فما كدت افعل حتى شعرت بهزة فجائية، كأن تيارا كهربائياً انساب في جسمي، ثم قال افتح عينيك

ففعلت فرأيتني في ارض غير ارض مصر، بين جبال شامخة، وسهوب مترامية(١) ووديان وعيون لم اعهدها، فقلت لصاحبي أين نحن ؟

قال في جزيرة الغرائب

قلت اين موقعها من الكرة ؟

قال كرتنا ام كرتكم ؟

قلت أوهنالك كرتان ؟

قال سبحان الله ياوجدان

قلت من كرتنا ؟

قال في محيط العجائب

قلت ما سمعت به قبل اليوم

قال معذور، فانك لم تقرأ الجغرافيا

قلت والله لقد نلت فيها أرقى الشهادات في مصر

---

(١) السهوب جمع سهب وهو المستوي البعيد من الارض

قال: ولكنك لم تقرأ سطرا من جغرافية القوم

قلت ومن هم أولئك القوم ؟

قال: هؤلاء، واشار ذات اليمين

فالتفت فاذا برجال كامثال الكواكب، يقبلون جماعات ومثني، فى أبهة الملوك ونخامة الاقيال(١)، عليهم أردية بيضاء، ومطارف زهراء، فتداخلتني منهم خشية، فقلت لصاحبي : أملوك هؤلاء ؟

فضحك صاحبي وقال : بل عبيد، وأنشد :

عبيد ولكن الملوك عبيدهم وعبدهم اضحي له الكون خادما

قلت: لعلهم الابدال ؟ قال انتظر فسوف تعرفهم

قال الوجدان : فمروا بنا مسلمين، واقبلوا علي صاحبي محيين، فشممت لهم أريجا ماعهدت مثله طيبا ، ولا آنست له ضريبا

فالتفت بعضهم الى صاحبي وقالوا: من الذي معك، وكيف سمحت له ان يتبعك؟

فقال لهم متبسما : هذا فتي من فتيان المعاني، يوشك ان يدرج من عش حكتكم فيلتحق بكم

قالوا: ماشاء الله، واقبلوا الي ، يدعون لي ويباركون علي

ثم قال قائل: هلموا فقد جاء الموعد، فمشينا الهوينا حتي وصلنا الى سهل فسيح من الارض، قد احدقت به ربوات معشبة مزهرة، قامت حواليه كأنها أرائك سندسية اعدت مقاعد للمتفرجين. فصعد القوم عليها واخذ كل منهم مكانا يشرف علي البسيط الذى بينها. ثم التفتنا فاذا في وسط هذا المجال رجلان كانهما يتأهبان للبراز، احدهما شيخ قد حني الدهر صعدته ، وبيض لحيته ، والآخر شاب يفيض قوة ، ويتيه فتوة

فكانت اسلحة الشيخ رمح طويل، وسيف صقيل، وقوس موتورة، ومجن عريض، وقد لبس درعا سابغة ، وتقلنس بخوذة من حديد ، وعلي يمينه مجانيق كبار، وركام من احجار

(١) الاقيال جمع قيل وهو الملك . وقيل لا يطلق الا علي الملك من ملوك حمير خاصة

اما الشاب فكانت آلاته عضب جزراز، ومسدس من آخر طراز، وعلى يمينه مدفع مكسيم، وبين يديه آلات الكهرباء، وعدد مختلفة الاشكال

فما هي الاهنَيَّة، حتى صاح الشيخ بقِرنه صيحة شموخ وجبرية (١) قائلا:

هلم الى البراز أيها المغرور بنفسه، المفتون بباطله، المدل بغوائله (٢)، تفاخرني بالظواهر المزوقة، والقشور المنمقة، وتساميني بالاكاذيب المزخرفة، والاباطيل المفوقة (٣)، وتمني نفسك بزعامة الانسانية دوني، وقيادة الارواح بمدى، فكنت كمن يحاول ان يقود الجوزاء، بحبال من هواء (٤)

اغرك ياهذا ماجللني من المشيب، وقوس ظهري من التجاريب (٥)، فحدثتك نفسك بنزالي، والخفوف لقتالي، ولم تدر ان بين جوانحي قلبا لا تزعزعه الاهوال، وفي ذراعيَّ حولا يستنزل العصم من الجبال (٦)، ألا انك مني على حد ما قيل:

كناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يَضِرْها واوهى قرنه الوعَل (٧)

فقال الشاب:

ايها الشيخ الفاني، والهرم العاني (٨)، لست والله مغرورا بنفسي، ولا مفتونا بباطلي، ولا مدلا بغوائلي، وانما هو الحق الصراح، والرأي الرُجاح. فلقد أديت ما عهد اليك، وقمت بما وجب عليك، في زمان كنت به اولي، وباهله اشبه، فسعدوا بلك السعادة التي قُدّرت لهم، ثم انقضي دورك ودورهم، وهذا زمان جديد، له شؤون

---

(١) الهُنَية اصلها الهنُ، وهو اسم جنس معناه شيء، يقال هذا هنك اى شيئك. والانثى هَنَة وتصغر على هُنيهة ومنه يقال (امكث هنيهة او هُنية) اي ساعة يسيرة. والجبرية الكبر

(٢) المدل اي المتدلل

(٣) المفوقة اى المخططة يقال (ثوب مفوف). والاباطيل المفوقة هي المزخرفة

(٤) الجوزاء برج في السماء (٥) جللني غطاني (٦) العصم جمع اعصم وهو من الظباء والوعول ما في احدى يديه او كلتيهما بياض وسائره احمر او اسود

(٧) الوعل تيس الجبل (٨) العاني الاسير

ومقتضيات،وامور وحاجات،لست منها في مَراحٍ ولا مغْدًى،فاترك لي سلطان الارواح،وقيادة الاشباح،عن طيب نفس وسماحة قلب،والا أصليتك نار القتال ، وأذقتك منه شر نكال

فقال الشيخ وقد بدت عليه دلائل الأنف،ولوائح الصلف،تزعم ان زماني قد ولى ، وان ترك الزعامة لك اولي ، وغفلت عن اني الروح الخالد ، والاثر التالد

فتزيدني مر الليالى جدة وتقادم الايام حسن شباب

لقد توليت الانسانية منذ نشأتها،فربيتها في طفولتها،وهيمنت عليها في شبيبتها، فأنا روحها المحرك لها،وحياتها التي تحيا بها،فما انت ومن اين نشأت،وما هذه الحقوق التي اليها طمحت ، وفيها طمعت،فخفض من غلوائك،واعرف حقيقة دائك، والا جعلتك مثلا للآخرين،وعبرة للمعتبرين

فقال الشاب،تخف ايها الشيخ لقتالي،ويغرك قلة احمالي،ولو كنت تدري ان اقل مالدى فيه القضاء المبرم،والبلاء المحتم،لاشفقت على نفسك،ولنجوت برأسك، فتنازل عن هذه المزاعم ، وخل لي القيادة العامة وانت راغم

هنا هاج الشيخ وثار،وعمد الى سيفه البتار،وتقدم الي الفتي بقلب يتقد حقدا، وعين تشع وقدا

فلما آنس الفتي منه هذه العزيمه،امسك بيده مكسيمه،قال الوجدان فتحققت ان الشيخ هالك،وكدت اصيح على من هنالك،ان يتداركوا امره قبل الفوت،وينقذوه من مخالب الموت،وما كادهذا الهاجس يطوف برأسي حتي رأيت شابا قدكللته الاريحية، ووسمته النجدة الاسلامية،اسرع من بين الجماعة الي الميدان ، وهو يصيح مهلا أيها الرجلان،فأمسك كل منهما عن الاسترسال،ووقفا على طرفي المجال،وجاءهو فوقف بينهما،ثم نظر الي الشاب بامعان،والي الشيخ بعطف وحنان،ثم انشد والدموع تذرف من عينيه ، والجموع تنصت اليه وقال :

رجلان يقتتلان فى ميدان شيخ الشيوخ وصفوة الفتيان
وكلاهما يبغي لصاحبه الردي بمثقف ويماني

يرنو اليه بمقلة تنبي عن الـ حقدالوَري وجاحم الاضغان(١)
ويريد ان يقضي عليه ولو دري من قرنه لقضي من الاشجان

ثم نظر الي الشيخ وقال : أيها الشيخ ألست التليد بن عتيق ؟

قال : نعم

ثم نظر الي الشاب وقال : ايها الشاب ألست الطريف بن تليد ؟

قال : نعم

فقال الحكم بينهما: ياسبحان الله فعلام تتنازعان، وكيف تختلفان فتقتتلان؟ ثم نظر الى الشيخ وقال :

ايها الشيخ ان هذا ولدك بضعة منك، انفصلت عنك فهي انت ، فان رأيت لها استقلالا ذاتيا، وتميزا شخصيا، فما ذلك الا لتبقي في شخصه الي امد، ولتحيا بعد حياتك به الى حين

فاحتفاظك به هو احتفاظك بوجودك، والاقرار له بخلافتك هو اقرارك بخلودك، ولوكان الخالق مخيرا احدا في وسائل البقاء بعد الموت فى هذا العالم ، لما اختار غير ولد يحيا به، فاعرفه معرفة الابوة، وافرح بما رزقه الله من قوة، واعلم ان ما بين يديه من هذه العدد المهلكة ، والآلات المدمرة، وان دقت عن الفهم، وعلت عن المدارك، الا انها ثمرة ما لديك، ونتيجة لعمل يديك

قال الوجدان : فرأينا والله وجه الشيخ قد تهلل سرورا، وتألق حبورا، وكاد يلقي بنفسه على ولده، لولا ان ذلك الحكم التفت الي الشاب وقال :

ايها الشاب علام تقاتل اباك، وترصد له الهلاك، وانما انت للآن ثمرة لم تنضج، وزهرة لم تتفتح، أغرك ما لديك من عدد وآلات . واجهزة ومعدات، فقمت تنازعه القيادة، وتجاذبه السيادة، وانما الملك لاينال غصبا، ولا يستقر لصاحبه نهبا. لقد كنت تستطيع ان تقتل قرنك في مثل لمح البصر، وقبل ان يتحرك ليصل اليك ، فيموت

---

(١) الوَرى اى المتقد. والجاحم الجمر الشديد الاشتعال من جحم النار يجحمها أوقدها

بما حمل فى صدره من اسرار الانسانية، وتاريخ ادوارها في المدنية، ولو علمت ان المستقبل مرتبط بالماضي، بل هو نتيجة مقدماته، وثمرة مغروساته، لتحققت انك بقتل والدك، كنت قاتلا نفسك، لان الارواح لا تنقاد الا لممثل حياتها، ومشخص تاريخها، الجامع بين يومها وأمسها، فمن اين لك هذه المكانة ان لم تجمع الى ماعندك ماعنده من تليد المعارف، وعتيق التقاليد، وقديم العادات حتي تصل بين حلقات الاحوال الانسانية، وتربط بين اطرافها برباط الوحدة التاريخية

الآن وقد تحققت ان قرنك اباك، وتحقق هو ايضا ذاك، فيجب عليك ان تتقدم اليه مستغفرا، وبجهلك اياه معتذرا، ثم تقبل يديه، وتنضوي اليه، لا تنازعه في حكم، ولا تزاحمه فى غاية، وهو متي آنس انك اقدر على الاداء، وأجلد على العناء، قدمك واستعانك ووكلك في شؤونه وأنابك، وأمدك من حكمته وتجاربه بما يعودك على السير في المناهج، ويرشدك في المخالج

قال الوجدان : فوالله لقد خر الولد صعقا حين علم انه يقاتل اباه، واخذ الشيخ ينشج في بكاء، ثم افاق الفتى من غشيته وتقدم لصاحب ابوته، وانحني امامه متواضعا، ثم اخذ يقبل يديه خاضعا، فضمه الشيخ الي حضنيه، وقبله بين عينيه، ثم انطلقا مثنيين على ذلك الانسان، داعيين له باحسان

قال الوجدان : فوقف ذلك الوجيه وسط الميدان، وقال اسمعوا ايها الاخوان :

ان للقديم فضلا لا ينكر، وللحديث شأنا يؤثر، وخطراً يجب ان يذكر

في القديم اصولنا وتقاليدنا وعقائدنا ولغاتنا وخيالاتنا، فهو مهد الانسانية، وعش الحقائق الاولية، منه درجت شخصيتنا، وبه تمثلت انسانيتنا، ففى نسيانه نسيان الاصول وهجر العقائد، واماتة اللغة، وفقد لصورة الماضي التي لا مسرح لنفس انسانية الا فيها ولا مرتاض لعواطفها الا بها، فنكون كأننا خلقنا الساعة كهولا بغير طفولة، او شيوخا بغير كهولة، لا يرتبط الحاضر بالماضي فى اذهاننا برابط، ولا يجمع بين آثار انفسنا جامع، فنكون كأننا سقطنا من السماء فجأة، ونبتنا من الارض بغتة، والانسانية لا تحيا الا الابأولها، ولا ترقى الا بتاريخها، ولقد حدث ان تناكر القديم والحديث، وهما ولد ووالد وطريف وتالد، وكاد تناكرهما يفضي الى ازهاق احدهما لروح صاحبه، فان بقي

القديم وحده رجعت الانسانية القهقرى، وان تفرد الجديد بالسلطان اركبها مراكب الهوى، فكان الحق ان يتعارفا فيصطلحا ليستقيم الحال، ويحسن المآل. وقد تم ذلك والحمد لله

قال الوجدان : فآنست من تلك الجماهير هزة ارتياح، ونشوة انشراح، ثم اخذوا يعودون الى حيث أتوا، فأردت ان اتعقبهم، لاعلم مستقرهم، فقال لي صاحبي الي اين؟ قلت الى حيث يذهب الناس

قال مهلا مهلا ، اغمض عينيك

ففعلت ممتثلا، ثم فتحتهما فرأيتني وحدي على اول المطفة التي وجدت بها صاحبي وليس معي احد ، فعدت الى البيت، متعجبا مما رأيت

الوجدية السابعة عشرة

قال الوجدان :

دخلت يوما الي عالم الخيال استعرض مجاليه، واستشرف مراميه فبينما انا اسير في مواميه، واسلك في معاميه، اذ ظهر لي بيت رفيع البناء، حسن الرواء، يشف ظاهره عن ثروة بانيه، وتنم حاله على شرف ساكنيه. وكان التعب قد بلغ مني فملت الي جداره لاتفيأ من ظلاله، فلحظني صديق لى كان سامرا مع رفقة له في حضرة صاحب تلك الدار، فخرج الي مسرعا وسألني عن سبب الوقوف فأخبرته ، فرجاني ان ادخل معه فأجبته، فحياني صاحب الدار وبياني، وبذل من البشر ما استوجب شكراني. وبينما نحن جلوس نتهادي درر الكلام، اذ دخل علينا احد الخدام بابتسام، وقال بالباب رجل ذو اطمار يقول انه عابر سبيل ويستأذن على مولاي في الدخول. فقال له صاحب الدار: ليدخل. فدخل رجل يناهز الستين، عليه سيما الصالحين، وبيده هراوة السائحين، فقال بصوت جهير (السلام عليكم !) فرد عليه صاحب المنزل من طرفي شفتيه، وتنحنح بعض من فى المجلس غيرة عليه ، ولم يأمره احد بالجلوس، فجلس حيث انتهى به المجلس

ثابت الجأش حاضر الحواس. فتركه الحاضرون وشأنه فما منهم احد حياه بتحية، او تفحه بعبارة مرضية، وكان هذا المجلس حاويا من وجوه الناس من يشار اليهم بالبنان، ويعدون من سروات الاعيان، عرفني بهم ذلك الصديق واحدا بعد واحد، وذكر لي نبذة من تاريخ كل منهم وسيرته، وكشف لي عن مجمل ثروته. وكنت ادركت ذلك مما كان يلوح عليهم من كبر وجبرية، حتي كانوا وهم من طبقة واحدة لا يتكلمون الا تصنعا، ولا يتحركون الا تكلفا. تزاحموا على صدر المكان حتي تراصوا فيه تراص الاحجار في البناء، وحرص كل منهم على مركزه حرص البخيل على درهمه، وهما منهم ان من عداه هذا المحل فقد عدته الابهة ، وفاتته العظمة

قال الوجدان : فبينما نحن جلوس وقد دار بيننا الكلام دوره، اذ تراكض الخدم وتراصوا متأهبين لاستقبال عظيم من العظماء ، واسرع مقدمهم الينا يخبر بتشريف السرى فلان، نخف صاحب الدار لاستقباله، واخذ كل من في المجلس يستعد لاقباله، بتعديل سرباله. وتسريح سباله. فما كانت الا لحظة حتي اقبل يتبختر عن يمين صاحب الدار، فنهض كل من في المجلس وتسارعوا لمصافحته، وأحلوه من بينهم محل الواسطة من العقد، وهو من التعاظم بحيث ما كان يتنفس الا تصنعاً من شدة ما أخذ حب الابهة باكظامه

قال الوجدان : كل ذلك حاصل وذلك الغريب يلحظنا من طرف خفي، ويسارقنا النظر بقلب شجي، ولكنه في جميع حركاته وسكناته لم يتعد حد الادب، ولم يأت بما يلام عليه الفقير امام اصحاب الرتب، ثم جاءت القهوة فتناول كل من بالمجلس فنجانته، الا ذلك الغريب فلم يلتفت اليه بالكرامة احد . فلما مضي دور القهوة، التفت ذلك السرى الى صاحب الدار وسأله عن شأن ذلك الغريب ، فأجابه بأنه عابر سبيل استأذن فأدخل، فأعرض ذلك السري بجانبه اشارة عدم الرضي بما سمع، و لفظ ذلك منه صاحبه فتطلب مراضيه باغضاب الفضيلة، فالتفت لذلك الفقير وقال له: ايها الرجل اخرج فاجلس مع الخدم فان لك معهم مجالا ليس لك هنا، ولعلك قد ضاق صدرك من ادمانك الصمت. فقال الرجل: اما الصمت فليس عن حصَر، وان شئت أتهمت في البيان وأعرقت، وسلكت من مهايعه ما سلكت، ولكني اصغي لاتعلم، واصمت لأسلم،

ولو حدث لي معكم موجب للكلام لتكلمت من غير ابلاس، وهل انتم الا من بعض الناس، اما الخروج عن حضرتكم . . . . فقاطعه صاحب الدار بشدة وقد آلمته جرأته : ايها الرجل ان محض حصولك على البيان، لا يسمو بك لمجالسة الاعيان. فان لكل رتبة رجالا، ولكل فريق اشكالا، فلا تكثر الكلام، واخرج بسلام. فصاح الجميع اخرج اخرج فقد خرجت عن حدود الادب ، وترفعت امام اصحاب الرتب .
فالتفت اليهم وقد تبيغ دمه ، وظهرت عليه سمات الحمية وقال : بئس القوم انتم ، أتجعلون الاموال ، موازين الرجال ، فيقول الله : (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وتقولون انتم ان اكرمكم عندنا اغناكم ، أحكم الجاهلية تبغون، ام طريق الجبابرة تسلكون، أف لكم افلا اصطلح الاحياء على جعل التفاضل بالاعمال، والتمايز بالجد في تحقيق الآمال، وجعلتم انتم التمايز بالحطام الفاني، والعرض الزائل. فلقد ارحتم انفسكم من حيث تعب الكرام

ايها أبالاكل تفتخرون يااساري البطون، واحلاس المطلب الدون، انظروا وتدبروا في احوال الحياة لتدركوا ما يجب على الاعلين امام اممهم، واي شيء من كبريات الاعمال يناط بهم. أتحسبون أنكم تدعون كبارا ولم تفعلوا فعل الاكابر، وتعظمون في نظر الناس وانتم اقل نفعا لهم من الاصاغر، ماذا يعود على الامة منكم ان اكلتم من الالوان عشرين. او لبستم من الحرير الثمين، اوركبتم من الخيول الجياد. أوسكنتم في السبع الشداد ، مادمتم ابعد الناس عن برها ، واقصرهم باعا في نفعها ؟

ارى الكبر قد سقاكم من شرابه كأسا رمت اعناقكم بالصعر، وخدودكم بالصعر، وانفسكم بالبطر، فأثقلت اجفانكم، وعقدت ألسنتكم، واضعفت حركتكم، حتى صرتم بالاشباح اشبه، والى التماثيل اقرب. فرحماكم انفسكم ايها الاسرى ففكوها من هذه القيود الوهمية، واخلعوا عن اعناقكم هذه الانيار الشيطانية، وخلصوا عقولكم من هذه الغواشي الجاهلية، ولينظر كل منكم لنفسه، وليقس غده على امسه، وليلق بنفسه بين يدي العارفين بدائه، الواقفين على سر بلائه، بتواضع المريض لاطبائه، والقاصر لاوليائه، وليستشعر الرفق بنفسه، والرحمة بذاته، فلقد لقيت منكم بالجهل مالم تلق من أعدائها ، وشقيت بكم مالم تشق بأهوائها

ايها الكثيرون فى السفاسف ، القليلون في العوارف، الشجعاء امام الحرمات ، الجبناء حيال المكرمات ، السراع الى الدنيات، البطاء في الكمالات، الثقال عن الاعمال، الخفاف في القيل والقال، هم احدكم بيت يزخرفه، ومال يتلفه، وعرض ينتهك حماه، وخزية يعصي بها مولاه، حتى شقيت بكم بلادا نتم من سادتها، وذلت امم انتم من قادتها، فأصبحتم جراثيم الداء الدفين، وحقت عليكم آية المترفين «واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»

قال الوجدان : فرأيت الحاضرين قد حاروا في امر هذا الرجل الجريء، واخذ بعضهم ينظر الي بعض، فأردت ان احمسه ليزيد، واهيجه لنستفيد، فقلت: ايها الرجل لقد غلوت فى الانتصار لنفسك، واغرقت في الحط من مقام هؤلاء السريين. فقال بصوت جهوري، ولسان جرى: انما السري من عقل، لا من اكل، ومن نفع لا من جمع، ومن تكرم لا من تجرم، ومن لانت خلائقه، لا من توالت بوائقه، فمن ادعى انه مسك فليتضوع، ومن زعم انه نور فليتألق، ومن ظن فى نفسه مزية فلينفح، فكل اناء بالذي فيه ينضح، اما التطاول الي مقامات السراة بمحض جمع الدنانير، وتجهم الفقير، وتصعير الخد تكبرا، وامالة العنق تجبرا، وجعل المشية تبخترا، وعدم الاختلاط الا بأهل الثروة، وصرف العمر بين الملهي والقهوة، فليس من صفات السريين، ولا من سمات الاعلين، ولو كان سراة الامم على هذه الشاكلة لهلك الفقراء ، وعمت الجاهلية الجهلاء، وذهبت ثروة الامة في شهوات الاغنياء. ثم التفت لاهل المجلس ورفع عقيرته بينهم منشدا :

يا ايها النفر الغالون في السرف ... رفقا بأنفسكم من هوة التلف
قوموا انظروا لسراة العالمين وما ... يأتونه من خصال المجد والشرف
لم يجعلوا همهم حشو البطون ولا ... حسو الكؤس ولا الاغراق في الصلف
بل هاجهم لبناء المجد افئدة ... عطشى الي المجد لم تفسد من الترف
نمتم فهنتم فما أغنت مطابخكم ... عنكم ولا عاليات الدور والتجف
ورب ساحب وشي لو تخاطبه ... وجدته من ظلام الجهل في سدف
ليس السري الذي للبطن حيلته ... بل السري اخو الهمات والشظف

كانت اوائلكم اعلام اعصرهم علماً وفضلا وكانوا اكرم السلف
فلم نكصتم على الاعقاب بعدهم وختمتوهم فكنتم أسوأ الخلف

قال الوجدان : فالتفت للقوم فاذا بهم صموت بهوت لايحيرون جوابا ، ولا يستطيعون خطابا.قد عرتهم غشية الحيرة،وعلتهم خشية الحسرة. فجرأت نفسي وقلت له : ايها الرجل من انت،ومن اين اقبلت،والى اى جهة قصدت،اعطنا مجملامن امرك، واطلعنا على حقيقة سرك،واتخذنا تلاميذ نسترشد بهديك،ونستضيء برأيك. فقال: اما انا فانسان، قد اقبلت من عالم لا اعرفه،الي وجود ليس المسئول عنه باعلم من السائل. اما اتخاذي اياكم تلاميذ تسترشدون بهدي،فهل كنت اهدى لكم من القرآن،واوعظ من طوارق الحدثان؛قلت:انما نريد ان تعرفنا نفسك على حسب العرف فتذكر اسمك، واسم ابيك وبلدك وعشيرتك،وتبين لنا كنه حقيقتك. فقال:هبوا ان اسمي هيان بن بيان،من اذربيجان،من بني ساسان،او افرضوا اني فلان بن فلان من بني فلان. ثم سلم وخرج. فعز على ان تفوتني معرفته،فهممت ان امسكه لا منعه الخروج،فما كدت احتضنه بين ذراعي حتي انقلب عصفورا،وطار فوقف على النافذة،وهز رأسه الي بالتحية، وصفر صفرة بلبلية. ثم رفرف بجناحيه،وتركني اتحرق عليه. فتحققت عند ذاك انه صديقي مليك البلابل،وخطيب الخمائل، فضاع رشدي من كثرة العجب ؟ فاستأذنت رفقتي في الانصراف وقدعراهم من الدهش ما عراني ، ويممت ايكتي المعهودة فوصلتها فوجدت صديقي البلبل في انتظاري. فقلت ما أعجب ما رأيتني منذ اليوم.قال وما ذاك؟قلت ما كنت اخال ان اراك رجلا وقد كنت عصفورا . قال وما يمنعك ان تصير عصفورا وقد كنت رجلا؟قلت: لا استطيع ذلك — قال : متي تمكنت في مرتبة الانسانية،وقشرت عن نفسك هذه الغلف الطينية، نلت هذه الدرجة السنية — قلت: لم افهم ما قلت — قال: لله درك ما احسن اقرارك بالحق — قلت: اشرح لي ما قلت وقاك الله الضير – قال: هذا كلام يذاق ولا يشرح، فان لم تجد شرحه في نفسك فلا تطمع ان تفهمه من احد بعدك – قلت: لقد بالغت للقوم في النصيحة. فهل رأيت ابلغ منك؟ – قال: نعم – قلت ومن هو؟ – قال: الحوادث – قلت: اوللحوادث لسان ؟ – قال: نعم يسمعه من له قلب – قلت: أو تنفع النصائح لمن قضي الله عليهم

بالانحلال ؟ ـ قال ومن اين لنا العلم بهذا القضاء ؟ ـ قلت ظواهر الاحوال ـ قال وهل الظواهر تورث اليقين، وقدشوهد تخلفها فى كثير من الاحايين ؟ ـ قلت ما قولك في البائسين ؟ ـ قال قد حكم عليهم رب العالمين، في كتابه المبين. ثم قال يا وجدان ان فى كتاب الله آية يجب ان يحتج بها المصلحون، ان هزىء بهم القانطون وهى قوله تعالي: «وقالت طائفة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا، قالوا معذرة الي ربهم ولعلهم يرجعون». فيجب على المصلحين ان يدعوا الى الخير ما استطاعوا فان أجدى جدهم، كانت لهم المثوبة في الآخرة، وان اكدي كدهم كانت لهم عند الله المعذرة ـ قلت عظني ـ قال كفاك ماسمعت فان للقلوب سآمة فاحذروها، وان آنست منها نشاطا فى أمر فلا تستنفده كله فتوشك ان تطلبه بعد ذلك فلا تجده ـ فقلت أتأذن لى في الانصراف ؟ ـ قال لا حتي افاكهك بقدر ما وعظتك فاني اكره ان يثقل عليك الوعظ، فلا تجد فى نفسك ما يخف بك الينا، فان الانسان شديد النفور من الحقائق وان ادعي انه يحبها ـ قلت الرأي ما تراه ـ قال صفني شعرا ففكرت قليلا ثم أنشدته :

وبلبـل من مـلوك الجو لذت به   فلم ترق بعده لي صحبـة الناس
كأنه بحر عـلم لا قرار له   مع انه لم يزد في الحجم عن كاس

فضحك وقال شكرا لك، ولكن أراك قد قارنتني بالكاس، وشتان بين جامد وحي. فما هذا الضرب من المفارقات ؟

قلت لما ذكرت انك بحر علم لا قرار له، اردت ان استنزل عجب الناس من انك كذلك مع ان جسمك صغير لا يزيد عن القدح الصغير، فكيف وسع البحر الكبير. فضحك حتي اغرق، ثم قال لقد اردت التشبيه فعداك الانسجام، وفاتتك الطلاوة، وفوق هذا فقد جانبت الصراحة فقلت ما لا يجيش فى صدرك عني. فهلا قلت :

وبلبـل من مـلوك الجو همت به   ياحبذا لو بدت في صيده فرص
فانه وان استملت مواهبـه   طير واولي به من ايكة قفص

ثم قهقه قهقهة بلبلية، وقال أليس كذلك ياأخا البشرية ؟

فقلت كلا ! يعز على ان اجعلك اسيرا، وقد اتخذتك سميرا، ولكنك لو اتخذت

داري عشا، ومغناي وكرا، لوجدت مني ما تعرف به قدر وفائي، وحقيقة اخائي ــ فقال: الحق، لا امان للانسان، مادام متقلب الجنان، ومعرضا لدواعي الجثمان، فخلنا احبابا من بعيد، لنستديم بالوفاء ودنا الاكيد

الوجدية الثامنة عشرة

قال الوجدان:

اجتمعنا ثُلة (١) من الاخوان بدار احدنا في يوم رق نسيمه، وراق أديمه، فأخذنا نفتَنُّ في ضروب من الكلام، وننتقل في شجونه (٢)، فمن خبر مستغرب، الى بيت مستعذب، ومن كلمة نابغة، الى حكمة بالغة، ومن حقيقة علمية، الى نادرة فكاهية، فلما بلغ بنا الجلوس نصابه مللنا الي الحركة، وكان مجتمعنا بمصر الجديدة، فخرجنا الي الصحراء، نستنشيء نسيم الخلاء، فسرنا نحو ساعة وبدت لنا سرحة مورقة الافنان، فرأينا ان نتفيأ ظلها للاستراحة ساعة اخرى، ثم نعود الي دُورنا على نحو ما كنا نفعل في بعض الايام. فما شارفنا السرحة فى هذه الدفعة حتي ألفينا تحتها رجلا تدل ملابسه على انه من اهل البداوة، فتوسمناه، فاذا هو شيخ يناهز الثمانين، قد شاب كل ما فيه حتي حاجباه وأهدابه، الا ان عينيه كانتا تفيضان فتوة، واعضاءه تقطر ضلاعة وقوة، فلما قربنا منه حييناه، فرد علينا، ولم ينظر الينا، ثم مازاد ومازدنا، فجلسنا مستثقلين حضرته، متمنين قومته، الا انه سَدِك بمكانه، واشتغل عنا بشانه، وظهر من عدم اكتراثه بنا انه من الجفاة الاقدام، والبداة الانعام، من الذين لا يفقهون قولا، ولا يمتازون عن سائمتهم الا شكلا، فأخذنا فيما نحن آخذون فيه غير مبالين بوجوده، ولا برمين بقعوده، وما زلنا نجول من الكلام فى كل مجال، ونصول بالتحاور في كل مَصال، حتي أدت

(١) الثلة الجماعة (٢) أديمه اي جلده. ونفتن من افتن في حديثه اى اخذ في فنون منه . وشجونه اى فنونه جمع شَجَن وهو الشعبة من كل شيء

بنا فنونه الي ذكر الاخلاق، وطيب الاعراق، فقال اخونا (د...) لقد صدق شاعرنا حيث قال :

وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

فسأله (ك...) ماذا تقصد بالاخلاق؟ تلك الكلمة التي لا كها كل لسان، في كل مكان وزمان؟ أهي عنقاء مُغرِب، ام هي اكسير الكيماويين الذي هلكت اجيالهم الوفا من السنين في تطلبه فأعياهم؟

فقال (د...) عجباً عجباً أتشك في وجود الاخلاق، أو في انها قِوام الحياة الفاضلة، ومِلاك السعادة الكاملة؟

فقال (ك...) انا لا اشك في وجودها، وكيف اشك في شيء اراه حتي في الحيوانات العجم، ولكني استنكر زعم من يدعي انها تتكيف على مايوده الوعاظ والمتكلمون، ويهواه الفلاسفة والخلقيون

فدخل في هذا التحاور (ن...) فقال : أتريد ايها الاخ ان تقول انها فطرية كما هي عند الحيوانات؟

فأجاب (ك...) انا اريد ان اقول انها ثمرة الحالات الاجتماعية، والمؤثرات الاقتصادية، وعوامل اخري نفسية وعالمية، ليس في يد احد تحويلها عن مجراها، تطبع الافراد بطابعها، وتوجههم الي ما تقتضيه على درجات تناسبها، وتتفق واياها، كما هو الشأن في الحوادث الطبيعية سواء بسواء، فكما لا يفيض نهر، ولا يهمي غيث، ولا ترتفع رطوبة بمحض الارادة البشرية، كذلك لا تتغير الاحوال النفسية بوعظ الواعظين ونصح الناصحين، والا لبلغت كل امة ارقى درجات الكمال بدعوة الدعاة، وإهابة الهداة. وانت ترى ان اولئك الدعاة والهداة أبعد عما يدعون اليه من المدعوين انفسهم

فصاح (ص...) اني اوافق اخانا ك... على ما يذهب اليه، وما يدلي به هو رأي اصحاب فلسفة التحول، فانهم يقولون ان الاخلاق صفات توجبها الحاجة الي الاجتماع، وتطبعها الحالات المختلفة للبيئة وشكل المعيشة بطابعها فلا تحول عنه الا بعوامل جديدة لا سلطان لاحد عليها

فقال (ش...) : هذا الكلام من الوجاهة بحيث يعتبر كل معارض فيه مسفسطاً.

وهل بعد الشهود برهان ، او بعد العيان بيان؟

فقال (د...) : ان الذى تدلون به من الرأي يكذبه الواقع الذي تعتمدون عليه. ألا ترون بأعينكم تأثير التربية في الحيوانات؟ فهل الجواد المروّض كالحصان المهمل، وهل الكلب المدرّب على الصيد والحراسة كالكلب الغفل الهائم على وجهه؟ ومن الذي يقول بأن الطفل الذي تولاه أبواه بالتربية والتهذيب يشب على ما يشب عليه الطفل المتروك ونفسه الذي يجول فى الطرقات جولان البهم الهائجة يترسم خطوات الداعرين، ويأخذ إخذ الفجرة والساقطين ؟

فأجابه (ك...): أريكم السها وترونني القمر. انا اكلمكم في مناشيء الاخلاق، وانتم توردون عليّ آثار التربية

فرد عليه (س...) : أليست التربية ثمرتها الاخلاق ؟

فأجابه (ك...) : نعم، ولكن الي الحد الذي اوجدته الفواعل القسرية لمجموع الامة. فالمربي يربي الطفل على الاخذ بصفات المثل الاعلى من الانسان الكامل ، ولكن الطفل يعفي على كل ما سمعه من مربيه، ويشب على الصفات المكونة للانسان العادى فى مجتمعه. ومن شاء ان يتحقق من ذلك فليقابل بين ما يلقي على الاطفال من الاخلاق في بيوتهم ومدارسهم، وبين ما يكونون عليه في المجتمع . ولو كان للتربية الأثر الذى تتخيلونه، وكانت الاخلاق طوع يد المربين والمعلمين، لبلغت الامم في جيلين او ثلاثة اجيال، ارقى ما يتصوره العقل من الكمال، ولصار كل انسان مثلا أعلي في ذاته

فاستشكل عليه (س...) بقوله : اذن بم تعلل تلك الحوادث الجُلّي التي حدثت علي يد المرسلين فى الامم ، وانت ترى انها نقلتهم طفرة من طور الي طور في سنين معدودة؟

فأجابه (ك...) هذا كلام سمعتموه فحفظتموه، ولكنكم لو تتبعتم ما تتبعه علماء الاجتماع من احوال الامم قبل تلك الرسالات، وما آلوا اليه بعدها، لما وجدتم للطفرة من أثر، ولرأيتم رأي العين ان ما آلوا اليه، هو ثمرة ما كانوا عليه، وانه حدث علي مقتضي نواميس ثابتة ، وبتدرج منتظم . عرفت ادواره ، وتعينت اطواره

فقال (س...) : كنا نسلم بما تقول لو كانت تلك الانقلابات الخلقية حدثت كما تحدث النتائج بدون نزاع بين القديم والحديث، وانت تعلم ان اولئك المرسلين قد لاقوا

من جاهلية شعوبهم مايلقاه الحق من الباطل في كل جيل، حتي لجأ الدعاة الي القوة في اكثر الاحوال ، فأين هذا الأثر مما تقول ؟

فردعليه (ك...) : ان تلك الدعوة الجديدة ذاتها ما نشأت الا بعد ما ولدتها العوامل الاجتماعية وهيأتها للظهور، وما شاهدته من الحوائل دونها هي لوازم كل انتقال في عالم الاجتماع. وقد ذكرت ان اولئك الدعاة التجأوا للقوة، فسجلت على نفسك الدليل على ماقلته انا. فان اللجأ الي القوة لايكون الا بأنصار، والانصار لايوجدون الا بشيء تتقبله نفوسهم، ويحبونه حبا يحملهم على بذل نفوسهم في سبيله. وكيف يعقل حصول هذه الحماسة ان لم تكن الدعوة قد وقعت موقعها من هوي النفوس ؟

قال (س...) : فهل تريد ان لايدعو داع الى اخلاق ارقى مما عليه الناس ؟

فأجابه (ك...) : لم أقل ذلك، ولكني قلت ان محض الدعوة اليها لاتجدي نفعا اذا لم تكن احوال الاجتماع وفواعل البيئة قد هيأت النفوس للدخول في طور جديد من الحياة الاجتماعية. واني اعتبر أن دعوة الدعاة للاخلاق تكون من الفواعل الادبية اذا نشأت في الامم حركة انتقال

فقال (س...) : لشد ماسرت اليك تعاليم الماديين منذ قرأت كتاب الاخلاق لهربرت سبنسر

فقال (ك...) : ان ماتنبزونهم بالماديين قوم يبحثون عن علل الاشياء وهم مجردون عن كل اثر للجمود على قديم، او للتعصب لشكل موروث، فهم ينقبون عن الحقيقة عارية عن كل خيال كساها به الجهل، او لفها فيه الوهم. وقد ذكرتم الاخلاق فأدليت اليكم بما تراه الفلسفة المادية فيها، ولو جريتم معي في هذا المجال لوجدتم عندي لكل غموض بيانا، ولكل قضية برهانا

***

قال الوجدان : لم ينته ك... من كلامه الي هذا الحد حتي التفت الينا ذلك البدوى، وكان الى ذلك الحين هو والشجرة سواء، وقال: أتسمحون لي ان اساهمكم البحث في هذه المسألة ، وأعينكم على استجلاء غوامضها المعضلة ؟

فنظر بعضنا الى بعض، وغلب الضحك اكثرنا ، فطفقوا يضمون مناديلهم على

افواهم تحاشيا من تخجيل الرجل. وتمالك اخونا د... نفسه فتدارك الامر بقوله للشيخ : لقد كدنا ستنزل فيها رأيك ، فهات ماعندك

قال الوجدان: فأرهفنا آذاننا، واشخصنا اليه ابصارنا، وتوقعنا منه مايتوقع من مثله في مثل هذه المباحث ، وتأهبنا لضحك كثير يحسن ان تختم به هذه الرياضة الجدية فشكرنا الشيخ بكلمتين، ثم التفت الى ك... بعينين نجلاوين، وقال له: أجبني يا بني أقرأت كتاب (مسائل علم الاخلاق) للاستاذ كارو المدرس بجامعة السوربون بفرنسا ؟

قال الوجدان: ماسمعنا من البدوي هذه الجملة، وخصوصا ذكره اسم الكتاب بالفرنسية الفصحي، حتى اصابنا دهش عظيم من المامه بهذه اللغة، ومن اطلاعه على كتاب قد لا نخطيء اذا قلنا انه لم يدخل منه مصرا كثر من نسختين، فزدنا تحديقا بابصارنا اليه

فاجابه (ك...) لم أقرأ هذا الكتاب،

فقال البدوي : ولا قسم الاخلاق في كتاب (الفلسفة الانتقادية) للفيلسوف فاشرو ؟

فأجاب (ك...) ولا هذا

فقال البدوى : ولا كتاب (علم الاخلاق) للفيلسوف رينوفييه

فأجاب (ك...) ولا هذا ايضا

فقال الرجل : ولا كتاب (آساس الاخلاق) لشوبنهور ، و(العلل الاولية للطباع) لكانت، و(نقد المذاهب الفلسفية) لألفريد فوييه، و(علم الاخلاق الانجليزى العصري) لجيو، وما كتبه الفلاسفة جول سيمون وفرنك و بول جانيه ولوي كوزان وادورد هارتمان في مؤلفاتهم عن الاخلاق وهم أئمة هذا العلم في عصرنا هذا ؟

فأجاب (ك...): لم أقرأ غير كتاب هربرت سبنسر

فقال البدوى وهو في هدوئه الاول : أفيصح يا ابن اخي ان تكون اجنبيا من علم الاخلاق على ماوصفت، فتنصب نفسك داعية لترويج مذهب من مذاهبه بين الخلق ؟

فأجاب (ك...) وقد علته حمرة الخجل، وفل من حده الشعور بالتطفل : أما لم

أروجه الا بعد ان تثلج عليه صدري ، واطمأن اليه قلبي،وعلمت من قوة حجته ، ووضوح محجته ، أن ليس وراءه مرمى ، ولا بعده غاية

فقال الاعرابي وقد بدت عليه بوادر من الغضب: أيبلغ منك ولم تدرس في الفلسفة كتابا واحدا،ولم تقم في مزدحم المذاهب،ولم تتورط في متاهاتها ومآزقها،ان تجعل ثلج صدرك فاروقا بين الحق والباطل،وطمأنينة قلبك حكما بين الحالي من الآراء والعاطل ؟ يالهذه الجرأة

فأجاب (ك..) وقد شعر بالتقصير،وادرك انه بحضرة عقل كبير: هل تتعدد الحقيقة؟ فاذا ظهرت لانسان وتجلت تجليا لا يدع للشك محلا، فما له بعد ذلك وافناء عينيه في تعقب مباحث لانهاية لها ؟

فقال الاعرابي : الحقيقة لاتتعدد ، ولكن اذا كان ادراكها من السهولة بحيث يدركها مثلك من اول نظرة ، فمابال هذه الجماهير من الفلاسفة قد اختلفوا فيها قديما وحديثا على كل مسألة من المسائل ،أيصح ان تتخيل ان الفلاسفة كارو وفاشرو ورينوفييه ورافيسون وجول سيمون وألوف غيرهم من المعاصرين اقل منك قبولا لادراك الحقيقة؟فلمَ ثاروا على مذهب هربرت سبنسر وتألبوا على دحضه ودحض آراء مشايعيه من الداروينيين؟كيف لم يبعثك التفكر في هذا الامر الى قراءة شيء من اقوالهم ؟

فأجابه (ك...) : وهل كان يتسع وقتي لمثل هذا؟

فقال البدوي: وهل يتسع ذرعك للدعوة الى مالم تحط به خبرا ؟

فأجابه (ك...): اني اعتقد ان ماقرأته هو الحقيقة بعينها،وان كل ما كتب في دحضه سفسطات لا يقام لها وزن.وعندي ان من وصل الى الغاية فليس عليه ان يورط نفسه في متائه التائهين ، ومضال الضالين

فقال البدوي وهو يتبسم:وما أدراك ان ماوصلت اليه هو الغاية، وما هو العلم الذى استفدت منه تمييز الغايات من البدايات.ان هربرت سبنسر نفسه يبرأ الى الله من ان يدعي انه وصل الى غاية،ولو قال مثل هذا اوما يشبهه لمحي اسمه من ديوان المفكرين وأُلحق بالمخرفين

فقال (ك...) وقد ثارت فيه عاطفة الانتصار للنفس . الك لم تفعل للآن غير الاستشكال عليّ بمسائل عامة ، فناظرني ان شئت في مسألة الاخلاق خاصة

قال الوجدان . فضحك الاعرابي بملء شدقيه ، ثم اخذ يصفق بيديه ،وانشد:

فلو اني بليت بفيلسوف بعيد الغور فياض البيان
(لهان عليّ ما أتي ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني)

ثم اقبل علي (ك...) وصوته يتهدج ضحكا وهو يقول : تناظر قَرْم الحكمة وفحلها،ولم تبلغ ان تكون فصيلَها(١) لشدّ ما لقيت منكم الفلسفة يابني غَبْراء،رجل في الارض وأنف في السماء،ولكن خذها بنية التعلم والمذاكرة،لا بنية الجدل والمناظرة

تقول متابعا لهربرت سبنسر والداروينيين ، ان اصل الاخلاق عاطفة الاجتماع المجبول عليها الانسان،فهو كلما اضطرته حاجات الاجتماع الي التخلق بخصلة أخذها وعاقب من لم يراعها،وأورثها بنيه وأحفاده.فصارت ملكة فيهم.وهكذا تم بناء الصرح الاخلاقي على مر الدهور وكر العصور،فالامر دار بين احوال،دفعت للاخذ بخصال، وجاءت الوراثة فطبعتها في نفوس الاجيال،فظنها الغفل غرائز روحانية،ومواهب سماوية،منحها الانسان،وحرمها الحيوان،والحقيقة انهما غصنا دوحة،وفرعا أرومة لا يمتاز احدهما عن الآخر من المواهب الا في اقدارها دون حقائقها

فقال (ك...): نعم نعم

فقال البدوي اني سائلك يابني فأجبني:هل الانسان هو الحيوان الاجتماعي الوحيد؟

فأجابه (ك...) لا،فكثير من أنواع الحشرات وذوات الثدي والطيور تعيش أمماً مجتمعة ؟

فقال البدوى : هل كانت تبيد هذه الحيوانات الاجتماعية لو لم تعش مجتمعة؟

فأجابه (ك...) : لاأظن ذلك

فقال البدوى : فما الذى دفعها للاجتماع ؟

فأجابه (ك...):لا بد ان يكون قد نشأت ضرورة اوجبت عليها ذلك والا بادت

---

(١) القرم الفحل الكريم من الابل. والفصيل الفطيم الصغير منها.وغبراء هي الارض

فقال البدوي : هل تلك الضرورة القاهرة، عمت جميع نوعها في كل بيئة، أ انت ترى ان النمل في جميع القارات تعيش مجتمعة؟

فأجابه (ك...) : يجب ان يكون قد حدثت لها تلك الحاجة قبل ان تتوزع على الارض

فقال البدوي : حيوانات من أنواع مختلفة تعيش في بيئة واحدة كيف يعقل ان توجب الضرورة على بعضها الاجتماع ولا توجبه على سائرها ؟

فقال (ك...) : لابد ان تكون الضرورة قد اصابت البعض دون البعض الآخر

فقال البدوي : كيف يتفق ان الضرورة لم تصب نوعا من الانواع الهاملة فتوجب عليه الاجتماع في مدي هذه الالوف الكثيرة من السنين من يوم دوّن الانسان العلوم ؟

فقال (ك...): ان الانسان نشأ بعد ان تمت اطوار الخليقة بملايين من السنين ، فما قيمة بضعة الآلاف من الاعوام في عمر الانواع الحيوانية ؟

فقال البدوي : على اي اسلوب تؤثر الضرورة في الحيوانات فتنقلها من حال التفرق الى حال الاجتماع ؟

فأجابه (ك...): وُجد كل نوع من الحيوانات مفطوراً على حفظ شخصه واستدامة نوعه فاذا ألم به ما يهدده في ذاته، تيقظت فيه هذه العاطفة، ودفعته للجأ الى كل حيلة يدركها عقله للنجاة منها، فان طغى سيل ألهمته تَوَقّل الروابي، وان حدث مطر ساقته للاستذراء بالكهوف او تحت الاشجار ، وان طارده كاسر دفعته للهرب

فقال البدوي : نسيت مثلا اهم من كل ما مر فلم تقل كيف فعلت فيه عاطفة حفظ ذاته عند ما أصابه مالا سبيل الي دفعه الا بالاجتماع على افراد نوعه؟ أجتمع افراد منه فتذاكروا ما يصيبهم من التلاشي ان اصروا على فرقتهم وما ينالهم من اليمن والأمن بالاجتماع، فقرروه وجروا عليه، أم اندفعوا للاجتماع بلا روية ولا تفكير كما هو شأن الجمادات بتأثير النواميس الميكانيكية ؟

هنا أحس (ك...) بثقل وطأة السؤال ، فسكت هنيهة ثم رفع رأسه وقال: ان تفسير هذا الامر يصعب على من يخيل اليه ان الانواع وجدت على ما هي عليه الآن من الصفات والمحاولات، ولذلك تراه يستكبر امرها، ويستعظم شأنها، ويحاول

فهمها، فيتعسف في الفروض، ويتسكع في الظنون، كمن ينظر من النوع الانساني الى ارقى طوائفه حيث النُظُم الاجتماعية، والرَبط الادبية، والابداعات الصناعية، والكنوز العلمية، فيذهب في اكباره وتفخيمه كل مذهب ويدعي ان ما هو فيه فيض سماوي، ومدد علوي، ويعمي عن طوائفه الدنيا في جهالتها وعمايتها وتجردها حتي عن مثل ما للحيوانات العجم من النظام الاجتماعي والمعيشي، وما اقتضاه ارتقاؤه من ألوف من السنين صرفها في تنازع البقاء، والتناحر على احقر الاشياء، وما هلك منه من ملايين الملايين حتى، وصل لدرجة لا يغبط عليها من درجات الحياة

فالنحل والنمل وكلاب البحر وما ماثلها من الحيوانات التي يراها الانسان فيعجب بنظامها الاجتماعي ورقيها الصناعي، لم تصل الى ماهي عليه طفرة بل نشأ علي احقر حالاته في اصولها الاولى، ثم ارتقي درجة درجة في ملايين من السنين، بارتقائها هي في اجسادها واعضائها، وبعد ان باد منها عدد لا يدخل تحت حصر في مكافحاتها لذواتها وللمؤثرات الطبيعية معا

هذا هو الاسلوب الذي يجب ان ينظر به الي الاحياء الارضية لاستجلاء اسرارها، لا النظر اليها علي ماهي عليه الآن بعد ان مرت عليها ملايين السنين في تنازع وتناحر وكفاح فيما بينها وبين الطبيعة

قال البدوي وهو يهز رأسه : بَخٍ بَخٍ . ولكنك أغفلت في بيانك الباهر أمراً جللا كان يجب عليك ان تلم به في فلسفتك هذه

فقال (ك...) : وما هو ؟

فقال الاعرابي : انك صعدت بالاحياء الي طور بعيد من وجودها، ولكنك وقفت منه الى حد معين، حد كانت فيه اجسادا آلية مركبة، واذ قد رجعت بها القهقري الي هذا الحد، فلم لا تصعد بها الى اصلها الاول

فقال (ك...) : أتريد ان اصعد بها الي حيث كانت خلايا ساذجة علي أدني درجات الحياة ؟

فقال الاعرابي : أريد أبعد من ذلك، فانك وقد عبت من قف من نظره عند حد ماعليه الشيء، وادعيت انك ترد الكائنات الي اصولها لتعرف منا شيء صفاتها وطبائعها،

وجب عليك ان لا تقف بالاحياء في دورها الذى كانت فيه خلايا حية، لان هذا الدور يعتبر ترقيا لا حد له عن الحالة الجمادية. ففسر لنا كيف نشأت الخلايا الاولية من المواد المعدنية، وكيف حلت فيها الحياة وليست لشيء من النواميس الطبيعية والمواد الارضية. فان ما بين الحى على ادني احواله، وبين الجماد في ارقى اشكاله، كما بين الوجود والعدم

فقال (ك...) اما يكفيك ان افسر لك سر الارتقاء في عالم الاحياء من لدن ان كان خلية اولية، الى ان وصلت الي ارقى درجات الانسانية، حتي تطالبني بما قبل ذلك؟

فقال الاعرابي : مادامت المسألة بحثا بيننا في اصول الصفات في الاحياء وقد جشمتنا تعب النظر فيما كانت عليه قبل ملايين من السنين، فلم تبدأ من حيث يسهل الكلام عليك، ولا تبدأ من حيث يصعب، لتدرك مكان المسألة من الخطورة، فيحصل لك أدب عال يزعك عن التسرع فى الحكم علي الامور؟

فقال (ك...) : أنا بدأت الكلام من حيث بدأه دارون نفسه

فقال الاعرابي : ان دارون نفسه قرر ان هذه الخلايا الاولية التي نشأت منها جميع الاحياء، قد نفخ فيها الخالق نسمة الحياة، فأسندها الخالق قادر، وذكر أن مذهبه أدل علي كمال قدرته، وشمول علمه من مذهب الدينيين انفسهم. ومتي أسندت المسئلة الي هذا الجانب فقد انحلت، ولكن تلاميذ دارون لم يتأدبوا بادب استاذهم، فادعوا انه قصر فى استخراج كل ما تقتضيه نظريته من النتائج. فشطوا شططا بعيدا، ومنهم هيكل وشارل فوجت وجيبيل وملدر وبوخنر أئمة الالحاد العصري، وهم الذين سرت تعاليمهم بين الخلق، وتسربت اليك منهم. فوجب عليك اما ان تقول برأى دارون فتسند الحياة الي مصدرها العلوى، واما ان تذهب مذهب تلاميذه فتقول كما يقولون، ان الحياة نشات من المادة بفعل النواميس الآلية. وعندى لكل من الموقفين كلام

فقال (ك...) : يجب عليك قبل ان تتخطي هذا الطور من البحث ان تعترف بان ما قلته قد اصاب شاكلة الصواب

فقال البدوى : عجباً لك. تزعم انك تسند الامور الي اصولها، وتصعد بها الي مصادرها، ولم تعمل من ذلك شيئا وتريد ان اشهد لك بالاصابة

فقال (ك...) : وما هذا؟ ألم أصعد بالاحياء الي اول مبادئها، وهي حالتها عندما

كانت خلية ، فهل بعد هذا مرمى ؟

فقال البدوي : الله الله ، تريد ان تبدأها من حيث قامت الحياة بما تقتضيه من اندفاع للنماء، وقبول للارتقاء، وبما كمن فيها من القوى التي تحول الجمادات، وتتحكم في البيئات، وبما استكن فيها من العوامل التي ترفعها من حضيض النقص الى ذروة الكمال، اى تريد ان تبدأها من حيث هي كل شيء ليسهل عليك وصف اطوارها فى الارتقاء، وعروجها فى سلم الاحياء، مدعياً ان ذلك نفوذ منك في سرائر الكائنات ، وما هو الا وصفاً لما حصل من ادوار الانتقالات، وزاعماً انه صعود بالشيء الى اصله الاولي ، وما هو الا بدء به من طوره النهائي

فقال (ك...) : أتعتبر كلامي عن الاحياء من عهدان كانت خلايا ساذجة أخذاً لمسألتها من طورها النهائي ؟

فقال البدوى : نعم لان الخلية الاولية مستقر كل سر فى امر الحياة، ومستودع كل عامل جليل من عواملها، ناهيك بكائن لا يرى الا بالآلات المكبرة ينمو ويتكاثر بذاته، ولا يزال يترقى حتي تشرق فيه هذه القوة العقلية العالية. فان بدأت بحثك منه فقد استدته الي سر الاسرار، ومعضلة المعاضل، فلا يكون لك حق فى ادعائك فك المعميات ، وتفسير المجهولات، وتكون فى تتبعك اطوار الاحياء، واصفا لاحوالها، لا شارحا لعواملها. فان قلت، طبعت الاحياء علي حفظ ذواتها واستدامة أنواعها، سألتك لمَ طبعت علي ذلك؟ فتجيبني بقولك: هكذا كانت. وليس هذا بجواب فلسفى كما لا يخفى، لانه إسناد الى مجهول. وان قلتَ تعودت بعض الحيوانات ان تعيش مجتمعة، وبعضها ان تعيش متفرقة، سألتك كيف تعودت مالم تألفه ولم تبد؟ فتجيبني بان فى الاحياء قبولا للتحايل علي مقاومة الافاعيل الطبيعية، وليس هذا بجواب شاف لانه لايعلل سبب ذلك القبول فيها. وان قلتَ ان هذه الصنائع التي فطرت عليها بعض الحيوانات، وهذه المحاولات التي تبدو منها لحفظ ذواتها ، وتربية صغارها ، وهذه النُظُم الاجتماعية التي تسود علي جماعاتها ، والرُبُط المعنوية التي تمسك طوائفها ، عادات موروثة، سألتك كيف ترث الحيوانات المجم عاداتها فتنساق ذراريها الى العمل بها بدون تعليم، ولا يشبهها فى ذلك الانسان نفسه وهو ارقى منها بما لا يقدر، فتجيبني

هكذا كان الامر، وليس هذا بجواب علمي يقبل من رجال يدعون انهم ادركوا اصول الكائنات ، وحلوا معضلة الوجود

فكل ما عندكم لا يخرج عن وصف ما عليه الكائنات، وليس هو علما بحقائق العوامل التي تنشئها وتربها من وراء حجاب. فسر المسئلة كلها ينحصر في (الحياة) فاذا حل لغزها حل لغز كل شيء والا فلا

***

هنا زج (ص...) بنفسه في المعمعة وقال لصديقه (ك...) ما المانع لك من الادلاء برأى الماديين في الحياة من انها نشأت من المادة بفعل النواميس الطبيعية ؟

فقال (ك...) : يمنعني من ذلك خروج المناظرة عن حدها وبعدنا عن موضوع الاخلاق الذي تصدينا لتجليته، فان الخوض في مسئلة الحياة يتناول مباحث عويصة. فرأيي ان ندعها لفرصة اخري ونكمل اليوم ما شرعنا فيه من مسئلة الاخلاق

ثم التفت للاعرابي وقال له : لنترك مسئلة الحياة ونرجع الي مسئلة اصل الاخلاق

فأجابه البدوى : اما اصل الاخلاق فقد انتهينا منها الى مفترق المذاهب فأصبح الكلام فيها عقيما الا اذا حلت مسئلة الحياة

فقال (ك...) : وما لمسئلة الحياة والاخلاق ؟

فقال البدوى : ان العلاقة بينهما من أوكد العلاقات. فان الذى يرى ان الحياة مظهر من مظاهر قوى المادة، ويعتقد أن كل ما فوق التراب تراب، لا يجد من اصل للاخلاق سوى الصفات المتنزلة من تلك المادة، فيسندها إما الي عاطفة الاجتماع. وإما الى اللذة، واما الى طلب المنفعة الخ الخ ولا يصعد بها الي ما وراء ذلك لاعتقاده ان التركيب الانساني خال من كل ما سوي المادة وصفاتها، فهو مضطر للوقوف بها هذا الموقف ولكن الذى يعتقد أن المادة الظاهرة للحواس مظهر من مظاهر القوة، وانها بالتحليل تفني في تلك القوة، فانه يري ان للعالم اصلا ارقى من المادة، وان الانسان قد اخذ من ذلك الاصل حظا اوفر مما اخذه غيره، وان ما اخذه منه وانحصر فيه يسمي روحا، وان لتلك الروح من الصفات العلوية ما لا يحد بحد، وانها لا تزال تزداد فيه اشراقا على تتالى العصور حتى تلحقه بالملأ الاعلى في عالم لا ينحصر جماله وجلاله واطلاقه فى صورة ذهنية

فقال (ك...) : ان استحالة المادة الى قوة هو مذهب العلم الرسمي اليوم، ومسألة تحليل المادة صارت مسألة عملية منذ ثلاثين سنة، ومع هذا فلا يزال الماديون مصرين على مذهبهم لايرون ان القوة أرفع من المادة في شيء، فهي في نظرهم قوة مجردة عن العقل والارادة والشعور

فقال البدوي : لا تغتر بتظاهر الماديين بالثبات على اصولهم فمذهبهم قد اصيب بضربة قاضية بعد ثبوت انحلال المادة الى قوة. فان ما بين الجواهر الفردة الجامدة التي كانوا يقولون بها، وبين العقل والارادة والشعور، بوناً أبعد مما بين هذه الصفات وبين القوة في تجردها وعلوها واطلاقها. فاذا أُرغموا اليوم على قبول كونها قوة مجردة فسيقبلون غداً كونها عاقلة مدبرة موجودة وجوداً مطلقاً، وهي اصل لكل شيء، تشرق على كل كائن بما فيه قوامه وكماله، وقد ظهرت في الانسان بمظهر قواه العقلية ومواهبه العلوية

فقال (ك...) : اذا كان الفرق بين الروحيين والماديين هو الذي ذكرته فالفرق بينهما عظيم جداً خلافاً لما تذهب اليه، واقامة الدليل التجريبي على حقية احدهما رابع المستحيلات

فقال البدوي : اما بيان كون الفرق بينهما حقيراً او عظيماً، واما الدليل الحسي على حقية احدهما فليس من شأننا اليوم، وربما عدنا اليه في مقابلة اخرى. ولكن الذي علينا بيانه ان القوة النفسية المستكنة في الانسان ليست هي التي تشاهد في الانسان العادي، وان معارفه ومواهبه ليست بقاصرة علي ما تحصله له حواسه الخمس، بل ان فيه قوة أرقى وراء القوة التي تشاهد فيه، ولمعارفه ومواهبه مصدر غير الحواس الخمس

فقال (ك...) : وماذا يفيدنا اثبات هذا الامر في مسئلة الاخلاق؟

فقال البدوي : يفيدنا الدلالة الحسية علي ان لاخلاقه مصدراً روحانياً ارقى من المصادر المادية القاصرة علي عاطفة الاجتماع وعلي اللذة او المنفعة الخ

فقال (ك...) : وأنّي لك اثبات هذا الامر وكل ما ستقوله قد قاله الفلاسفة من عهد فيثاغورس فنقضته الفلسفة المادية ورمت به الي عالم الظنون والخيالات ؟

فقال البدوي : هوّن عليك فاني سأثبت لك ذلك بالدلائل الحسية قبل ان تقوم من مقامك

قال الوجدان : فنشطنا لنرى كيف يثبت ذلك بالحس فيدفع عنا من الشكوك والريب ما جعل حياتنا مرة ، وكفى بالشك جهلا ، وبالجهل حيرة

فنظر الينا الاعرابي وقال : هل فيكم من يتبرع بنفسه ربع ساعة لاري لاخوانه أسرار النفس بدليل محسوس ؟

فقلنا : على اي حال يتبرع بنفسه ؟

فقال الاعرابي : أنيمه نوما مغناطيسيا

فقال احدنا (ع...) : لا بأس من ذلك وانا اقدم نفسي للتجربة

فأمره الاعرابي بأن يجلس إزاءه . ففعل . فنظر اليه، وقال له بصوت الآمر النافذ الكلمة : (نم)

قال الوجدان : فوالله مامضت ثانيتان ، حتى غشيه ما غشيه من النوم

فنظر الينا الاعرابي وقال : لقد نام صاحبكم، ومعنى ذلك انه قد خرج عن حالته العادية، فبطلت شخصيته المعروفة لديكم، وتعطلت حواسه، فاذا كانت هذه الحواس هي مصدر علمه ومداركه وعواطفه، فيلزم من ذلك ان يكون الساعة هو والجماد سواء . فما قولكم اذا كان هو الآن ارقى مما كان وهو صاح درجات لا تحصى؟ لقد كان وهو صاح يسمع بأذنيه ويري بعينيه ويحس بأعصابه الي حد معين، ولكنه الآن يرى ويسمع ويحس بما لا كان يستطيع ان يراه او يسمعه او يحس به

قلنا : أرنا دلائل ذلك

فنظر الاعرابي الى صديقنا (ك...) وقال له : أتدري عدد ما في جيبك من الاوراق ؟

فقال : لا

فنظر الى النائم (ع...) وقال له : كم فى جيب صديقك من الاوراق؟

فأجابه على الفور : اثنتي عشرة ورقة . فكان كما قال

ونظر الاعرابي الي اخينا (ص...) وقال له كم في كيسك من الدراهم ؟

فأجابه : لا أذكرها بالضبط

فنظر الاعرابي الى (النائم) وقال له : كم معه ؟

فأجابه بلا تريث : جنيهان واثنان وسبعون قرشا. فلم يخطيء فى فلس واحد

ثم نظر الي صاحبنا (ن...) وقال له : أفي جيبك اوراق مكتوبة ؟

فقال نعم

فسأله: اتستطيع ان تقرأ مافيها ؟

فأجابه نفيا

فقال له الاعرابي . أخرجها من جيبك واجلس خلف هذا النائم وانظر فيها

ففعل

فأمر الاعرابي (النائم) بأن يقرأها واحدة واحدة

ففعل ولم يسقط منها حرفا

فقال الاعرابي . أيعرف أخوكم هذا ، وأشار الي (النائم)، مافي بيوتكم ؟

قلنا . لايعرف منها الا الغرف التي نجلس فيها من ادوارها السفلي

فنظر اليه الاعرابي وأمره بأن يصفها لهم

قال الوجدان . فأخذ يصف مافي بيوتنا بيتا بيتا، لم يدع بهوا ولا حجرة ولا اثاثا الا وصفه وصفا نعجز نحن عن مثله

ثم نظر الينا الاعرابي وقال . ليقم ثلاثة منكم فيوغلوا في هذه الصحراء حتي يبلغوا هذه الاكمة فيستتروا خلفها وليعملوا ويقولوا ماشاءوا، ثم ليقبلوا الينا نخبرهم بما قالوا وما عملوا

قال الوجدان . فانتدب منا ثلاثة ففعلوا ماأشار به الاعرابي وبعد وصولهم الي الاكمة واستتارهم خلفها ، أمر البدوي أخانا (النائم) ان يصف لنا مايعملون وما يقولون

قال الوجدان . فأخذ يصف لنا جلساتهم واشاراتهم واقوالهم وما تواطأوا عليه من دفن ورقة كتبوا عليها شيئا بخط دقيق لايقرأ. فلما اقبلوا علينا اخبرناهم بما فعلوا وما قالوا وما دفنوا وما كتبوا (١)

---

(١) هذه الخوارق لها نظائر في التجارب التي يعملها العلماء في التنويم المغناطيسي فهي ليست بخيالية بل من الامور المحققة تحقيقا علميا صارما

قال الوجدان . فنظر الينا الاعرابي وقال ، اما مكم رجل معطل الحواس الخمس ، محروم من الاتصال بالعالم الخارجي ، وفي حالة خدر عميق ، وها انتم ترونه أبصر وأسمع ، وهو في هذه الحالة وبدون الاستعانة بتلك الحواس ، مما كان عليه وهو صاح متمتع بها على غاية كمالها ، أفلا تستدلون من ذلك بدليل محسوس ، على ان في الانسان وراء حواسه قوة ليست مكتسبة من هذه الحواس ، بل هي الموجدة لها تعمل فيه من وراء هذا الحجاب الجسداني فتربته من حيث لا يعلم ، وتدبر اعضاءه وهو جاهل بوجودها وبطبيعتها ، وهي ينبوع قواه المعنوية ، ومستمد ميوله الادبية ، متصلة بعالم عال يجانسها هو لهذا العالم المادى كالروح من الجسد ؟

فقال (ك...) . انا لا استطيع ان القي سلاحي بهذه السهولة امام مشاهدات ، وان كانت خارقة للعادة ، الا بعد ان استنفد الوسع في تعليلها بالعلل الطبيعية المعروفة . لان الحكم بوجود عالم معنوي مطلق وراء هذا العالم المادي المقيد أمر جلل ، يقلب نظريات العلم رأسا على عقب لا يصح التسليم به قبل عرضه على كل الفروض التي يتسع لها العقل وقبل استعصائه عليها

فقال (ص...) . وانا اوافق اخانا (ك...) على مذهبه ، فان تاريخ العلم قد بين لنا وجوه الضلال التي كان يتردى فيها العقل البشرى من جراء ميله الى اثبات عالم معنوى غير محسوس ، متسلطا على هذا العالم المادي المحسوس ، وربط الاسباب الارضية بأسباب علوية ، ولم يخلص العلم من هذه الحالة من القصور ، الا بعد ان أُحرق من افراده ثلاث مئة الف او يزيدون ، في سبيل تحريره . على انه لم يكد يخلص منها حتى اثبت بما كشفه من الساتير ، وأضاءه من الدياجير ، وما أقامه من الصناعات ، وأوجده من المخترعات ، انه اهل للاستقلال بنفسه ، فكيف يراد منا ان نرجعه الى تبعيته الاولى فنعيد للعالم عهد الخرافات والاضاليل اغترارا بخوارق يمكن تعليلها بعلل معروفة

فقال (ن...) . وان لم يمكن تعليلها بعلل معروفة فيجب عدم الاعتداد بها حفظا لاستقلال العلم وحماية له من الوقوع تحت سلطة الاوهام

فقال البدوى . ان موقفكم هذا مناقض للعلم الذي تقدسونه ، وفيه من الغلو ما لا

يصح صدوره من امثالكم

فاما مناقضته للعلم، فلأن العلم كما يدل عليه اسمه الملم بالمجاهيل فان اكتفيتم بما عندكم منه، وهو قطرة من بحر الحقائق، وجعلتموه حجابا بكم دون كل جديد فكأنكم وقفتموه عند حد محدود، وقضيتم عليه بالجمود

فقال (ن...) نحن لم نقف بالعلم عند حد، وكيف نفعل ذلك ونحن نرحب بكل من يضع في صرحه حجرا جديدا ونقيم له تمثالا يخلد ذكره، ولو عددت لك ما قبلناه من المستكشفات الجديدة في العشرين السنة الماضية من القرن العشرين في الكيمياء والطبيعة والطب والفلك استغرق سردها ساعات عديدة

فقال البدوي . لمَ تعارض هذا الاستكشاف الجديد إذن وتتحرى ان تجد له علة طبيعية ، فان لم توجد فترى ان الاولى اهماله وعدم الاكتراث له ؟

فقال (ن...) . اعارضه لانه سيعيد لنا دولة الفلسفة الروحانية بما تقتضيه من الخوض في لجج الخيالات ، والخبط في غياهب الاوهام

فقال البدوي . لاتلازم بين الفلسفة الروحية والخوض في الخيالات بل المدار على الاسلوب الذي يتبع في البحث. ولقد كان العالم الطبيعي والفيلسوف الروحاني سواء في التعويل على الخيال قبل ان ينبغ (باكون) في القرن السابع عشر ويضع دستوره في تقرير الحقائق العلمية، وهو الدستور القائم على المشاهدة والتجربة. فليس من حقك بعد هذا ان تثور على اي اكتشاف قام على هاتين الدعامتين. فان فعلت ذلك كنت صاداً للعلم عن التقدم وجانياً على الحقائق اكبر الجنايات

فقال (ن...) . أتريد ان تقنعنا بوجود قوة مدبرة مستقلة في الانسان عن جسده المادي، وبأن تلك القوة متعلقة بعالم عال غير هذا العالم المحسوس؟ هذا مالا يقول به عالم عصري يستحق هذا الوصف

فقال البدوي . لست انا الذي اريد ولكن الدستور العلمي هو الذي يريد، فان كنت مراعيا لهذا الدستور وجب عليك، وقد رأيت بعينيك هذه التجربة التي عملتها امامك، إما ان تقبلها كما تقبل كل مسألة علمية، واما ان تردها الى المقررات المعروفة، واما ان تعلق حكمك عليها حتى تضيف اليها امثالها ولا تجد مناصا من الاعتراف بها.

هذا هو موقف العامل بدستور العلم ، القائم بحقه

اما قولك أن ما قررته لك لا يقول به عالم عصري، فكلام يدل على عدم اطلاعك على الحركة العلمية في العالم، فان التنويم المغناطيسي اصبح فرعاً من العلم الرسمي، وقد أضيف في برامج التعاليم الى العلوم الطبية . نعم ان تلك البرامج قد اقتصرت منه على مشاهداته السطحية، ولكن في العالم اليوم جماهير من العلماء، قد بلغوا من تجاربه العالية الدالة على ما اقول مدى بعيداً، وقد نشروا تجاربهم في مئات من الكتب المطولة واعلنوا تأييدهم للفلسفة الروحانية على رؤوس الاشهاد، فكان لاجماعهم تأثير كبير في المعاهد العلمية، فان كنت لا تدري ذلك فالتبعة فيه عليك

فقال (لك...) : أتستطيع ان تسمي بضع مؤلفات لكبار الباحثين في هذا الموضوع

فقال البدوي : نعم . كتاب (علم النفس المجهول) للفيلسوف (اميل بوارك) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ورئيس جامعة بوردو. وكتاب (الشخصية الانسانية) للاستاذ (ميرس) المدرس بجامعة كمبردج . وكتاب (علم النفس) للاستاذ (وليم جيمس) المدرس بجامعة هارفاد بالولايات المتحدة، وكتاب (الحالات العميقة للتنويم المغناطيسي) للعلامة الرياضي (دوروشاس) ناظر مدرسة الهندسة في باريز الخ الخ من الكتب الشاملة لتجارب حاسمة تسمح لمثل العالم الفلكي الاشهر (كاميل فلامريون) ان يقول في كتابه الذي سماه (حل مسألة الموت) صفحة ٤٨

« لا يمكن ان نمتنع من الاعتراف بأنه يوجد بجانب الظواهر الفزيولوجية فينا بل فوقها اصل عقلي عامل باستقلال، بدونه لا يمكن تعليل شيء من أمر الحياة، وبه نستطيع ان نعلل كل شيء فيها »

وقال في صفحة ٥٥ من ذلك الكتاب :

« المادية مذهب باطل وناقص يقصر عن أي تعليل تطمئن اليه النفس. فان القول بأن لا شيء في الوجود غير مادة متمتعة بخواص من الفروض التي لا تقاوم التحليل العلمي. هؤلاء (الحسيون) على خطأ عظيم فانه توجد أدلة (حسية) على ان العرض الذي مؤداه أن المادة متسلطة على كل شيء، ومدبرة بخصائصها لكل شيء بمعزل عن الحقيقة

وقال في صفحة ٥٦ :

« يوجد في الانسان شيء غير الذرات الكيماوية المتمتعة بخصائص ، يوجد فيه عنصر غير مادي،هو اصل روحاني سيريناه الامتحان النزيه للمشاهدات وسيريتنا ايضا ان ذلك الاصل الروحاني يعمل مستقلا عن الحواس الجسدية »

وقال في صفحة ١٥٥ :

« كل هذه المشاهدات في التنويم المغناطيسي والانتقالات الفكرية الخ مما ألممنا به إلماماً لاثبات حقيتها والتي سنعود اليها فيما يلي،تثبت بلا أدني شك تأثير الروح في الجسم المادى وتؤدي الي استنتاج ان الروح موجودة في حالة استقلال عن الجسد »

وقال في صفحة ٢٦٢ بعد سرده عدة مشاهدات :

« ليس في هذه الروايات لاخيال ولا خداع ولا تدليس،فهي من التمحيص في درجة اي مشاهدة خاصة بالحوادث الجوية او بالامور الفلكية » انتهي

فاذا بلغت الحال بأكبر علماء الارض ان لا يمالك نفسه من مثل هذه الاقوال حيال المشاهدات المحققة للمسائل النفسية في عصرنا الحاضر،فكيف بك وبأمثالك ممن هم عيال عليهم في العلوم والمعارف ؟ لو كان الامر قاصرا علي كاميل فلامريون لقلنا اصابه نوع من الجنون،ولكن هذا الفتح الجديد يذيعه في العالم اليوم الوف من علية العلماء ورجلة الفلاسفة،وتنشره في الامم مئات من المجلات والوف من الكتب، وتكونت له مجامع علمية،وأقيمت له مؤتمرات في اكبر العواصم الاوربية،فهل انتم نيام في هذه الزاوية من زوايا الارض ؟

***

قال الوجدان فاعترتنا حيرة مما يقول،واخذ بعضنا ينظر الي بعض خجلا من انكشاف جهلنا بحقيقة الحركة العلمية التي ندعي اننا من زعمائها في الشرق،ورأينا اننا من هذا الاعرابي امام عقل بعيد الغور،وعلم واسع المدي،وأنّي في زرعنا ان افضل ما يجب ان نعمله هو ان نستفيد من علمه،ونقتبس من فضله،فليس الظفر بمثله متيسرا في كل آن ، فأقبلت عليه وقلت له :

اذا كانت الغاية ايها الحكيم هي الاخلاق،فاذا يعنينا اصلها،أكان ضرورة الاجتماع

ام طلب المنفعة،ام روحا علوية ثاوية بهذا الجسد، تهيب بصاحبه الي طلب الكمال، وتحري الجمال؟ومن الدلائل على ان هذا الاصل لامعول عليه، ان الماديين انفسهم يعتبرون الاخلاق ضرورية لسعادة الامم،ويدعون اليها بمثل الغيرة التي يدعو بها اليها الروحانيون مع ان اصلها عندهم هو ماعلمناه من فلسفتهم

فقال البدوى : يهمنا اصل الاخلاق كما يعني البناء اصل البناء، فليس من يبني على شفير هار، كمن يبني على اساس قارّ (١)، فما أبعد الفرق بين اخلاق تقوم على ان المادة العمياء اصل كل حي وغايته، وا لحيوانية محتدة ورتبته، والفناء بعد طول الكفاح نهايته، وبين اخلاق تؤسس علي ان هذا الجسد الانساني، يسكنه روح سماوي، ويعمره امر إلهي، وان هذا الروح متصل بالعالم العلوي اتصال الفرع بأصله، والجزء بكله، وانه ورّط فى هذه المادة ليؤدى للنظام العالمي عملا، وأنه باحتكاكه بالارضيات يجب عليه ان يحصل كمالا يعرج به الى عالمه الأعلى، بعد ان يقوم بما عهد اليه في حياته هذه بالتكاليف التي فرضت عليه نحو ذاته ومجتمعه وبني نوعه والوجود بأسره

نعم ان بين هذين النوعين من الاخلاق لبونا شاسعا، وفرقا بعيدا، فان الآخذ بالأولي لايرى في الاخلاق الا حوائل دون مراميه المادية، وصوادّ فى وجه مطالبه الجسدية، فهو ان اخذ بها فانما يفعل ذلك مضطرا بحكم اختيار أخف الضررين على انه في تخلقه بها يعتبرها ثيابا طارية، ويعدها احابيل لابد من مدها لتصيد المنافع، وتطلب المرافق، لاعنا بقلبه الوجود الذى اوجب عليه التقيد بها، ساخطا علي الضرورة الاجتماعية التي حتمتها عليه، لذلك تراه نزّاعا الى رفع كابوسها عن صدره، متطلعا الي القاء نيرها عن عاتقه، فهو يمضي حياته منضما قلبا وقالبا الى الاباحيين والفوضويين، والدعاة الي الانقلابات الاجتماعية، فان بدت حركة تطرّف، او بادرة انقلاب، وجدته فى السابقين الاولين من العاملين عليها، تارة باسم الحرية، وأطوارا بعنوان المدنية، ومرة لانقاذ جنس من سيطرة جنس، وهكذا تراه يتقلب فى الالقاب ويتلون في المساعي، ومرماه الوحيد فك قيود التكاليف عن نفسه، وحل ربط العادات

(١) شفير اى حرف . وهار اى متهايل . وقارّ اى ثابت

عن عنقه ، واطفاء نار المطالب والرغائب البهيمية في قلبه، وهو معذور في كل هذه الرعونات لانه يعتبر نفسه حيوانا، ولم يمن بما مني به الحيوان الاعجم من قصر النظر، وقصور الحيل ، حتى يقف فى حده ، ولا يخرج عن قصده

ولكن الآخذ من الاخلاق بالثانية يأنف ان يشاكل البهائم في خستها ، وان يضارعها في دناءتها، لانه يرى نفسه مستودعاً لروح علوى ليس لها ، ومستقراً لنور إلهي لم يتجل عليها، بل هو يرى الارض وما عليها من متاع مادي لا يصح ان يحرك فيه شهوة، او يثير منه رغبة، لمباينته لطبيعة ذلك الجوهر السماوى، ومنافاته لكيان ذلك النور العالي، فهو يصيب من الارضيات ما يقيم صلبه، ويحميه رعونات جسده، جاعلا روحه معلقة بالملأ الاعلي، وميوله منصرفة الى تحقيق الغايات القصوي، معتبراً الناس اخوانا له تجب عليه مرافدتهم ، لامزاحمتهم ، ومياسرتهم، لامعاسرتهم ، يراهم نهبا لغوائل الشهوات، وهدفا لسهام الرغبات، فيعمل علي حمايتهم منها ، بتقوية الملكات العلوية فيهم، وايقاظ القوى الروحية عندهم . فما اكبر الفرق يابني بين الاصلين ، وما أبعد البون بين الوجهتين، فكيف لا يعنينا اصل الاخلاق، وانت ترى ان الاصل المادى يخرج الابالسة والشياطين، ويولد الفوضيين والاباحيين، والاصل الروحاني ينشيء الصالحين والطيبين ، ويُنبغ الهداة والمصلحين ؟

فقال (س...) : ألا يكون الآخذون بالاصل الروحاني أشبه بالمتبتلة والزهاد، وأقرب الى المترهبة والعباد ، وهل بمثل هؤلاء تثبت الامم في ميادين المكافحات الاجتماعية، وتبلغ المدنية اقصي ماقدر لها من الابداعات الصناعية؟ ماذا ينتظر من قوم اعينهم طامحة الى السماء، وقلوبهم مشتغلة بعالم الصفاء، ونحن من عالم الاجتماع في معامع ثائرة الرهج ، ومن مطامع الاقوياء فى تنازع يذيب المهج ؛

فقال البدوى: لعلك يابني تخيل ان الانسان لا يكون قويا في نفسه، حاميا لسربه، الا اذا كان وحشيا ضاريا، واباحيا غاويا، ولو عرضت لذاكرتك ما قرأته فى التاريخ لتحققت من تراجم حماة الامم وكماتها ، وواضعى أساس مجدها وعظمتها، انهم كانوا من شظف العيش والبعد عن المطامع المادية بالمكان الارفع ، وان اولئك الوحوش

الضراة،والاباحيين الغواة (١) الذين يعملون لسد جشعهم،وترضية شهواتهم، كانوا في كل جيل شرا على امهم من اعدائها،ولولا اولئك النفر الذين هم بالمتيقلة أشبه، والي المترهبة اقرب، لباد العالم الانساني بأسره،كما بادت امم برمتها في توفية شهوات متسلط بهم ، وتحقيق مطامع طاغية زنيم

ثم كأني بك يابني لاترى المدنية تخفق راياتها ،والصنائع الجميلة تبهر معجزاتها، والعلوم تكشف آياتها الا على يد الماديين

اما اذا كنت تقصد من المدنية قشورها ومساوئها من النفاق والخداع،والتصنع والرياء،ومن الصنائع الجميلة مايميت النفوس ويحرك الشهوات،ومن العلوم مايمكن البشرية من اساليب التدمير والتخريب فقد صدقت.ولكن ان فهمت ان المدنية تهذيب الاخلاق،وتلطيف الطباع،وترقية العواطف،ومشاكلة الظاهر في نقائه،للباطن في صفائه،ومن الصنائع مايفيد الانسانية،ويسهل عليها الحياة الارضية،ومن العلوم ما يكشف لها اسرار الكون ويجلي لها وجوه الحقائق،فان هذا كله لم يتم الا على ايدى البررة الكاملين من افراد هذا النوع في كل ادوار التاريخ

فمن الذي هذب من الصفات الوحشية،وزهد في الاخلاق الحيوانية،وآخي بين الناس،وآسي بين الفقراء والاغنياء،ودعا الي الوداعة والاخاء،غير المرسلين والانبياء ومن تبعهم من الاتقياء والاولياء ؟

ومن الذي اوجد الصنائع وقام على ترقيتها،وذهب في الابداع فيها كل مذهب، غير اولئك الافراد الذين كانوا من شظف العيش بحيث نسوا انفسهم في سبيل اعمالهم، ومنهم من انفق كل مايملك في تكميل مخترعاتهم،ويحفظ التاريخ لنا ان منهم من احرق خشب بيته ليتخذ منه تنورا لتتميم اختراعه

ومن الذي اوجد العلوم،وسهر على اقامة صرحها الفخم،غير اولئك الافذاذ الذين كانوا من خشونة الحياة وجشوبتها بحيث انقطعوا عن الخلق ليتفرغوا للفكر والعمل، وثبتوا امام الغلاة من الدينيين حتى احرقوا منهم اكثر من ثلاث مئة الف عقابا

(١) الضراة جمع ضار من الضراوة وهي الافتراس. والغواة جمع غاو من الغي

لهم علي نقضهم المذاهب الدينية السائدة

اما اولئك الناعمون المترفون، والغواة الاباحيون، من الذين جعلوا التظرف والتجمل ستارا علي نفوس عمرت بالقبح والدعارة، وا تخذوا الصنائع ذرائع لسد نهمتهم من الترف والاباحة، واستعملوا العلوم وسائل للتعالي علي العامة، فهم في الواقع هدّمة المدنية، ومُشوهة الصناعات، ومحرّفة العلوم، لا يقوم بهم عمل نافع، ولا تنهض بجهودهم امة، فروح العمران، وقوام العرفان، هم اولئك المتقشفة الزهاد الذين يعرفون ان الحياة مهلة للجهاد والعمل، لا فرصة للترف والكسل، وان ما فوق الحاجة مضيعة للذات، مجلبة للهلكات، لأن الحياة مرتع للبهيمية، وملعب للميول الشهوية

فلو ارتد العالم كله الي امثال اولئك الذين تسمونهم بالمتبتلة والمزهدين لخلصت المدنيه من سوءاتها، والفنون من مخزياتها، والعلوم من طامّاتها، ولبلغت البشرية، وقد خلصت من رعونات هذه النفوس، الي أرقى مراتب الكمال، في بضعة اجيال

قال (ك...): اذكر اني قرأت في كتاب (الالحاد) للعلامة البيولوجي (لودانتك) المدرس بجامعة السوربون بفرنسا كلاما علي استحالة الخوارق، وعلي ان الالحاد هو ثمرة العلم والفلسفة، وانه المطاْن الاخير للعقل بعد ان لعبت به حيل المشعوذين في مئات القرون الماضية

فضحك الاعرابي وأطال، ثم سكت هنية وقال: أهو الكتاب الذي يقول فيه: «آتني بخارقة واحدة أكن من المؤمنين» ؟

قال (ك...) : هو ذاك

قال الاعرابي : فما يمنعك من احضاره الساعة والادلاء الىّ بما فيه ؟

قال (ك...) : ان بيتي بالناصرية، وانا الساعة بمصر الجديدة، فلو عملت علي احضاره استغرق ذلك ساعتين علي اقل تقدير

فقال الاعرابي: في وسعي ان اهدم لك ما قاله في ذلك الكتاب قبل ان يرتد اليك طرفك

فقال (ك...) : وكيف ذلك ؟

فقال الاعرابي : ألم يقل آتني بخارقة واحدة أكن من المؤمنين ؟ فأنا آتيك به في طرفة عين

فقال (ك...): لو فعلت لاحرقته هنا وذريت رماده في هذه الصحراء

قال الوجدان: فوالله ما فعل الاعرابي غير أن مد يده صوب مصر وقال (تعال يا كتاب الالحاد للاستاذ لودا نتك،) ولم يتم كلمته حتى رأينا الكتاب بين أناملة، فناوله لطاليه (١)

فاعترانا دهش عظم من هذه الفعلة، وأخذ صاحبه يقلبه ليستوثق من أنه كتابه بعينه، ولم يكد يصدق ذلك حتى رأى اسمه عليه، وملاحظات كان كتبها بخطه على هامشه. ومما زاده ثقة كتاب وجده بين صحفه كان وضعه فيه بنفسه في صفحة معينة منه. وتناولنا نحن الكتاب لنتحقق من انه مادي محسوس، وقد كنا قرأناه باستعارته من أخينا (ك...) فوجدناه هو بعينه

وبينا نحن دهشون سكوت مما صنع بنا، اذا بالاعرابي مثل واقفا وقال: سلام عليكم استودعكم الله

فقلنا الى أين ؟

قال : الى بيتي

قلنا : انت ضيفنا في هذه الليلة ؟

فشكرنا وقال: ما الى هذا سبيل

قلنا : فأين بيتك ؟

قال : بحي الملأ الأعلى

فقلنا : ألملأ الأعلى حي يجمعهم في هذه الارض ؟

فقال : أفتحسبونهم في السماء محبوسين في الحظائر ؟

فقلنا : نحن نعد الملأ الاعلى جماعات الملائكة وارواح النبيين والصالحين في وجود اعلى من هذا الوجود الارضي

فقال : ماعدوتم الصواب فيما تعرفون

---

(١) ان مسئلة استحضار الاشياء من اماكن بعيدة يقدر بعدها بمئات الاميال من الامور التى اثبت العلماء حصولها بواسطة المباحث الروحية وقد ذكرنا طرفا من تلك التجارب في بعض مؤلفاتنا. فهي امور محققة وان كان الواقفون مع حواسهم القاصرة لا يعرفونها للآن

قلنا : اذن فكيف تجمع بين الوجود معهم والوجود معنا ؟

قال الوجدان . فأمسك الاعرابي عن الجواب هنيهة حدث لنا فيها أمر عظيم ، وذلك ان كلامنا رأي نفسه في بيته بين اهله وخدمه يكلمهم ويكلمونه ، وأثبت وجوده بأعمال مادية قام بها، وبكتابة ما حدث له، ثم رأينا نفسنا مجتمعين حوله وهو يقول للسائلين أعيدوا عليّ سؤالكم

قال الوجدان . فأعادوه

قال الاعرابي . كما جمعتم انتم الساعة بين الوجود هنا والوجود في دوركم ؟

قلنا . نريد ان نفهم سر هذا الامر ؟

قال الاعرابي . جمعتم بين الوجودين بالانتقال من حال الي حال

قلنا . مامعني هذا ؟

قال الاعرابي . عجباً لكم أليس جوابي هذا من جنس الاجوبة التي تسمونها علماً طبيعيا ؟

قلنا . نرجوك ان تشرح لنا ماتقول

قال . بم يستحيل الدقيق والفاكهة في معداتكم الي دم وعظم وظفر وعصب ولحم؟

قلنا . بالهضم

قال الاعرابي . حسن ، وانا اقول لكم انكم جمعتم بين الوجودين بالانتقال

قلنا . الهضم عمل كيماوى له أدوار متتابعة يحدث بواسطة عصارات تنفرز من غدد مختلفة

قال الاعرابي . والانتقال عمل روحاني له ادوار متتابعة يحدث بواسطة حالات تطرأ على النفس

قلنا . كل ماقلته معميات لم نفهم منها شيئا

قال الاعرابي . سبحان الله، فهل تفهمون من تعليلكم للهضم اكثر من تعليلي لما تسألوني عنه ؟

قلنا . ادوار الهضم امور عملية يدركها العقل لاول وهلة بدون توقف

قال الاعرابي . واحسرة على الناس، لقد عودوا عقولهم ان تدعي فهم مالا يفهم،

وان تعقل مالا يعقل . فأصبح اخداعها للالفاظ ملكة راسخة فيها عميت بها عن ادراك خطورة المسائل وتقدير اقدارها، وان عقولا هذه حالها خليق بها ان تقف حيث هي قرونا طويلة

انكم تزعمون ان ادوار الهضم معقولة، فتقولون ان اول هذه الادوار يحدث فى الفم بالمضغ وبتأثير اللعاب فى النشاء الموجود في الاطعمة فيستحيل الى جليكوز، ثم ينزل الغذاء الي المعدة، فتتحرك به المعدة حركات مخصوصة ، وتفرز عليه عصارة مناسبة لهضم المواد الازوتية، فيتعجن ويستحيل الي كتلة تسمونها كيموسا، ثم تقذف به المعدة الي الامعاء الدقاق، وهناك تتفرز عليه عصارة من الكبد وعصارة من البنكرياس لاتمام هضم مالم ينهضم فى المعدة من المواد الازوتية ولهضم المواد الدسمة فيستحيل الى كيلوس، وهو سائل لبني يندفع الي القناة الصدرية، فتوصله الي الوريد تحت الترقوة، وهذا يوصله الى القلب فيدفعه الى الرئتين، وهناك يلامس الهواء فيحمر لونه ويصير دما وتتميز الفضلات فتقذف بالتبرز

قلنا : نعم نعم

قال الاعرابي : أهذا كله تعدونه معقولا ومفهوما ؟

قلنا : نعم نعم ؟

قال الاعرابي : وهذا الذى أبكى على عقولكم منه. ومادمتم علي هذه الحال فأنتم محرومون من ادراك اسرار الكون وحاكمون علي مداركم بالعقم

ثم نظر الينا نظرة الاسيف وقال : أنا أميز لكم ماعقل مما لايعقل من أمر الهضم فأعيروني أسماعكم ؟

متي وصلت اللقمة الى الفم فيعقل ان يتحرك الفك السفلي لتحطيمها لأنه تحت الارادة، ويعقل ان يتحرك اللسان لاماتته علي مضغها تحت الاضراس. ولكن لاتعقل سائرحركات اللسان، تلك الحركات الماهرة التي يؤدي بها عمله دون ان يقع تحت الاضراس وأنتم لاهون عما يعمل . ولا يعقل ان تتأثر الغدد اللعابية فتفرز ما فيها من سائل مركبا تركيبا يناسب نوع الاغذية . ولا يعقل ان تتحرك المعدة من تلقاء نفسها، وان تفرز علي الاغذية عصارتها . ولا يعقل ان تقذف الكيلوس بعد تمام تكونه الى

الامعاء بحركات تناسب ذلك، ولا يعقل ان تتأثر الكبد فتصب صفراءها، وتتأثر البنكرياس فيصب عصارته من تلقاء نفسيهما، ولا يعقل ان تحدث تلك الخلاصة المباينة بمحض انصباب العصارات على المواد الغذائية، ولا ان تنتقل الى الوريد تحت الترقوة بذاتها وتنصب الى الرئتين بدون ان يدير هذا العمل عقل ارقى من العقل البشرى، ولا ان يحصل والانسان غافل عنه. فان كنتم انتم تعقلونه، فما ذلك الا لانكم تعتبرون المعلول الذى يجب البحث عن علته، علة في نفسه. كأن تقولون ينفرز اللعاب لان الغدد اللعابية تتأثر فتفرزه. وتغفلون عن ان تأثرها معلول لعلة يجب البحث عنها، لا انه هو نفسه علة يكتفى بها. وتعللون حركة المعدة وانفراز العصارات واعمال الامعاء والاوردة والشرايين بتأثرها ايضا، مع ان تأثرها هذا معلول لا علة كما سبق. وهكذا تقفون مع المعلولات وتعدونها عللا اولية، فجعلتم من هذا الحشو الرث مجموعا ضخما سميتموه علما فاقطعتم به عن اسرار الوجود، وصار بينكم وبين الحقائق الكبرى حجابا كثيفا أقامه تعويدكم عقولكم القصور، وأعينكم الهرب من النور

قلنا: هذا موقف العلم امام الحوادث فما حيلتنا فى ذلك؟

قال الاعرابي: العلم؟ حاش لله ان يعمي العلم الى هذا الحد. انكم اقتصرتم على قراءة ما يكتبه الماديون الذين يدلسون على الناس بانهم فهموا كل شيء، ولكن أئمة العلم الحق يعترفون بانهم لم يفهموا علة اي شيء. انظروا الى ما كتبه الاستاذ الكبير شارل ريشيه مدرس الفزيولوجيا فى جامعة الطب بباريز وصاحب مجلة العلم والعضو بمجمع علماء فرنسا. قال في مقدمة كتاب (الظواهر النفسية) للدكتور ماكسويل:

« اننا نعيش في وسط ظواهر تتوالي حولنا ولم تفهم سر واحدة منها فهما يليق بدرجتها، حتي ان اكثرها سذاجة لا تزال سرا من الاسرار المحتجبة عنا كل الاحتجاب. فما معني اتحاد الايدروجين بالاوكسيجين؟ ومن الذي استطاع ان يفهم ولو مرة واحدة معني هذا الاتحاد وهو يفضي الى ابطال خواص كل من الجسمين المتحدين وايجاد جسم ثالث مخالف للاولين كل المخالفة ...

« فالاولي بالعالم الصحيح ان يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد، متواضعا لان علومنا ضئيلة، وجريئا لان مجال العوالم المجهولة مفتوح امامه ..

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد أقفل وانه لا يوجد شيء جديد يحسن تفهيمه للانسان الضعيف» انتهى

هذا ولو شئت ان آتيكم بألوف من هذه الاقاويل لاستطعت

ثم اقبل علينا بوجهه الوضاء ، وقال خذوها عني في هذه الصحراء :

ان هذا العقل العادي الذى نهتدي به في هذا الطور من الحياة ليس الا بصيصا من النور المستكن في قوانا المعنوية ، اتصل بالعالم الخارجي من نوافذ هذه الحواس الخمس، ووقف عند حدها من القصور مضطرا بحكم الصورة الجسدية . وليس هذا محاكاة لفلاسفة افلاطون او احد الاقدمين، ولكنه نتيجة تجارب عملية عملت في مدى اكثر من مئة سنة وانتم عنها لاهون بهذه الفضلة من العلم الطبيعي الناقص، ذاهبين مذهب المفتونين من اهل القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتقدون انهم وصلوا الى اقصى غايات العلم، وهم لم يجاوزوا قشور بعض مسائله الاولية . فان جمدتم على ما انتم عليه، فليس هذا بحاط من قيمة الحقيقة ولكنه حاط من قيمتكم، وعائد بالشر على من يقع تحت تأثيركم من نابتة بلادكم

فالعلم الطبيعي وما ارتكز عليه من الآراء والافتراضات، وما أدى اليه من الاستكشافات والمخترعات، لم يعد مجال النسب والعلاقات بين الكائنات، ولم يتخط دائرة القشور والسطحيات، وهذا العلم نفسه يعترف بذلك ويقرره وهو جهة قوته وسطوته، وسبب كبير من اسباب دولته، ولم يقل اهل البصر ان العلم الطبيعي محكوم عليه بالوقوف عند هذا الحد، بل قالوا نتربص به حتى تتهيأ له الوسائل، وتتوافر الوسائط لاختراق هذه القشور الي اللباب، ولكن الآخذين عن هؤلاء الاقطاب خيل لهم ان الآراء والافتراضات، مقررات لا يتطاول اليها التبديل، ولا يعتريها التحويل، فخلطوا بينها وبين العلم نفسه، واخذوا يحاربون بها كل جديد، وان كان جاءهم قائما علي اصل العلم من المشاهدة والتجربة، ولم يفطنوا الى عملهم المخجل من نصرة الافتراضات التي أدي اليها الاضطرار، علي المستكشفات التي اوصل اليها الحس والاختبار، فأصبح موقفهم كموقف متحمسة الاديان الباطلة ينتصرون للخيالات علي المحسوسات

لقد وصل الانسان اليوم رغما عن كل هذه الفتن العقلية، والحوائل الفلسفية والعلمية

الي اول اللباب، بعد ما أنكره القشريون احقابا مدا حقاب، فثبت ان الوجود المادى عقلا يدبره من وراء حجاب، وللانسان روحانيته خلف هذا الاهاب، وثبت ايضا ان هذه الظواهر الكونية، والمظاهر المادية، تنتهي بالتحليل الي قوة اولية، فالعين ترى مرئيات، والسمع يسمع اصوات، والذوق يذوق مطعومات، والاعصاب تحس بماديات، والانف تدرك رائحات، فيرتب العقل كل هذا الي معلومات، ويسمها شرحا وتفصيلا، ويقتلها خبرا وتحليلا، والحقيقة انها كلها مراتب لوجود مطلق واحد، تعمل فيه قوي لها آثار لا تحصي، تنزل من المدارك المختلفة منازل تناسبها، وتقع من الحس مواقع تجانسها، فما يدركه الانسان صخرا أصم بمقتضي حواسه، وبحكم رتبته في الوجود، قد يدركه كائن ارقى منه مدارك وحواس اثيرا صرفا او نورا محضا

قال الوجدان : ظللنا نسمع ذلك الاعرابي بقلوب واعية، وأبصار نا شاخصة اليه، ونحن سكوت كأن علي رؤوسنا الطير، وهو في حالته الاولي حتي بلغ هذا الحد، فلما استأنف الكلام شهد نا منظرا ما كنا نتخيل ان نري مثله في حياتنا، ولو كنا أخبرنا به لرمينا قائله بالجنون. ذلك ان الشيخ اخذ جسمه يشف رويدا رويدا حتي استحال الي ما يشبه النور وليس به، ولم يجسر احدنا ان يسأله بل ولا ان يتحرك لما غشينا من هيبته فكان ما قاله وهو في دور الاستحالة :

فاياكم يا بني والخبط في المدركات، والخلط في مراتب الموجودات، واعلموا ان الوجود في حقيقته غير ما تصوره لكم حواسكم، وقواه اكبر من ان تحيط بمداها عقولكم، فأخسر الناس من جعل عقله عقالا، وحواسه في عنقه اغلالا، وعلومه الناقصة عليها اقفالا، فتنوروا النور تبصروه، وتطلبوا الحق تجدوه . وبعد فانا الحكم بن مرشد ولي الباحثين المخلصين، وهادي التائهين المستهدين، سأتولاكم كلما أمعنتم في مضلة، أو أشرفتم علي مزلة . والسلام عليكم ورحمة الله

قال الوجدان : فما انتهي الي هذا المقطع حتي تقبض شبحه النوراني، وما هو الا كلمح البصر او هو اقرب، حتي استحال الي عقاب أشهب، فضرب الجو بجناحيه، وطار ونحن ننظر اليه . فجلسنا ساعة نعجب من أسرار الوجود، ثم تفرقنا علي أن نعود